

# صلاح الدين

القيادة - الإستراتيجية - الصراع

تأليف

ديفيد نيكول

ترجمة وتعليق

علاء مصري النهر



صَلَاةُ الدِّينِ



# صَلَاحُ الدِّينِ

القِيَادَة - الإستِراتِيجِيَّة - الصُّراع

تأليف  
ديفيد نيكول  
(مع تصديره للترجمة)

[ومقالة "صلاح الدين ومُعجَبُوهُ" لهولت]

ترجمة وتعليق  
علاء مصري النهر

تقديم  
إبراهيم عُمر الزُّبَيْق



بدر

Originally published as David Nicolle, *Saladin: Leadership, Strategy, Conflict*, by Osprey Publishing, London 2011.

صورة الغلاف: صورة تخيلية للقتال الأسطوري بين صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد (المتحف البريطاني، رقم 1885، 11-13، لندن).

Cover illustration: A depiction of the legendary fight between Saladin and Richard Lionheart (British Museum, no. 1885, 11-13, London)

Typeface for the Latin, Greek, and Cyrillic scripts: "Brill". See and download: [brill.com/brill-typeface](http://brill.com/brill-typeface).

ISBN 978-90-04-70227-1 (hardback)

ISBN 978-90-04-70229-5 (e-book)

DOI 10.1163/9789004702295

Copyright 2025 by Alaa Masry Alnahr. Published by Koninklijke Brill BV, Leiden, The Netherlands. Koninklijke Brill BV incorporates the imprints Brill, Brill Nijhoff, Brill Schöningh, Brill Fink, Brill mentis, Brill Wageningen Academic, Vandenhoeck & Ruprecht, Böhlau and V&R unipress. Koninklijke Brill BV reserves the right to protect this publication against unauthorized use. Requests for reuse and/or translations must be addressed to Koninklijke Brill BV via [brill.com](http://brill.com) or [copyright.com](http://copyright.com).

This book is printed on acid-free paper and produced in a sustainable manner.

## قائمة المحتويات

- ز تصدير المؤلف للترجمة  
ح تقديم إبراهيم الزبيق  
ي مقدمة المترجم  
ق قائمة الأشكال

تمهيد 1

1 جدول زمني بالحوادث 13

2 في النانة 16

3 الحياة العسكرية 25

4 ساعة القدر 41

1 غزو مملكة بيت المقدس 45

2 معركة حطين - النصر المبين 56

3 استيثار النصر 69

4 عراقيل النصر 81

5 قادة معارضون 103

1 شاور بن مجير السعدي 103

2 عز الدين مسعود بن مودود 108

3 رينالد دي شاتيون 110

4 أمريك ملك بيت المقدس 114

5 رتشارد ملك إنكلترا 117

6 معتقدات وآمال 121

7 لَمَّا وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا 127

8 زُبْدَةُ الْقَوْلِ فِي السَّيْرَةِ 134

145 مَلْحَق 1: مقالة "صلاح الدين ومُعجبه" لهولت

156 مَلْحَق 2: أهم أعمال المؤلف

159 لقراءة مُوسَعَةٍ

164 مَسْرَدُ الْمُصْطَلَحَاتِ

166 مَصَادِرُ الْمُتَرْجِمِ وَمَرَايِجُهُ

180 كَشَافُ الْأَعْلَامِ

183 كَشَافُ الْأَمَاكِنِ

## تَصْدِيرُ الْمُؤَلَّفِ لِلتَّرْجَمَةِ

من المُسَلَّم به عَالَمِيًّا أَنَّ صلاح الدِّين كان واحِدًا من أعظم القادة العسكريين والسياسيين المسلمين إبان فترة العصور الوسطى. لذا أشعرُ بالفخر كُلِّ الفخر؛ لأنَّ الدكتور علاء مصري النهري قد وقَّع اختيَارُهُ على كتابي عن صلاح الدِّين (Saladin) – الذي نُشِرَ باللُّغة الإنكليزيَّة في المملكة المُتَّحدة في العام 2011م – كي يُترجمه إلى اللُّغة العربيَّة. وممَّا زادني أيضًا فخرًا وتبها أن مُترجمه من مصر، تلکم الدَّولة التي أعرفها حقَّ المعرفة، بعد أن زرتها أوَّل مرَّة في خريف العام 1964م؛ فكان أوَّل الغيث، ثمَّ أنهمرت زيارتي إليها على ممَرِّ السنين.

إنَّ الهدف الأصيل من كتابي عن صلاح الدِّين، والمنشور ضمن سلسلة ”القيادة“ (Command) برقم 12 في دار نشر أوسبري (Osprey Publishing)، هو تقديم دراسة دقيقة، مُتعاطفة عن صلاح الدِّين إلى العالم النَّاطق بالإنكليزيَّة. وقد كان هذا في وقتٍ فشا فيه وطمى التَّحيزُ ضدَّ العرب – بل ضدَّ المسلمين بعامةٍ – وجاسَّ خلال ”العرب“. ومن أسفٍ أنَّ ذلك لم يَنْشَبْ أن ازداد سوءًا، وصار هوَى مُتَّبَعًا.

برغم صِغَر حجم هذا الكتاب، فإنَّه ساعدني في تحقيق هدفي؛ إذ إنَّ جَمَهرة منشورات دار أوسبري تلتزم تقديم نصوص مُوجزة مائزة بالدِّقة والحياديَّة، هذا فضلًا عن الأشكال التَّوضيحيَّة عالية الجودة. وتضمَّنت هاتِه الأشكال التَّوضيحيَّة صورًا، أصرَّ النَّاشِر أن تكون شائقةً، وأن تكون وثيقة الصِّلة بالموضوع في الوقت نفسه، بالإضافة إلى خرائط واضحة دقيقة. وأهمُّ من ذلك كُلِّه أنَّ الكُتُب في جميع سلاسل دار نشر أوسبري – ومن بينها سلسلة ”القيادة“ – يجب أن تشتمل على إعادة إحياء ”أعمال فنيَّة“ دقيقة ومثيرة عن الحوادث المُتعلِّقة بالموضوع. ومن ثمَّ، توجد أشكالٌ توضيحيَّة عن مسيرة صلاح الدِّين العرَّاء كقائدٍ عسكريٍّ وسياسيٍّ، عاش في غمرات فترةٍ كانت تُمورُ بالاضطرابات في تاريخ العرب والشرق الأوسط. من أجلِّ كُلِّ ذلك، هأنذا أعرِّضُ كتابي – بكلِّ امتنانٍ وتواضعٍ – على قُرَّاء لُغة الضَّاد، وقد آن الأوانُ لِأخلي بينهم وهذا الثَّمَر الشَّهي المُجتَنى.

## تقديم

ما يفتأ صلاح الدين يُثيرُ الأقدامَ للكتابة عنه، على كثرة ما كُتِبَ، فهو بلا مُنازع أشهرُ شخصيةٍ ظهرت في شرقنا الإسلامي إبان الحروب الصليبية، حتى غدا رمزًا لكلِّ ما هو نقيٌّ وجميلٌ في تاريخنا.

وهي شهرةٌ يستحقُّها لما تمتَّع به من سماتٍ خاصَّةٍ ميَّزته عن غيره من القادة الذين عاصروه، من حيث القيادة والإستراتيجية في صراعه الدؤوب ضدَّ أعدائه، وهو ما تحدَّث عنه هذا الكتابُ بشمولٍ وإسهابٍ، وزادها رُسوخًا انتصاره الكبير في معركة حطين، وما تلاها من فتح بيت المقدس، دُرَّة فُتوحاته.

ولعلَّ ما يُفسِّر لنا تاريخه كُلُّه، تلك الكلمة التي قالها وقت تسنُّبه الوزارة في مصر، عقيب وفاة عمِّه أسد الدين شيركوه: "لَمَّا يَسَّرَ اللهُ لِي الدِّيَارَ المِصْرِيَّةَ علمتُ أَنَّهُ أرادَ فَتْحَ السَّاحِلِ؛ لأنَّه أوقعَ ذلكَ في نَفْسِي". فمن خلال كلمته هذه يمكننا تتبُّع سياساته وتحالفاته، وما شَنَّه من معارك؛ كي يصل إلى مُبتغاه، وقد وصل.

يَبْدُ أن لشخصية صلاح الدين فَرَادَةً عن غيره كذلك، تجلَّت في هذا الجُمع الحميم بين شجاعة المُقاتل وصلابته، ورِقَّة مشاعره وعمقها، وهو جُمعٌ ليس بالهين في زمن ساد فيه العنْفُ الأعمى، وعمِّ فيه الكُرهُ الأضْمُ، ففي خِصْمٍ معاركه وحروبه لم يتخلَّ عن الإنسان فيه، وسعى إلى أن يملك قلوب النَّاس بالْحُبِّ لا بهيِّبة الحُكم، وبالرَّحمة لا بجبروت السُّلطة.

وقد صوِّر لنا مُعاصروه جوانبَ من تلك الملامح من شخصيته، فيها هو مؤرِّخ دِمَشقُ عليّ بن الحَسَن المعروف بابن عساكر، حين يذكرُ ما كان عليه نور الدين من الهيبة والوقار، حتى إنَّ أحدًا من الأمراء لم يكن يجروء على الجلوس بحضرته إذا لم يأذن له، يتذكَّرُ زيارةً له إلى مجلس صلاح الدين حين ملك دِمَشقُ، فيرى مجلسًا يعجُّ بالحوار الصَّاحب، وكأنَّه كبعض مجالس السُّوق كما وصفه، وصلاح الدين كواحدٍ من أمرائه ومُجالسيه، لا يتميِّز عنهم بمنزلةٍ أو كلامٍ، وهي لَعَمْرِي ميزةٌ لم يقدرها حقُّ قدرها هذا المؤرِّخ الكبير؛ الذي اعتاد السُّكون الهامد في مجلس نور الدين، حيث النَّاس كأنما على رؤوسهم الطير من هيئته ووقاره.

وفي حصاره الثاني لحلب، وما تخلَّله من جنوحه للصُّلح واشتراط أعدائه في مطالبهم، كان يكفيه خروج ابنة صغيرة لنور الدين إلى خيمته في اللَّيْل كي يقوم

لها، ويُقَبَّلُ الأَرْضَ، وَيَبْكِي على نور الدِّين، ويهب لها بلدةً مثل عَزَّاز، ويُقدِّم لها من الجواهر والشُّحف والمال الشَّيءَ الكثيرَ.

ورقته هذه كانت حتَّى مع أعدائه، وهم يحاربونه، وقصته مع المرأة الصَّليبيَّة التي فقدت طفلها الرضيع وقت حصارهم عكاً مشهورة، وكيف أنها استغاثت بملوكها فقالوا لها عن صلاح الدِّين: إنَّه رحيم القلب، وقد أذِنَّا لكَ في الخروج إليه. فلمَّا أتته بكت بُكاءً شديدًا، ومرغمت وجهها في التُّراب، فرق لها ودَمَعَتْ عينه، وأمر بإحضار رضيعها، ولم يزل واقفًا حتَّى أحضر، وسَلَّم إليها.

وهذا اللُّطف والجِلْم مع النَّاس رافقه حتَّى في مرضه الذي تُوفِّي فيه، وقد عانى فيه ما عاناه من ألمٍ وحُمى، فقد زاره في مرضه صاحبه القاضي ابن شدَّاد والقاضي الفاضل، ولندع ابن شدَّاد يُحدِّثنا عن تلك الرِّاية، يقول: "وأسندنا ظهره إلى مِخْدَة، وأحضر ماءً فاترًا يشربه عَقِيب شَرَابِ يَلِين الطبع، فشربه، فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدَّة حرِّه، فُعْيِر، وعُرض عليه ثيابًا، فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب، ولم يَقُلْ سوى هذه الكلمات: سُبْحَانَ اللَّهِ لا يمكن أحدًا تعديل الماء! فخرجتُ أنا والقاضي من عنده، وقد اشتدَّ مِنَّا البُكاء، والقاضي الفاضل يقولُ لي: أبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مُفارقتها، والله لو أنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب بالقَدَح رأسَ مَنْ أحضره".

بل إنَّ دِمَشق لم تشهد حُرْزًا على حاكمٍ كما شهدت يوم وفاته، فقد غشي النَّاس من البكاء والعويل ما سَعَلهم عن الصَّلَاة، فما يوجد قلبٌ إلا حزين، ولا عينٌ إلا باكية، ثُمَّ رجع النَّاس إلى بيوتهم أقبَح رجوع. ولو أطلقتُ للقلم عِنايه لاسترسل في الحديث عن صلاح الدِّين، والحديث عنه ذو شجونٍ.

وبعدُ، فإنِّي أشكر للدُّكتور علاء مصري النهر، على ما بذله من جهدٍ طيبٍ في ترجمة هذا الكتاب، بما عهد عنه من دِقَّة في العبارة، واستقصاء في البحث، وحداه شغفه بالإتقان على تربيته بتعليقاتٍ مفيدة، زادت النَّصَّ وضوحًا وغنى، وأمِّل أن يكون في عنايته به، قد سدَّ نقصًا في مكتبتنا العربيَّة تريدنا معرفةً بصلاح الدِّين وتقديرًا له.

إبراهيم عمَر الزُّبيق

غفر الله له

والله المُوفِّق لكلِّ خيرٍ.

دِمَشق في 8 أيار/ مايو 2022م

## مُقَدِّمَةُ الْمُتَرْجِمِ

يُعَدُّ صلاح الدِّين من أكثر الشخصيات المُسلمة التي حظيت - ولا تزال تحظى - بكثرة التآليف عنها في الغرب لسببين اثنين: أولهما لهزيمته الفرنج هزيمة نكراء في حطّين، وأخرهما لمآثره معهم في عُقب حطّين؛ فهو العدوُّ النبيل! ومن ثمَّ كثرت التآليف عن مسيرته الثَّرة من جوانبها كافّة.<sup>١</sup>

لا عَجَب؛ فشتانَ بين فِعْل الفرنج لَمَّا دخلوا بَيْتَ المُقَدِّسِ عُزَاءً، وبين فِعْل صلاح الدِّين لَمَّا دخلها فاتِحًا: [من الطويل]

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً      وَلَمَّا مَلَكَتُمْ سَالَ بِالْدَمِ أَنْطَحُ  
وَحَلَلْتُمْ قَتْلَ الْأَسَارَى، وَطَالَمَا      عَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى نَعْفُ وَنَصْفَحُ  
فَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا      وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالذِّي فِيهِ يَنْصَحُ<sup>٢</sup>

إنَّ هذه الحِقبة التاريخيَّة الفيصليَّة لها أهميَّةٌ عظيمةٌ في تاريخ الشرق والغرب على سويةٍ واحدةٍ، فما أدراك ما تلکم الحِقبة؟ إنَّها حِقبة احتكاكٍ حربيٍّ وثقافيٍّ، تخلَّص فيها الشرقُ الإسلاميُّ من المُحتلِّ الغربيِّ، الآخذ بلادَه عَنوةً. وتخصَّصتُ فيها إبان دراستي في الماجستير والدكتوراة؛ طلبًا للحقِّ والنَّصفه، مُبتغيًا رُصدَ شمس الحقيقة، تلك التي تجري أبدًا لمُستقرِّ لها. فجعلتُ الماجستير عن الدَّولة الزنكيَّة، فهي الجِسر المُوصِّل إلى تحرير بَيْتِ المُقَدِّسِ على يد صلاح الدِّين. وأمَّا رسالة الدكتوراة، فأفردتها عن أبرز مؤرِّخي تلك الحِقبة. ثُمَّ حَقَّقْتُ الجزء السَّادس من كتاب ”مُفرِّج الكروب في أخبار بني أيُّوب“ لابن واصل الحمويِّ، وصدر عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القوميَّة المصريَّة في العام 2023م. وانطلاقًا من أهميَّة دَوْر صلاح الدِّين المُتمم لدَوْرِي عِماد الدِّين زَنكي وابنه نور الدِّين مَحْمود في جهاد الفرنج، ترجمتُ أهمَّ كتابٍ صُنِّف عن صلاح الدِّين في الغرب، أعني كتابَ ستانلي لين-

١ ثُمَّ مقالةٌ قيِّمةٌ مُحكمةٌ بعنوان ”صلاح الدِّين ومُعجبهوه“ لبيتر مالكولم هولت (P.M. Holt)، ونظرًا لأهميَّتها الكبيرة، ترجمتها وألحقتها بالكتاب، يُنظر: مُلحق رقم (1).

٢ الأبيات لأبي الفوارس سَعْد بن مُحَمَّد ابن صَيْفي التَّميميِّ، المعروف بِحَيْصَ بَيْصَ، ت. 574هـ =

1178م. (وفيات الأعيان 2: 365؛ الوافي بالوفيات 15: 168).

بول (Stanley Lane-Poole)، وصدر عن الدار المصريّة اللبناييّة في العام 2023م. لقد صنّف لين-بول كتابه الفريد عن صلاح الدّين عند مُنْقَلَبِ القرن التاسع عشر، ثمّ جاءتِ الكُتُبُ الغربيّةُ عنه من حينها تَتْرَى. وبهذا أخذت فضائلُ صلاح الدّين المطوية في الدّيعان والانتشار.

ولكون ديفيد نيكول (David Nicolle)، مُؤرِّخًا عسكريًّا إنكليزيًّا، له كتاباتٌ تُقالُ الوُطأة في الغرب، تتسمُ بالموضوعيّة إلى حدّ كبيرٍ، ويأتي في سَنامِ أعماله هذا الكتاب الذي نحنُ في رحابه نتجوّلُ وعمّا قريبٍ سنقطفُ من ثماره اليُنع؛ إذ يتناولُ الجانِبَ القياديّ والإستراتيجيّ والصّراعيّ من مسيرة صلاح الدّين على نحوٍ أخصّ، ومن ثمّ وقع عليه اختياري. فالمؤلّف يتخذُ موقفًا بينَ بينٍ من صلاح الدّين، مُتجنّبًا التّفريط والإفراط: فلا هو بالمؤيّد الفُحّ، ولا هو بالمُتحامِلُ الإدّ، وإن كان إلى الحِباد أقرب.

بدأ تعرّفي إلى المؤرِّخ الإنكليزيّ ديفيد نيكول في يوليو 2019م لَمّا التقينا ضمن فعاليات المُؤتمَرِ الدُّوليّ عن "الفروسيّة والفنون الحربيّة في عصر سلاطين المماليك" بمكتبة الإسكندريّة العامرة، ومُذّ تلكم المناسبة أخذتُ أنقُب عن مؤلّفاته، حتّى شدّني هذا الكتابُ شدًّا، فعرضتُ عليه ترجمته، فمرّحَب بالفكرة وهشّ لها، وأمَدّني بنسخةٍ منه.

وحقيقٌ عليّ أن أحيط سيّدي الفارئ الكريم علمًا بسيرة المؤلّف، وبسُهمته العلميّة:

فأمّا المؤلّف، فهو ديفيد تشارلز نيكول، وُلِدَ في مدينة لندن في الرابع من إبريل 1944م، وعمل لدى تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانيّة (BBC) في الفترة من 1963 إلى 1967م. ثمّ بعدما سافر في ربوع الشرق الأوسط وشغفته حُبًّا الحضارة الإسلاميّة، أُعير إلى قسم الإذاعات العالميّة بهيئة الإذاعة البريطانيّة؛ حيث عمل كاتبًا للمحادثات في فرع الإذاعة النّاطق بالعربيّة في الفترة من 1967 إلى 1971م. وفي هاتِه العُضون بدأ في الكتابة لمجلاتٍ تعليميّة عن المواضيع التاريخيّة والأثريّة. وفي العام 1972م عاد أدراجَه إلى الجامعة حتّى حصل على درجة الدُّكتوراة من جامعة إدنبرة (University of Edinburgh) العريقة في العام 1982م، وكانت رسالته بعنوان "التكنولوجيا العسكريّة إبّان العصور الإسلاميّة الذهبيّة" (The Military Technology of Classical Islam)،

سعى فيها جاهداً إلى جمع أدلّةٍ عن الأسلحة والدُّروع المُستخدمة في الحضارة الإسلاميّة أثناء العصور الوسطى (منذ القرن السادس إلى الرابع عشر للميلاد)، وذلك بالاستناد إلى مَصادرٍ قروسطيّةٍ أثريّةٍ: المكتوبة والمُصوَّرة.

بجانب مُحافظَة نيكول على كِتابة مقالات لمجلاّت تعليميّة، نَهَدَ أيضًا إلى تصنيف كُتُب عن أسلحة العصور الوسطى ودُروعها، وعن التاريخ الحربيّ، لا سيّما في العالم الإسلاميّ. وفي العام 1983م عمل أستاذًا مُحاضرًا بجامعة اليرموك بالأردنّ، فظلّ يُدرّسُ بها حتّى العام 1987م. وعَقِبَ أوْبته إلى إنكلترا، وأصل الكِتابة حتّى صار لديه الآن ما يُناهزُ المئة كِتَابٍ عن تاريخ التكنولوجيا العسكريّة في الشرق الأوسط ووسَط آسيا وجنوبها أثناء العصور الوسطى. ومنذ العام 1995م يُشاركُ نيكول – فوق ذلك – في البحث الأثريّ المُهمّ في المَقام الأوّل بالكشوفات عن الآلات الحربيّة في العصور الوسطى وأوائل العصر العُثماني في سُوريّة، بالتعاون مع فريق الآثار الفرنسيّة والسُوريّة.

عَوْدٌ على بدءٍ، وأمّا سُهمته العلميّة فكثيرةٌ غزيرةٌ<sup>٣</sup>، وأغلبها مُنصَّبٌ على الأسلحة الإسلاميّة في العصور الوسطى. ومن باب زيادة الفائدة أقول: إنّ نيكول سَبَرَ أغوارًا عميقةً من عبقرية صلاح الدّين الحربيّة، وقد تجلّى ذلك في مُؤلّفاته الأخرِ التاليّة:

- *Saladin and the Saracens: Armies of the Middle East, 1100–1300*. Osprey Men-at-Arms Series, 171, London 1986.
- *Hattin, 1187: Saladin's Greatest Victory*. Osprey Campaign Series, 1 London 1993.
- *The Third Crusade 1191: Richard the Lionheart, Saladin and the Struggle for Jerusalem*. Bloomsbury USA 2005.
- *The Background, Strategies, Tactics and Battlefield Experiences of the Greatest Commanders of History*. Osprey Publishing 2011.

لا غَرَوَ أنْ شَهِدَ المُؤلّفُ براءة صلاح الدّين وحُكْمته حربيًّا وسياسيًّا ودبلوماسيًّا، ولم يتحيّر – و”المُتحيّر لا يُميّز“ – لبني جِلدته: [من الكامل]

٣ يُنظر: المُلحق رقم (2)؛ إذ أفردته عن أهمّ مُؤلّفاته.

٤ من جِكم أحمد شوقي، يُنظر كِتابه: ”أسواق الدّهَب“، القاهرة – مطبعة الهلال، 1932م، ص 114.

وَشَمَائِلُ شَهَادَةِ الْعَدُوِّ بِفَضْلِهَا وَالْحَقُّ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ<sup>٥</sup>

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة، تطرّق فيها إلى تاريخ الشرق الإسلاميّ عشيّة مَوْلِدِ صلاح الدّين، ثمّ أردفها بجدولٍ زمنيّ بأبرز المحطات في مسيرته، من المحيا إلى الممات. ثمّ غاص في طُور طفولة صلاح الدّين، وتنشئته العسكريّة، ثمّ تحدّث عن انتصاره الحاسم في حطين. كما خصّص جزءاً فريداً عن أهمّ القادة الذين عارضوا صلاح الدّين، اثنان منهم من المسلميين، هما: شاور السّعديّ، وعزّ الدّين مسعود "الأول" الزنكيّ، وثلاثة من الفرنج، وهم: أرناط، والملك أمريك (= عموري الأول)، ورتشارد قلب الأسد. ثمّ تفرّد بالتطرّق لمعتقدات صلاح الدّين وسبر أغواره، منها عدم إيمانه بالخرافات ونبوءات السّحرة. كما أشار إلى أنّ أهمّ سِمَة في نظامه السياسيّ والعسكريّ هي التضامن الأسريّ. وتطرّق إلى تحالفاته عن طريق المصاهرة، واهتمامه بالأسطول المصريّ، وتشبيد الطرق والجسور والخانات، واهتمامه بالتجارة في البحر الأحمر. وألمع إلى أهميّة الدور الذي كان يُؤدّيه ديوان الإنشاء في دعم حروبه.

ثمّ يذكر قول الفصل في سيرة صلاح الدّين من جانب الفرنج - بل من جانب الغرب الآن - ومن جانب المسلمين من قُدّماهم إلى حُدّثاهم: أبدى قادة الحملة الصليبيّة الثالثة إعجابهم به، ويراها بعضهم - مع ذلك - مُخادعاً. ثمّ أخذت صورة صلاح الدّين تتعدّل في الغرب شيئاً فشيئاً في خواتيم القرن الثاني عشر للميلاد، وآية ذلك ما ورد في "الكوميديا الإلهيّة: Divina Commedia" لدانتي (Dante). ثمّ صار يُنظرُ إليه في الغرب إبان القرن التاسع عشر على أنّه شخصيّة بطوليّة، وعلى أنّه العدوّ المسلم النّبيل. أمّا المسلمون المعاصرون له، فقسمان اثنان: قسمٌ مؤيّدٌ، على رأسه بهاء الدّين ابن شدّاد الموصليّ، والعماد الكاتب الأصفهانيّ، وقسمٌ آخرٌ مؤيّدٌ للزنكيين كعزّ الدّين ابن الأثير الجزريّ، الذي برغم ذلك نافح عن صلاح الدّين في قراره بضرورة استئصال شأفة حصار عكا في مهده. كما بيّن أنّ العُربان في أوائل عصر سلاطين المماليك كانوا ينظرون إلى حُكم آل أيّوب على أنّه حُكمٌ خوارج خرجوا على البلاد. أمّا العرب في العصر الحديث، فمنهم من يُقلّد دور صلاح الدّين بالحديث عن دور أسلافه من قادة الجهاد الإسلاميّ ضد الصليبيين كعماد الدّين

٥ البيت لأبي الحسن السّريّ الرّقّاء الموصليّ، (ت. نحو 366هـ = 976هـ). يُنظر: "ديوانه"، تقديم

زَنَكِي ونور الدين محمود، ومنهم مَنْ يَتَّخِذه قَدوةً يقتدي بها في الصِّراع مع العدوِّ الصهيونيِّ، وهذا اجتمع بعضُ المؤرِّخين المؤيِّدين للصهيويَّة ينالون منه كُلُّ نَيْلٍ. ينتقدُ المؤلِّفُ صلاحَ الدِّين في أَنَّهُ لم ينجح عمليًّا في ربطِ مِصر والشَّام عبرِ وَحدةٍ دينيَّةٍ أو عسكريَّةٍ أو اقتصاديَّةٍ، وقد أمسى هذا الضَّعْفُ بادِيًا للعِيانِ غِبَّ وفاته. ويبيِّن بعضَ مِثَالِبٍ من ضعفٍ وقُصورٍ في قيادة صلاح الدِّين؛ الذي اتَّخذ - من ثمَّ - الجِهَادَ وسيلةً لشرعنة حُكمه، ويحذو نيكول في ذلك حَذوُّ المؤرِّخ اليهودي أندرو إهرنكروتز (Andrew Ehrenkreutz). ويُقرُّ - مع ذلك - بأنَّ صلاح الدِّين كان أكثرَ معاصريه نجاحًا في التَّغلبِ على الفرقة والشُّقاق.

ومِمَّا زاد الكتابُ بهاءً ومتاعَةً، وزانه هي تيك الخرائط وهاتيكَ الصُّور التي حوَّاهَا بين دَفْتِيهِ؛ فأكثرُ الصُّور التقطها المؤلِّفُ بنفسه أثناء جولاته بِمِصر وسوريَّة والأردنَّ والعراق وتركيا.

ولستُ أريدُ بهذه الكلمة أن أُطيلَ الوقوفَ أمام عناصرِ هذا السِّفر الرِّصين، وحَسْبِي أن أهَيِّئَ للقارئِ الكريمِ مُدخلَ صدقٍ إلى شوابك القضايا والمسائل؛ حتَّى يُؤسِّس - على مُكثِّ - لنفسه معرفةً وثيقةً بهذا البطل المُسلم.

كنتُ أعتقدُ وأنا أترجمُ كتابَ ستانلي لين-بول عن صلاح الدِّين أَنَّهُ كما يقول المثلُ العربيُّ: "كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا"<sup>٦</sup>، يبيدُ أَنِّي لَمَّا ترجمتُ هذا الكتابَ قلتُ: قد تركَ الفَرَا<sup>٧</sup> بعضَ الصَّيْدِ لهذا الكتابِ، فبرُغمِ صِغَرِ حجمه إلا أَنَّهُ مُكَمَّلٌ مُهمٌّ لكتابِ لين-بول؛ إذ سدَّ النَّقصَ الذي شابه بسببِ من صدوره منذ ما يربو على قرنٍ من عُمر الزَّمان، فلِعَمري كأنَّ نيكول - وهو مَنْ قدَّم لكتابِ لين-بول في العام 2002م بمُناسبة مرورِ مئة عامٍ على صدوره<sup>٨</sup> - قد تتبَّع النَّقصَ في كتابِ لين-بول وعالجَه في كتابه هذا، والأمثلةُ كثيرةٌ تُعجزُ الحِصْرَ، منها:

٦ لفضل بيانٍ، راجع وبلا بُدُّ: "مَجَمَعُ الأَمْثَالِ" لأبي الفُضَّل المَيْدَانِي، حَقَّقَه محمدُ مُحْيِي الدِّين عبد الحميد، مطبعة السُّنَّة المُحمَّديَّة، 1955م، 2: 136؛ "فِلَادَةُ التَّنْحَرِ فِي وَفِيَاتِ أَعْيَانِ الدَّهْرِ" للطَّيِّبِ بِأَمْرَمَةِ الحَضْرَمِيِّ، عني به بوجمعة مكري، خالد زواري، جُدَّة - دار المنهاج، ط1، 2008م، 2:

٧ الحِمَارُ الوَحْشِيُّ. يُنظَرُ: "مُخْتَارُ الصَّحَاحِ"، (فراً).

٨ وقد أمدَّنِي بهذا التَّقْدِيمِ الباذِخ، وألحَقْتُهُ بِكِتَابِ لين-بول مُعْرَبًا؛ فأنا له شاكرٌ.

- تجنّب لين-بول القول بأنّ الصّليبيين كانوا غزاةً، بينما صرّح نيكول في أكثر من موضع عن كونهم كانوا غزاةً مُحْتَلِّين.
- انتقد تأكيد لين-بول الواضح على أصول صلاح الدّين الكرديّة، ويرى - وهو عيّن الحقّ - أنّ صلاح الدّين نشئ وعلم في بلاط إسلامي ذي آثارٍ من ثقافة عربيّة أصيلة، تسيطر عليه نخبة عسكريّة تركيّة؛ فالأصول الكرديّة للأشيرة الأيوبيّة خارجة برمتها عن الموضوع، اللّهمّ إلا لكونها مصدر دعم سياسي وعسكريّ لما أمسى صلاح الدّين لاجئاً رئيساً في سياسات القوّة في أيامه. ويؤكد أنّه في عصر لين-بول أفرط بعض المؤرّخين في تأكيد أصول صلاح الدّين الكرديّة؛ وذلك لأنّهم كانوا يُكثّون في صدورهم إنكارَ دورِ عرب منطقة الهلال الخصيب البارز في صنّع حوادث تاريخهم إبّان القرن الثاني عشر للميلاد.
- يبيّن أنّ فهم لين-بول للنواحي البحريّة الخاصّة بنضال المسلمين ضد الصّليبيين في البحرين المتوسط والأحمر قاصِر؛ ومن ثمّ سيجد القارئ إشارات كثيرة عن حروب صلاح الدّين البحريّة في تضاعيف هذا الكتاب.

عسيّ بالذّكر أنّ نيكول لم يتأثر بموجة زهاب الإسلام (Islamophobia) التي تُشوّه وجه الكتابات الحاليّة كثيراً، فهو براءٌ - وإلى حدّ كبير - من ديبب العنصريّة التي يمكن الوقوف عليها في كتابات أكثر الباحثين الغربيين، وآية ذلك شهادته في حقّ صلاح الدّين: [من الكامل]

وَمَلِيحَةٌ شَهَدَتْ لَهَا ضَرَاتُهَا وَالْحُسْنُ لَيْسَ لِحَقِّهِ مِنْ نَاكِرٍ

لعلّ تصدير المؤلّف لهذه التّرجمة العربيّة يُضفي على كتابه حُلَّةً قشبيّةً، لا سيّما وأنّ الكتاب قد مرّ على صدوره ما ينيف على عقْد من الزّمن. وتشرفّت أيّما تشرفٍ بتقديم المحقّق السّوريّ العلامّة النّابيه إبراهيم عمّر الزّبيق (1953م-) دِهقان التّاريخ الأيوبيّ، وأنجب تلامذة العلامتين: المُحدّث الثّبت شُعيب الأرنؤوط (ت. 2016م)، واللّغويّ الخريّت أحمد راتب النّفّاح (ت. 1992م)، رحمهما الله تعالى. إذ له في نفسِي - وقد قرّني منه نحيباً - عربون وفاءٍ وودٍّ وحُبٍّ وودادٍ، مُلبّد بغيوم الصّدق

والعرفان. وهو قد شغف بتحقيق التراث منذ أوائل العام 1980م، فصدر من تحقيقه: الجزء الخامس عشر من "سير أعلام النبلاء" للشَّمسِ الذَّهَبِيِّ في العام 1983م، والجزء التاسع والعشرون من "مختصر تاريخ دمشق" لابن منظور في العام 1988م، والجزء الثالث والرابع من "طبقات علماء الحديث" لابن عبد الهادي في العام 1989م، والجزء الثاني عشر من "البداية والنهاية" لابن كثير في العام 2007م. وشارك في تحقيق "مُسند الإمام أحمد"، وتخريج أحاديثه مع شيخه شُعَيْب الأرنؤوط، وصديقه المُحقِّق محمد نعيم العرفُوسِيّ. لكن أبرز أعماله التي ملكت عليه لُبُّه كُتُب أبي شامة المقدسيّ (ت. 665هـ = 1268م) التاريخيّة؛ فأعاد تحقيق كتابه "الرّوضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصّلاحيّة"، وصدر في خمسة أجزاء في العام 1997م، و"المُدبّل على الرّوضتين" في جزئين في العام 2010م. إذ يرى الزبيق أنّ كتاب "الرّوضتين" يكتسب الآن أهميّة خاصّة في ظلّ صراعنا مع الصهيونيّة؛ نظرًا للتشابه الواضح بين الصّليبيين والصهيونيين، ويبيّن أنّ الصهيونيين يدركون هذا التشابه بين احتلالهم لأرضنا واحتلال الصّليبيين لها من قبل، فهناك فِرَق عملٍ كاملة في الجامعة العبريّة، تقوم بدراسة موقف أجدادنا، وتُحلّله من جذوره؛ كي يتفادوا نهايةً كنهاية حطّين وما تلاها. وهذا ما شجّعني على أن أسعى سعيًا حثيثًا لأنال شرفَ تقديم هذا العالم الجليل البَحّاث؛ فهو الحفِيّ بصلاح الدّين كُّلّ الحفاية، وما تقديمه منك ببعيد! فله الحُبِّ واصبًا والشُّكْرِ مَحْضًا: [من المتقارب]

لو كان للشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ      إذا ما تَأَمَّلَهُ النَّاظِرُ  
لَبَيَّنْتُ شُكْرِي حَتَّى تَرَاهُ      فَتَعَلَّمَ أَنَّي امْرُؤٌ شَاكِرٌ ١٠

خرج بنا الكلام عن مقصده، فلنعد إلى ما كُنّا بصددّه، فأقول: كان المُؤلِّفُ معي في كُّلِّ صغيرٍ وكبيرٍ وأنا أترجمُ كتابه؛ إذ كنتُ أمطرُه بسيلٍ من الأسئلة آناء اللَّيلِ وأطراف النَّهار، فكان يُجيبُ عنها بغير أناةٍ. وممّا يجدر بالدِّكرِ ها هنا أنّه لم يُوثِّق رواياته إلّا في القليل النَّادر، فكنتُ أرجع إليه سائله عن مَظانِّه - لا سيّما الأجنبيّة - فكان يمدّني بها؛ ممّا أثرى التَّرجمة ففاقت - وبلا أيّة مُبالغةٍ - الأصلَ في كثيرٍ.

في الحقِّ، كُنْتُ أَقْفَ عَاجِزًا أَمَامَ بَعْضِ النُّصُوصِ، فَارْجِعْ إِلَيْهِ؛ فَيَفْتَحْ لِي مَغَالِيقَهُ. وَلَمَّا كُنْتُ أَنْبَهُهُ إِلَى إِحْدَى "الْفَوَاقِعِ الْمَطْبَعِيَّةِ" أَوْ هَنَاتٍ فِي مَطَاوِي عَمَلِهِ، لَمْ أَجِدْهُ مُكَابِرًا، فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ - وَكَمْ لَذَلِكَ مِنْ أَخْوَاتٍ! - لَمَّا وَجَدْتُ (Qawn al-Rish) رَجَعْتُ إِلَيْهِ مُسْتَفْسِرًا، فَقَالَ لِي: رُبَّمَا عَثَرْتُ مَطْبَعِيَّةً. فَبَانَ لِي - بَعْدَ الْبَحْثِ الْمُسْتَأْنِي - أَنَّهَا بَلَدَةٌ (كُومِ الرَّيْشِ) قُرْبَ الْقَاهِرَةِ، وَلَمَّا أَخْبَرْتَهُ سَلَّمْتُ شَاكِرًا.

كَانَ الْمُؤَلِّفُ أَحْيَانًا يَطْلُبُ مِنِّي تَحْدِيثَ بَعْضِ الْفُقَرِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ - مِثْلًا - فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِشَاعَةِ زَوْاجِ صِلَاحِ الدِّينِ مِنْ ابْنَةِ شَاوَرِ السَّعْدِيِّ، فَطَلَبْتُ مِنِّي تَغْيِيرَهَا لِيَكُونَ زَوْاجًا مُتَبَادِلًا؛ أَيْ يَتَزَوَّجُ صِلَاحُ الدِّينِ مِنْ أُخْتِ الْكَامِلِ بْنِ شَاوَرٍ وَيَتَزَوَّجُ الْكَامِلُ مِنْ أُخْتِ صِلَاحِ الدِّينِ. وَمَعَ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ بَارِعٌ وَنِقَابٌ<sup>١١</sup> فِي الْجَوَانِبِ الْعَسْكَرِيَّةِ؛ إِذْ الْفَنُّ فَتْنُهُ وَالْمَيْدَانُ مَيْدَانُهُ، كَانَ يَخْلِطُ بَيْنَ بَعْضِ الْحَوَادِثِ، وَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي خَلْطِهِ بَيْنَ مُحَاوَلَتِي قَتْلِ صِلَاحِ الدِّينِ عَلَى يَدِ الْحَشِيشِيَّةِ أَمَامَ حَلْبٍ وَعَزَازٍ؛ إِذْ جَعَلَهُمَا مُحَاوَلَةً وَاحِدَةً أَمَامَ حَلْبٍ! كَمَا أَنَّهُ خَلَطَ بَيْنَ بَعْضِ حَوَادِثِ مَعْرَكَتِي صِلَاحِ الدِّينِ ضِدَّ الزَّنَكِيِّينَ فِي قُرُونِ حِمَاةٍ وَفِي تَلِّ السُّلْطَانِ، فَجَعَلَهُمَا مَعْرَكَةً وَاحِدَةً!<sup>١٢</sup>

أَمَّا عَنْ عَمَلِي فِي الْكِتَابِ، فَلَمْ أَتَلَعِبْ بِالصِّيَاغَةِ لِلتَّعْفِيَةِ عَلَى الْأَصْلِ، بَلْ عَصَدْتُ الْأَصْلَ بِتَخْرِيجِ النُّصُوصِ مِنْ مَظَانِّهَا الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَجْنِبِيَّةِ عَلَى سِوَاءٍ، كَمَا خَرَّجْتُ تِلْكَ الَّتِي لَمْ يُبَشِّرِ الْمُؤَلِّفُ إِلَيْهَا، وَهِيَ كَثِيرَةٌ نَاصِبَةٌ، وَفَرَّقْتُ بَيْنَ هَوَامِشِ الْمُؤَلِّفِ وَهَوَامِشِي بِأَنْ جَعَلْتُ هَوَامِشِي بَيْنَ مَعْكُوفَتَيْنِ، وَمَشْفُوعَةً بِكَلِمَةِ (الْمُتَرْجِمِ). وَضَعْتُ الْأَسْمَ الْأَجْنِبِيَّ رَفْقَةً تَعْرِيهِهِ عِنْدَ أَوَّلِ ذِكْرٍ لَهُ، وَتَرَجَمْتُ فِي الْهَامِشِ لِلشَّخْصِيَّاتِ الْوَارِدَةِ بِالْمَتْنِ، وَعَرَّفْتُ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ؛ حَتَّى يَسْهُلَ عَلَى الْقَارِئِ فَهْمُ النَّصِّ. وَكَانَ الْمُؤَلِّفُ قَدْ أوردَ جَمِيعَ التَّوَارِيخِ مِيلَادِيَّةً، فَوَضَعْتُ قَبْلَهَا مُقَابِلَهَا الْهَجْرِيَّ، مُسْتَنِدًّا فِي ذَلِكَ إِلَى الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، مِثْلَ "التَّوَادِرِ السُّلْطَانِيَّةِ" لِبَهَاءِ الدِّينِ ابْنِ شَدَّادٍ، وَ"الرَّوَضَتَيْنِ" لِأَبِي شَامَةَ.

١١ النَّقَابُ: الرَّجُلُ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ، الْمُبْحَثُ عَنْهَا، وَالْفَطِنُ الشَّدِيدُ الدُّخُولِ فِيهَا. يُنْظَرُ: "لِسَانُ الْعَرَبِ" (نَقَب).

١٢ أَرْجُو أَلَّا يُسَافِرَ وَهُمْ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنْتِي أَنْتَقِصُ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمِ هَذَا الْعَالِمِ الرَّاسِخِ، حَاشَى لِلَّهِ، وَهُوَ فِي قَلْبِي كَبِيرُ تَقْدِيرٍ، وَلَكِنْ هَلْ مِنْ شَرْطِ الْعَالِمِ أَلَّا يُخْطِئَ؟

بعد هذا - ويكفي هذا - لعلِّي أتركُ سيِّدي الكريم مع الكتاب؛ حتَّى يعيشَ مع النَّصِّ، فهو مرآةٌ كُلُّ تيك المعاني؛ بل هو هي في عَيْنِ المَقَامِ، وفي نَفْسِ الأَمْرِ ١٣. اللّهُمَّ غيرِ وجهك الكريم ما ابتغيْتُ، وسوى النَّفْعِ لِحَلْقِكَ ما نويْتُ، وعليك رجائي أقيتُ. وأنا أستقلُّ سيِّدي القارئَ الكريمَ فيه السَّقَطَاتِ، وأستوهبهُ التَّجَاوُزَ عن الفِرَطَاتِ.

علاء مصري النهر

غفر الله له

ثغر الإسكندريّة المحروس، في يوم الاثنين

24 رَمَضان 1443هـ/ 25 إبريل 2022م

١٣ نَفْسُ الأَمْرِ: اصطلاحُ فلسفيٍّ منطقيٍّ أحيانًا، وعرفانيٍّ في أحيانٍ أُخَرَ، أشكل على المناطقة ذات المِرَار؛ سألِبًا إِبَاهِمَ غيرِ قليلٍ من أوقاتهم وصحائفهم. وهو بتلخيصٍ مُخِلٍّ: الأَمْرُ من حيث ذاته، وباعتبار ذاته فقط.

## قائمة الأشكال

- 1 قبر صلاح الدين بدمشق، قُرب جامع دمشق، صورة التقطها المؤلف 2
- 2 وصول صلاح الدين إلى السلطنة (في حدود العام 567هـ=1171م) 3
- 3 جزيرة ابن عمر، صورة التقطها المؤلف 7
- 4 البطل جاسون في نسخة من كتاب الكواكب للصوفي، مكتبة قصر طوب قابي، مخطوطات أحمد الثالث، رقم 3493، ورقة 30، إسطنبول 9
- 5 الكُرُز برأس حيوانٍ بمؤسسة الفروسية للفن، لندن، والدبوس ذو الحواف ضمن مجموعة خاصة بإسرائيل، واللّت المُبطّط بمتحف الفن الإسلامي، القاهرة 11
- 6 جَزّة كاشانيّة من إيران من القرن الثاني عشر، مجموعة خاصّة 12
- 7 إحدى قاعات الاستقبال الفخمة منذ عصر صلاح الدين، القائمة على ضِفّة دجلة في الموصل، صورة التقطها المؤلف 17
- 8 قلعة بعلبك، صورة التقطها المؤلف 20
- 9 طبق من الخزف المصري من القرن الثاني عشر، معرض فرير للفنون بواشنطن، صورة التقطها المؤلف 22
- 10 معركة البابين 23
- 11 فارسٌ معه صقرٌ يقف على معصمه، من القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر، مؤسسة الفروسية للفن بلندن 30
- 12 لوحة خشبية منحوتة من القرن الثاني عشر تُظهر قديسًا مُحاربًا مُسلحًا وفُق الطراز الشرق أوسطي، من دُنُقلة. (متحف السودان القومي، لوحة رقم 98/1، الخرطوم، صورة فويتشخ كميل) 33
- 13 دُنُقلة العاصمة النوبيّة القديمة، صورة التقطها المؤلف 36
- 14 ضريح رشيد الدين سنان خارج مصيف، صورة التقطها المؤلف 38
- 15 قلعة بدليس، صورة التقطها المؤلف 42
- 16 قلعة بيت الأحران بمخاضة يعقوب، صورة التقطها المؤلف 43
- 17 مدينة السوئيس، صورة التقطها المؤلف 45
- 18 قلعة صدر أو قلعة الجندي في صحراء سيناء، صورة التقطها المؤلف 48

- 19 (أ) فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْحَمَلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ الْثَالِثَةُ (الحدود تقريبًا في العام 588هـ = 1192م) 50
- 20 (ب) فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْحَمَلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ الْثَالِثَةُ (الحدود تقريبًا في العام 588هـ = 1192م) 54
- 21 النَّقْشُ الْمَوْجُودُ فَوْقَ الْبَوَابَةِ الرَّئِيسَةِ لِقَلْعَةِ صِلَاحِ الدِّينِ الْمَعْرُوفَةِ بِقَلْعَةِ صَدْرٍ، صَوْرَةُ التَّقْطِهَا الْمُوَلَّفُ 57
- 22 دِرْهَمٌ نَحَاسِيٌّ مَضْرُوبٌ بِمِثَافَرِيقَيْنِ فِي الْعَامِ 587هـ = 1190-1191م يُظْهِرُ صِلَاحَ الدِّينِ مُرْتَدِّئًا الشَّرْبُوشَ (مكتبة الجامعة، رقم 0547/2009، لايزيغ) 58
- 23 الْعَرَبَانِ يَرِيعُونَ قَطْعَانَهُمْ عَلَى الْعِشْبِ الرَّبِيعِيِّ فِي الصَّحْرَاءِ السُّورِيَّةِ جَنُوبِي نَهْرِ الْفُرَاتِ، صَوْرَةُ التَّقْطِهَا الْمُوَلَّفُ 59
- 24 جُنْدِيٌّ مُعَمَّمٌ يَحْمِلُ دِرْعًا مَسْتَدِيرَةً، بِالإِضَافَةِ إِلَى رُمْحَيْنِ يَقْبِضُ عَلَيْهِمَا جُنْدِيٌّ بِجَوَارِهِ، عُثْرٌ عَلَيْهِ فِي أَطْلَالِ الْفُسْطَاطِ فِي جَنُوبِي الْقَاهِرَةِ، يَرْجِعُ إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ أَوْ رُبَّمَا قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ. مَتَحَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ، رَقْمُ 13801، الْقَاهِرَةِ، صَوْرَةُ التَّقْطِهَا الْمُوَلَّفُ 61
- 25 جُنْدٌ يَظْهَرُونَ فِي هَذِهِ النُّسْخَةِ مِنْ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ يَسْتَعْدُونَ لِمُرَافَقَةِ قَافِلَةٍ ذَاهِبَةٍ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ. (معهد الدراسات الشرقية، رقم 23، ورقة 109، سانت بطرسبرغ) 62
- 26 نَبِوءَةٌ أُخِذَتْ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى يَدِ "أَنْصَارِ الْحَمَلِ مِنْ أَتْبَاعِ الْوَحْشِ" فِي الْإِنْجِيلِ الْجُورْجِيِّ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ. (الأنجيل الأربعة جروتشي، مخطوطة رقم 1667، ورقة III، المركز الوطني للمخطوطات، تبليسي) 63
- 27 خُوْذَةٌ كَثِيرَةُ الرِّخَارِفِ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْفُولَادِ تَرْجِعُ إِلَى الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ. (مؤسسة الفروسية للفن، لندن) 65
- 28 كُوْثَةٌ عَرِشٌ تَرْجِعُ إِلَى خَوَاتِيمِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ أَوْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، عُثْرٌ عَلَيْهَا فِي الْحَانِ فِي تَلَالِ سِنْجَارَ. (المتحف الوطني العراقي، بغداد) 67
- 29 رِسَالَةٌ بِاللَّاتِينِيَّةِ بَعَثَهَا صِلَاحُ الدِّينِ إِلَى الْإِمْبْرَاطُورِ الْأَلْمَانِيِّ فِرْدْرِيكِ الْأَوَّلِ بَرِبْرُوسَا فِي الْعَامِ 584هـ = 1188م. (مكتبة برلين الحكومية - مؤسسة الإرث الثقافي البروسي، مخطوطات العصور الوسطى، رقم 190، ورقة 77، برلين) 73
- 31 قَلْعَةُ طَرْطُوسَ، صَوْرَةُ التَّقْطِهَا الْمُوَلَّفُ 76

- 32 سلطانية مصرية مصنوعة من الخزف المتألي، ترجع إلى القرن الثاني عشر. (متحف فكتوريا وألبرت، لندن) 79
- 33 تمثال برونزي صغير لأحد الفرسان عُثِرَ عليه في إيران، يعود إلى القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفن الإسلامي، القاهرة) 82
- 34 ذخيرة من الحجارة تُرمى من منجنيق، عُثِرَ عليها في قلعة صلاح الدين خارج عجلون. متحف قلعة عجلون، صورة التقطها المؤلف 84
- 35 زُمانات خزفية صغيرة. متحف قلعة عجلون، صورة التقطها المؤلف 85
- 36 سلطانية من الخزف المتألي مصنوعة في إيران أو مصر في القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. متحف الفن الإسلامي، رقم 13279، القاهرة، صورة التقطها المؤلف 89
- 37 معركة تبينين 92
- 38 تمثال خزفي كبير لفارسٍ يقتل حيّةً، عُثِرَ عليه في أنقاض مدينة الرقة، يرجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر أو فواتح القرن الثالث عشر. المتحف الوطني السوري، دمشق، صورة التقطها المؤلف 97
- 39 صورة عسكري في ترجمة عربية لعمل يوناني قديم عن الخصائص الطبيّة للنباتات تمّت في العراق في العام 621هـ = 1224م. معرض فريز، رقم 53.91، واشنطن، صورة التقطها المؤلف 100
- 40 زنبورك موضح في كتابٍ عن الآلات الحربية، صنّفه الطرّسوسيّ لصلاح الدين. (المكتبة البودليانية، مخطوطة صيد رقم 261، ورقة 117، أكسفورد) 101
- 41 أطلال مدينة الفسطاط 104
- 42 بلاطة كاشانية عليها "إيرانيون يُغادرون قلعة فرود"، وهي إحدى الوقائع في قصيدة الشاهنامه الفارسية الملحمية، ترجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر. (متحف الفنون الجميلة، بوسطن، صورة التقطها المؤلف) 105
- 43 سلطانية مطلية بالميّنا، عُثِرَ عليها في إيران، وترجع إلى القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفنون الجميلة، بوسطن، صورة التقطها المؤلف) 107
- 44 إحدى حوّدتين من العصور الوسطى مصنوعة من جلد التمساح، عُثِرَ عليهما في النوبة قُرب الحدود بين مصر والسودان. (متحف برلين الوطني، صورة ج. لورنتياس) 111
- 45 ذخيرة موادّ من درج منسي في قلعة دمشق. (المتحف الوطني السوري، قسم الترميم،

- دمشق، صورة التقطها المؤلف ( 115
- 46 فارس مُترجِّل. (مجموعة كبير، لندن) 118
- 47 جزء من سُلطانية مكسورة مصنوعة من الخزف في مِصر، ترجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفن الإسلامي، رقم 5335,65، القاهرة، صورة التقطها المؤلف) 122
- 48 أجزاء من دُرُج مصنوعة من لولب من القصب مربوط بقطنٍ، عُثِرَ عليها ضمن ذخيرة الموادِّ العسكريَّة من درج منسي في قلعة دِمَشق. (المتحف الوطني السوري، قسم الترميم، دمشق، صورة التقطها المؤلف) 124
- 49 خان العُرُوس شمالي دِمَشق. (صورة التقطها المؤلف) 128
- 50 سُلطانيَّة مطلية بالمنيا، عُثِرَ عليها في غرب إيران، ترجع إلى القرن الثاني عشر أو فواتح القرن الثالث عشر. (متحف رضا عبَّاسي، طهران، صورة التقطها المؤلف) 130
- 51 مقبرتان بقبَّتين بسنجار، ترجع جزئيًّا إلى بواكير القرن الثالث عشر. (صورة وزارة الآثار العراقية) 131
- 52 سَيْف صلاح الدِّين "عُثِرَ عليه في ضريحه بدمشق، نُقِشَ على نَصَلِه أَنه صُنِعَ لأبيه نَجْم الدِّين أَيُّوب. (المتحف العسكري، رقم 2355، إسطنبول) 132
- 53 ضريح صلاح الدِّين بدمشق. (صورة التقطها المؤلف) 135
- 54 ضريحُ صلاح الدِّين تحت القُبَّة الصَّغيرة المُحدَّدة المطلية باللون الأحمر، يقع مُباشرةً أمام المئذنة الشمالية للجامع الأمويِّ العظيم. (صورة التقطها المؤلف) 136
- 55 نُسخة عِراقِيَّة أو شاميَّة من مقامات الحريريِّ، تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر. (معهد الدراسات الشرقية، رقم 23، ورقة 174، سانت بطرسبرغ) 137
- 56 مِنْبَر المسجد الأقصى الجديد من الخشب والعاج. (صورة التقطها المؤلف) 142
- 57 صورة لفارس. (المتحف البريطاني، رقم 1885، 13-II، لندن) 143
- 58 نحتٌ تمثيليٌّ يُبيِّن انتصارَ صلاح الدِّين بمعركة حِطِّين، يقف الآن خارج قلعة دِمَشق، ويظهر على العُملة السُّوريَّة من فئة مئتي ليرة. 144

عاش يُوسف بن نَجْم الدِّين أَيُّوب - أو صلاح الدِّين (Saladin) وَفَق الصِّيغَة الْمُخْتَصَرَة لِاسْمِهِ الدَّاعِ الصَّيْت - فِي عَصْرِ كَان الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيَّ يَمُرُّ فِيهِ بِتَغْيِيرَاتٍ جَدْرِيَّةٍ. كَانَتِ النُّخَبُ التُّرْكِيَّةُ الْحَاكِمَةُ قَدْ سَيَّطَرَتْ عَلَى مَعْظَمِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْذُ خَوَاتِيمِ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ. إِذْ سُجِبَ، مِنْ النَّاحِيَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، الْبِسَاطُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ، وَنُحُوا جَانِبًا، بَيَّدَ أَنَّهُمْ ظَلُّوا يُشَكِّلُونَ النُّخَبَ الدِّينِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ وَالتَّجَارِيَّةَ. وَفِي هَذِي الْعُضُونِ، لَمْ يَكُنْ لِلْأَكْرَادِ سِوَى أَهْمِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ وَعَلَى نِطَاقٍ مَحَلِّيٍّ، وَتَلَكُمُ الْأَهْمِيَّةُ تَجْعَلُ مِنْ صَعُودِ رَجُلٍ مِنْ أَصُولِ كُرْدِيَّةٍ - مِثْلِ صِلَاحِ الدِّينِ - دُونَهُ خَرَطَ الْقِتَادَ. [4]

انْتَقَلَ أَيْضًا إِبَّانَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَرْكَزُ ثِقَلِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ثِقَافِيًّا صَوْبَ الْغَرْبِ، أَيَّ مِنْ فَارِسٍ وَوَسَطِ الْعِرَاقِ إِلَى شِمَالِ الْعِرَاقِ وَبِلَادِ الشَّامِ وَالذِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ. فَبَعْدَادَ - عَاصِمَةَ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ السُّنِّيَّةِ - احْتَفِظَتْ بِأَهْمِيَّتِهَا، لَكِنَّهَا وَاجَهَتْ مُنَافَسَةً مِنْ قِبَلِ الْمَوْصِلِ وَحَلَبِ وَدِمَشْقِ، ثُمَّ الْقَاهِرَةِ وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَطَاحَ صِلَاحُ الدِّينِ بِالْخِلَافَةِ الْفَاطِمِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي دِيَارِ مِصْرٍ. لَقَدْ كَانَتِ فَارِسَ وَالْعِرَاقَ مَرَاكِزَ الْقُوَّةِ التُّرْكِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةَ فِي السَّلَاحَةِ الْعِظَامِ، لَكِنْ حَتَّى فِي هَاتِيكَ الْبِلَادِ [4] كَانَتِ السَّلْطَنَةُ السَّلْجُوقِيَّةُ قَدْ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالَهَا عَقِيبَ وِلَادَةِ صِلَاحِ الدِّينِ. أَمَّا فِي بَعْدَادَ، فَكَانَتِ أَيْضًا الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ - الَّتِي ظَلَّتْ فِتْرَةً مَدِيدَةً يَبْدَأُ تَحْرِكُهُ الْأَسْرَاتُ الْحَاكِمَةُ الْأُخْرَى أَنْتَى شَاءَتْ - قَدْ بَدَأَ نَجْمُهَا فِي الظُّهُورِ كَقُوَّةٍ كَبْرَى تَارَةً أُخْرَى. [6]



شكل 1 قبر صلاح الدين بدمشق،  
قرب جامع دمشق، صورة  
التقطها المؤلف

1. 559هـ = 1164م: يُرافق صلاح الدين شيركوه في جيش أرسله نور الدين صاحب بلاد الشام إلى الخلافة الفاطمية؛ تصدياً للتدخل الثاني<sup>٢</sup> من قبل أمليريك (Amalric)<sup>٣</sup> ملك بيت المقدس، ويهزم الفاطميين بمعركة كوم الرّيش في الثالث والعشرين من شعبان = الثامن عشر من يوليو، غير أنه يُحاصر في بلبيس بدءاً من شهر رمضان حتى ذي الحجة = أغسطس إلى نوفمبر، ثم ينسحب إلى الشام.

١ المتوفى سنة 564هـ = 1169م، والمدفون بالمدينة النبوية. له ترجمة وافية في: الروضتين 2: 68-69؛ وفيات الأعيان 2: 479-481. (المترجم)

٢ كان التدخل الأول لأمليريك في سؤال 558هـ = سبتمبر 1163م إبان وزارة ضيرغام؛ من أجل أخذ القطيعة المقررة على مصر منذ وزارة الصالح بن رزيك، وهي ثلاثة وثلاثون ألف دينار في كل سنة. (أعاط الحنفا 3: 259، 262). (المترجم)

٣ عموري الأول صاحب مملكة بيت المقدس في الفترة (558-569هـ = 1163-1174م)، وهو الابن الثاني للملك فولك الأنجوي، جلس على العرش بعد وفاة أخيه الملك بلدوين الثالث (537-558هـ = 1143-1163م). ينظر: تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان 2: 419؛ تاريخ الحروب الصليبية لمحمود سعيد عمران، ص 109. ويرد اسمه في بعض المصادر العربية: "مري"، كما في: مرآة الزمان 21: 133؛ الروضتين 2: 62، 90؛ مُفَرِّجُ الكروب 1: 156؛ الخِطَطُ المَقْرِيزِيَّة 2: 143؛ أعاط الحنفا 3: 282. (المترجم)

٤ هزم شيركوه في هذه المعركة شاورًا، بعدما أخلّ بالشروط التي قد أخذها على نفسه عند نور الدين بدمشق. (أعاط الحنفا 3: 274). وكوم الرّيش بلدٌ بين أرض البعل ومثية السيرج، كان النيل يمرُّ بغريبه، وكان من أجلّ منتزهات القاهرة. (الخِطَطُ المَقْرِيزِيَّة 3: 256-257، 429-430). وهي الآن منطقة الزاوية الحمراء الواقعة غرب محطة الدمرداش. (المترجم)

٥ مدينةٌ مصريةٌ على طريق الشام. (معجم البلدان 1: 479). ضِبَطَتْ وفاق ضبط ياقوت، والعامَّة تقول: "بلبيس" بفتح الباء الثانية. وتقع الآن ضمن حدود محافظة الشرقية. (المترجم)



شكل 2 وصول صلاح الدين إلى السُلطة (في حدود العام 567هـ=1171م)

2. 562هـ = 1167م: حملة صلاح الدين وشيركوه ضد التَّدخُّل الثالث لأملريك ملك بيت المقدس، وهزيمة التَّحالف الصَّلبيِّ-الفاطميِّ بمعركة البابين<sup>٦</sup> في الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة = الثامن عشر من مارس<sup>٧</sup>، ثمَّ يَقود صلاح الدين الدِّفاع عن مدينة الإسكندريَّة (من رَجَب إلى شوَّال = مايو إلى يونيو<sup>٨</sup>)، ثمَّ يعود أدراجَه إلى الشَّام.

٦ قرية جنوب المنيا، قُرْب الأشْمُونيِّن. (وفيات الأعيان 7: 148؛ اتَّعاظ الحنفا 3: 284). ويحلُّ محلَّها

الآن قرية بني خالد بمركز سمالوط بمحافظة المنيا. (المترجم)

٧ الصواب: "إبريل". (المترجم)

٨ الصواب: أغسطس؛ لأنَّ الحصار بقي ثلاثة أشهر. (المترجم)

3. 564هـ = 1169م: يُدعى صلاح الدين وشيركوه لجلب جيش إلى الديار المصرية من أجل مواجهة تدخّل تالٍ لأملريك ملك بيت المقدس، ويتولّى صلاح الدين منصب قائد قوّات نور الدين في ديار مصر في عقب وفاة شيركوه، ويُعيّن وزيراً للخليفة الفاطميّ (في جمادى الآخرة = مارس)، ثمّ يجمع صلاح الدين تمرّد الفِرَق السُودانيّة وهم جَمَهرة جيش الخلافة الفاطميّة (في ذي القعدة = أغسطس)، ويحبط حصارًا بيزنطيًّا-صليبيًّا على دمياط (في صفر - ربيع الآخر = أكتوبر - ديسمبر).
4. 566هـ = 1170م: يشنُّ صلاح الدين غارةً على الدّاروم<sup>١٠</sup> وغزّة، ويستردّ أَيْلّة<sup>١١</sup> من مملكة بيت المقدس (في ربيع الآخر = ديسمبر).
5. 567هـ = 1171م: يتولّى صلاح الدين منصب حاكم الديار المصرية بعقب موت آخر خليفة فاطميّ، وحكمها باسم نور الدين صاحب بلاد الشام (في المحرم = سبتمبر).
6. 567هـ = 1171م: تعترف الموصلُ بسيادة نور الدين.
7. 567هـ = 1171م: إلغاء هجوم مُشترِك على الكرك من قِبَل صلاح الدين ونور الدين (في المحرم - ربيع الأوّل = سبتمبر - نوفمبر).
8. 568هـ = 1172م: يُهاجم النُوبيون أسوان، وانتقام تُوران شاه<sup>١٢</sup> - شقيق صلاح الدين -

- 9 في الأصل: تدخل خامس. فنَهتُ المؤلّف، فطلب مني تعديلها كما بالمتن. (المترجم)
- ١٠ يعني اسمها "الجنوب"، وكانت تقع بعد غزّة للقاصِد إلى مصر، على ساحل البحر المتوسط، وقد خرّبها صلاح الدين لَمّا ملك السّاحل في العام 584هـ = 1188م. (معجم البلدان 2: 424).
- وهي الآن مدينة دير البلح الواقعة بقطاع غزّة جنوبي فلسطين. (المترجم)
- ١١ مدينة على ساحل بحر القلزم (= البحر الأحمر)، ممّا يلي الشام، وآخر الحجاز وأوّل الشام، وهي مدينة اليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا؛ فمسخوا قردةً وخنازير. (معجم البلدان 1: 292-293؛ الخطط المقرّبية 1: 501-505). حلّت محلّها الآن مدينة العقبة. (المترجم)
- ١٢ الصواب أنّ نور الدين تسلّم الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى سنة 566هـ = 1170م. يُنظر: التاريخ الباهر، ص153؛ الروضتين 2: 168. (المترجم)
- ١٣ الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين (ت. 576هـ = 1180م)، كان صلاح الدين يُكثرُ الثناء عليه ويُرجّحه على نفسه. له ترجمة في: مرآة الزمان 21: 273؛ الروضتين 3: 63-65؛ وفيات الأعيان 1: 306-309؛ مفرج الكرب 2: 96؛ سير أعلام النبلاء 21: 53-45؛ تاريخ الإسلام 12: 580-581؛ شفاء القلوب، ص50-55. ومعنى "توران" المَشْرِقُ و"شاه" ملك بالعجمي؛ فمعنى الاسم "ملك المشرق أو الشرق"، وإنّما قيلَ للمشرق توران؛ لأنّه بلادُ التُّرك، والعجم يُسمُّون التُّركَ تُركان، ثمّ حرّفوه فقالوا: توران. يُنظر: وفيات الأعيان 1: 309. (المترجم)

9. ووضِعَ حاميةً في قَصْرِ إِبْرِيم (Qasr Ibrim)<sup>١٤</sup> (من الصَّيْفِ إلى ربيع الآخر = ديسمبر).  
568هـ = 1173م: يقود صلاح الدِّين جيشًا ضد قبائل البدو في إقليم ما وراء نهر الأُرْدُنَّ (Oultrejordain) لتأمين الطريق بين مِصْرَ والشَّامِ، ثُمَّ يَشُنُّ غارةً على الكَرْكِ (في الصَّيْفِ).
10. 568هـ = 1173م: يرسل صلاح الدِّين جيشًا بقيادة قَرَأُوش<sup>١٥</sup> في أوَّلِ حملةٍ استكشافيةٍ إلى ليبيا.
11. 568-569هـ = 1173م: يهاجم أسطولٌ صِقلِيّ-نورمانديّ مدينة الإسكندرية (ذي الحِجَّةِ - المُحَرَّمِ = يوليو - أغسطس).
12. 569هـ<sup>١٦</sup> = 1173م: قمع العادل<sup>١٧</sup> - أخو صلاح الدِّين - انتفاضةً مُؤيَّدةً للفاطميّين في

١٤ كانت تقع بالثوبة السُّفلى على الضَّفَّةِ الشَّرقيَّةِ من النَّيلِ. (الخِطَطُ المُتَّفِرِّيةُ 1: 518؛ 3: 109). ولم يَتَبَقْ مِنْهَا إِلَّا قَلْعَةٌ، تقع على بُعْدِ 240 كم من أسوان، و55 كم إلى الشمال من أبي سمبل، و1172 كم من القاهرة. (القاموس الجغرافي 4: 230). وهي الآن قريةٌ على ضِفَّةِ النَّيلِ الغربيَّةِ، تابعة لمركز نصر الثوبة بمحافظة أسوان. (المترجم)

١٥ شَرَفَ الدِّينِ قَرَأُوشُ غلامٌ تَقِيّ الدِّينِ عُمَرَ، وهو غير بهاء الدِّينِ قَرَأُوشِ الأَسديّ، المُتوفى سنة 597هـ = 1201م. و"قَرَأُوشُ" كلمةٌ تُركيَّةٌ معناها "الطائر الأسود". (الروضتين 2: 267). وذكر ابن خلِّكان أنَّ معناه "العقاب". (وفيات الأعيان 4: 92). وراجع: "حملة شرف الدِّينِ قَرَأُوشِ على بلاد المغرب في عصر صلاح الدِّينِ الأيوبيّ: الأسباب - الأحداث - النتائج" لوائل أحمد إبراهيم، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ديسمبر 2014م، العدد 28. (المترجم)

١٦ الصواب في أوَّلِ 570هـ. (الروضتين 2: 338). (المترجم)

١٧ السُّلطانُ الملكُ العادلُ أبو بَكْرٍ سَيْفِ الدِّينِ مُحَمَّدُ (ت. 615هـ = 1218م). له ترجمة في: مرآة الزمان 22: 230-233؛ التكملة لوفيات النقلة 2: 430-431؛ المُذَبَّلُ على الروضتين 1: 303-308؛ وفيات الأعيان 5: 74-78؛ مفرج الكروب 3: 270-275؛ سير أعلام النبلاء 22: 115-120؛ تاريخ الإسلام 13: 453-461؛ الوافي بالوفيات 2: 235-238. وكان العُلَماءُ لا يميلون إليه - لا سيَّما الحنابلة - لتفريطه بغير بيروت، وكان بعضهم لا يُجيز تلقيبه بالعادل وهو الظالم، ويُجاهر بنقده، ولا يباهه. (مرآة الزمان 22: 177، 249، 341-342؛ المُذَبَّلُ على الروضتين 1: 216-217، 337). وهو صاحبُ مقولة "المُلْكُ لِمَنْ عَلَبَ" الشهيرة. (السلوك 1/1: 183). وهو مبدأ من مبادئ الحُكْمِ سيرته المماليك من بعده، ولتخصِّصِ الدَّهْبِيّ سياسةَ العادلِ هذه مع أولاد أخيه صلاح الدِّينِ أوجزَ تلخيصاً، بقوله: "لم يزل يُراوِغهم ويُلقِي بينهم؛ حتَّى دحاهم وتمكَّن واستولى على ممالك أخيه". (سير أعلام النبلاء 22: 117). (المترجم)

- الصَّعِيد بقيادة كَنْزِ الدَّوْلَةِ<sup>١٨</sup> والي أُسْوَانَ (المُحَرَّم - صَفَر = أغسطس - سبتمبر).
13. 569هـ = 1174م: وفاة نور الدِّين (في 11 شَوَّال = 15 مايو)، فيستولي صلاح الدِّين على دِمَشق وَحِمَص وَحَمَاة (آخِر ربيع الأوَّل - أوَّل جُمادى الآخِرَة 570هـ = أكتوبر - ديسمبر).
14. 569-570هـ = 1174م: يرسل صلاح الدِّين تُورَانَ شاه لغزو اليَمَن، ومعه جيشٌ مدعومٌ بِأَسطُولٍ (شَوَّال - صَفَر = فبراير - يونيو). [4]

في الحقِّ، لقد حلَّتْ سُلْطَةُ الأَتَابِكَةِ ("Atabegs"<sup>١٩</sup>) وهم أَمْرَاءُ يَنْزِلُونَ مِنْزِلَةَ الآبَاءِ مَحَلَّ سُلْطَةِ السَّلَاجِقَةِ العِظَامِ فِي الشَّمَالِ وَالغَرْبِ، أَيْ فِي مَنطِقَةِ إِقْلِيمِ الجَزِيرَةِ الفُرَاتِيَّةِ (Mesopotamia) بَيْنَ نَهْرِي دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ، وَفِي مُعْظَمِ سُورِيَّةِ وَلُبْنَانَ وَالأَرْدُنَّ وَفِلَسْطِينَ، وَأَجْزَاءَ مِنْ جَنُوبِ تَرْكِيَا. حَقِيقَةُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الأَتَابِكِيَّةَ الَّتِي أُسَّسَهَا عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي انشَطَرَتْ هِيَ ذَاتَهَا بَيْنَ أبنائه<sup>٢٠</sup>، فَوَرِثَ نُوْرُ الدِّينِ دَوْرَ أَبِيهِ كَحَامِي حِمَى الإِسْلَامِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ العُزَاةَ. وَكَانَ هُوَ أَيْضًا وَلِيًّا نِعْمَةً صِلَاحِ الدِّينِ. [6]

١٨ أصل بني الكَنْزِ مِنْ رِبِيعَةَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مُضَرَ، كَانُوا يَنْزِلُونَ اليَمَامَةَ، وَقَدِمُوا بِمِصْرَ فِي خِلافةِ المُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ العَبَّاسِيِّ، فَزَلَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِأَعَالِي الصَّعِيدِ، وَأَسَّسُوا إِمَارَةً عَرَبِيَّةً كَانَتْ أُسْوَانُ مُقَرَّرًا لَهَا، وَاعْتَرَفَ الفَاظِمِيُّونَ بِهَذِهِ الإِمَارَةِ، وَفِي زَمَنِ الحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ كَانَ أَمِيرُهُمْ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ المَعْرُوفِ بِالأَهْوَجِ المُطَاعِ، وَهُوَ الَّذِي ظَفَرَ بِأَبِي رُكْوَةَ الأُمَوِيِّ الخَارِجِ عَلَى الحَاكِمِ، فَأَكْرَمَهُ الحَاكِمُ وَلَقَّبَهُ كَنْزَ الدَّوْلَةِ، فَصَارَ لِقَبِّ لِكُلِّ أَمِيرٍ فِيهِمْ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ هَذَا المَذْكُورَ بِالمَتَنِ. يَنْظُرُ: الطَّلَعِ السَّعِيدِ الجَامِعِ أَسْمَاءَ نُجَبَاءِ الصَّعِيدِ، ص 30؛ الروضتين 2: 337هـ؛ البيان والإغراب عَمَّا بَارِضٌ وَمِصْرٌ مِنَ الأَعْرَابِ، ص 50. (المترجم)

١٩ لِقَبِّ يَتَكَوَّنُ مِنْ لَفْظَيْنِ تُرْكِيَيْنِ، هُمَا: "الأَتَا" أَوْ "الأَطَا" أَيْ الأَبُ، وَ"بِك" أَيْ الأَمِيرُ؛ فَالكَلمَةُ تَعْنِي "الأَمِيرُ الوَالِدُ" أَوْ "أَبَا الأَمْرَاءِ" الَّذِي يُرَبِّي أَوْلَادَ المُلُوكِ. ثُمَّ أُطْلِقَهُ سِلَاطِينَ السَّلَاجِقَةَ عَلَى كِبَارِ قَادَةِ جِيُوشِهِمُ الَّذِينَ يُؤَلِّمُهُمُ الوَصَايَةَ عَلَى أبنائِهِمُ القَاصِرِينَ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ الأَمِيرُ الأَتَابِكُ يَنْزَوِّجُ أُمَّ الطِّفْلِ المُوصَى بِهِ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَصَبَّحَ العَلاَقَةُ بَيْنَهُ وَهَذَا المَلِكِ القَاصِرِ عَلاَقَةً شَبَهَ أُبُويَّةَ. (وفيات الأعيان 1: 365 في ترجمة "نصير الدِّين جَفَر"؛ 2: 328 في ترجمة "عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي"؛ صبح الأعشى 4: 18). (المترجم)

٢٠ كَانَ لِعِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي ابْنَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَرْبَعَةُ أبنَاءٍ، هُمْ: سَيِّفُ الدِّينِ غَازِ الأَوَّلِ (ت. 544هـ = 1149م) وَانقَرَضَ عَقْبُهُ مِنَ الذِّكُورِ وَالإِنَاثِ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ أَمِيرُ أَمِيرَانَ (ت. 560هـ = 1164م)؛ قُطْبُ الدِّينِ مُودُودُ (ت. 565هـ = 1170م) وَهُوَ أَبُو مُلُوكِ المَوْصِلِ؛ نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ (ت. 569هـ = 1173م). يُنظَرُ:

التاريخ الباهر، ص 76. (المترجم)



شكل 3 جزيرة ابن عُمر، صورة التقطها المؤلف

كانت سُلطة الإمارات الصليبية التي أُسست في أعقاب الحملة الصليبية الأولى (ينظر Campaign 132: *The First Crusade*)<sup>٢١</sup> لم تُفلَّ بعدُ، بيدَ أن كونتية الرُّها (County of Edessa) – أولَ إمارة صليبية أُسست – قد أطاح بها عماد الدين زنكي.<sup>٢٢</sup> ثمَّ استعاد نور الدين معظم الإقليم الصليبيِّ الواقع في وادي نهر العاصي؛ ممَّا قلَّل من مساحة إرنسية أنطاكية (Principality of Antioch) التي كانت قويَّة في السابق؛ لتحصُر رُقعتهَا في شريطٍ ساحليٍّ ضيقٍ على البحر المتوسط. أمَّا كونتية طرابلس (County of Tripoli) الصليبية فبقيت بلا تغييرٍ حقيقيٍّ، في حين بقيت أقوى دولة صليبية – أعني مملكة بيت المقدس (Kingdom of Jerusalem) – تُشكِّل خطرًا شديدًا في ظلِّ طموحاتها بالتوسُّع شرقًا، وتُقاتل أيضًا في الوقت ذاته من أجل السيطرة

٢١ يشير المؤلف إلى كتابه:

*The First Crusade, Conquest of the Holy Land*, No. 132 in Osprey Publication's Campaign Series, Oxford, 2003. (المترجم)

٢٢ قلتُ: وعن فتح الرُّها، ينظر:

T.A. Archer & Charles L. Kingsford, *The Crusades The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem*, New York: G.P. Putnam's Son, London: T. Fisher Unwin, 1894, pp. 197–206. (المترجم)

على مِصْر؛ إذ بات أفول نَجْمِ الخِلافةِ الفاطميَّةِ وشيكا، يعرفه القاصي والداني. [6] لا جَرَمَ أَنَّ حُكَّامًا - على شاكِلَةِ صلاحِ الدِّينِ ونورِ الدِّينِ - كانوا يحسبون حسابَ الجماعاتِ المسيحيَّةِ الأخرى المُقيمة داخلِ حدودِ ممالكهم. فأجزاءٌ عديدةٌ من الشَّامِ ومِصْرٍ كانت ما تزال مأهولةً بأغليبياتٍ مسيحيَّةٍ من أهلِ البلد، بينما كانت البُلدانُ الأخرى بها أقليَّاتٌ مسيحيَّةٌ لا يُستهانُ بها، والأمرُ نفسه يصحُّ أيضًا مع أجزاءٍ عديدةٍ في إقليمِ الجَزيرةِ الفُرائِيةِ. يَبْدُ أَنَّ الصَّلِيبِيِّينَ عَدُّوا معظَمَ هؤلاءِ المسيحيين الأَصلاءِ ضَالًّا. فضلًا عن ذلك، كانت الحضارةُ الإسلاميَّةُ التي وُلِدَ في أكنافها صلاحُ الدِّينِ وشبَّ عن الطُّوقِ، بها كثيرٌ من الدُّويَّلاتِ والشُّعوبِ المسيحيَّةِ، تُعاملُ كجيران، وليس كغيرها من أولياءِ الصَّلِيبِيِّينَ الأوربيين. وقد كَوَّنتُ أَرْمِينِيَّةَ الأَقْلِيَّةِ (Cilician Armenia) ٢٣ تحالفًا قويًّا مع الإماراتِ الصَّلِيبِيَّةِ، في حين كانت جورجيا (Georgia) تنعمُ بعصرٍ ذهبيٍّ على المستوى السِّياسيِّ والعسكريِّ والثَّقافيِّ. والحقُّ أَنَّ الصُّراعَ بين جورجيا التَّوسُّعيةِ وحُكَّامِ أَخْلاطِ ٢٤ المُسلمين كان يعني أَنَّ حُكَّامَ المدينةِ الأخيرةِ قَلِمًا ألقوا بالآ - بل حتَّى أدنى بالٍ - بالصُّراعِ مع الصَّلِيبِيِّينَ. وكانت الإمبراطوريَّةُ البيزنطيَّةُ أيَّامَ ذِ قُوَّةِ بلا سَطوَّةِ، غيرَ أنَّها بجنابها المُهابِ استطاعتُ أن تستعيدَ كثيرًا من الأقاليمِ التي فقدتها عند مُنْقَلَبِ القرنِ الحادي عشر. [6]

لا رَيْبَ في أَنَّ أوَّلِيَّ اهتماماتِ صلاحِ الدِّينِ كانت هي تلَكمِ الشُّؤونِ الخاصَّةِ بأُمَّةِ الإسلامِ. وهُنالك ما عَتَمَ أن استشرَّتْ توتُّراتٌ بين قُطْبِي رَحَى الإسلامِ، أي السُّنَّةِ والشَّيعَةِ. لا يُشكِّلُ الشَّيعَةُ الآنَ أغلبيَّةً إلَّا في معظَمِ [6] إيران، علاوةً على جنوبِ العِراقِ وأجزاءٍ في وَسَطِهِ، مع ذلك توجد أيضًا جماعاتٌ شيعيَّةٌ بارزةٌ في سُوريَّةِ ولُبْنانِ واليَمَنِ. وبرُغمِ ذلك، كان حجمُ المجتمعاتِ الشَّيعيَّةِ والمسيحيَّةِ واليهوديَّةِ وغيرها قُبيِلَ منتصفِ القرنِ الثاني عشر يعني أَنَّ المُسلمينَ السُّنَّةَ - الذين يُفترَضُ أنَّهم هم التَّيارُ السَّائدُ والكثرةُ الكاثرةُ - يُشكِّلونَ حقًّا أقليَّةً في أجزاءٍ عديدةٍ من مِصْرٍ والشَّامِ.

٢٣ أو كيليكية، هي الإقليم الواقع في جنوب شرقي آسيا الصُغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وشمل مدائن كثيرة. كانت موطن الأَرْمَنِ، وأطلق عليها المؤرِّخون العرب "بلاد ابن لاون"؛ نسبةً إلى ملكها ليفون. (ابن العديم: بُغِيَّةُ الطَّلَبِ 1: 340؛ ابن أَيْتُك: كَنزُ الدُّرَرِ 8: 179؛ سعيد عبد الفتح عاشور: "سُلْطَنَةُ المماليكِ ومملكةُ أَرْمِينِيَّةِ الصُّغرى"، ص 225). (المترجم)

٢٤ أو خِلاط، بلدة عامرة، وقصبة أَرْمِينِيَّةِ الوَسْطَى. يُنظَرُ: معجم البلدان 2: 380-381. (المترجم)



شكل 4 البطل جاسون في نسخة من كتاب الكواكب للصوفي، مكتبة قصر طوب قابي، مخطوطات أحمد الثالث، رقم 3493، ورقة 30، إسطنبول

ومن ثمَّ ليس ضَرْبًا من المُبالغة القول إنَّ إحياءَ "النَّقْلِيَّةِ" السُّنِّيَّةِ أَيْدِه وناصِرِه قادة أمثال نور الدِّين وصلاح الدِّين، اللذين كان هدفهما على أقلِّ تقدير مُوجَّهًا ضدَّ الشَّيعة والصَّليبيين الغزاة على سويةٍ واحدةٍ [7].

من أجل فهم نُقْطِ القوَّةِ ونُقْطِ الضعف في حالة صلاح الدِّين، فسوف يكون لزامًا الإلماع إلى الأساس النَّظريِّ الذي استندت إليه سُلْطَتُه. كان الشرق الأوسط في العصور الوسطى حَلَبَةً يُقرَّر فيها التَّشريع الدِّينيُّ - بدل القوَّة العسكريَّة - في نهاية المطاف ما إذا كانت آيَّة أُسْرَةٍ حاكِمَةٍ ستبقى في الحُكْم أم لا. فهنا - ورُئيما حتَّى قبل أوربا القروسطيَّة - كان أيُّ حاكمٍ طُمُوحٍ في مسيس الحاجة إلى أن يحظى بتأييد شعبه ودعم النَّحْبِ الدِّينيَّةِ أو التَّشريعيَّةِ - والعسكريَّةِ أيضًا - إنَّ أراد أن يُحقِّق أيَّ شيءٍ ذي بالٍ. [7]

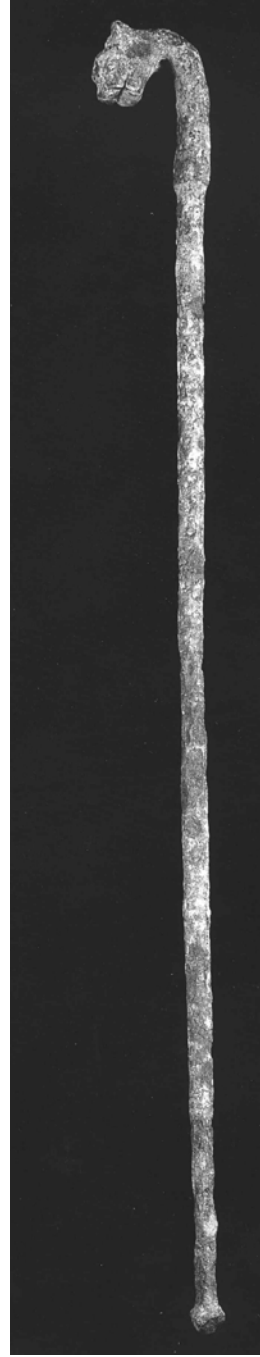
قام الفُقهَاء المسلمون السُّنَّة بإعادة تفسير دَوْر الخليفة السُّنِّي كإمامٍ أو كقائدٍ روحيٍّ للأُمَّة الإسلاميَّة في خواتيم القرن الحادي عشر حتَّى فواتح القرن الثالث عشر. وبات معظمُ السُّلْطَة الرِّمَنِيَّة في قَبْضَة السلاطين مع كَرِّ الأيَّام، بَيِّدًا أنَّ [7] مفهوم الحُكْم عُرِّف على أنَّه شراكةٌ بين أحد السلاطين والخليفة. لم يكُ هناك - مع هذا - فصلٌ قانونيٌّ بين "الدِّين والدَّولة" (Church and State) في المجتمعات التي تستند إلى الشَّريعة الإسلاميَّة في كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ. فما حدَّده فقيهٌ كالغزاليِّ<sup>٢٥</sup> كان نظامًا طبَّقه السُّلْطان في إدارة الحُكْم، شريطة اعتراف الخليفة العبَّاسيِّ رسميًا بسُلْطَتِه.<sup>٢٦</sup> من أَسْفِ أَنْ خُلَفَاء بَعْدَاد<sup>٢٧</sup> أَيَّامًا - وكانوا لا يزالون هم قادة الإسلام السُّنِّي الرُّوحيين - غدوا هم أيضًا قادة بارزين عسكريًّا. أمَّا فيما يخصُّ صلاح الدِّين، فبقيت هناك مُشكِلَةٌ قائمةٌ تتمثَّل في وجود فُرْصَة لتدخُّل العبَّاسيين، لا سيَّما لأنَّه كان يُنظَر إليه

٢٥ حُجَّة الإسلام أبو حامد، المتوفى سنة 5٥5هـ = 1111م. له ترجمة وافية في: "الدَّر الثَّمِين" لابن السَّاعي، ص 83؛ "تاريخ الإسلام" للدَّهبيِّ 11: 62-71؛ "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" لأبي الحَسَنِ النَّدَوِيِّ 1: 221-287. (المترجم)

٢٦ Lambton, A.K.S., *State and Government in Medieval Islam* (Oxford University Press, Oxford 1981), ch. 7, "al-Juwaynī and al-Ghazālī: The Sultanate", pp. 103-129.

قُلْتُ: ينظر كتاب الغزالي "فضائح الباطنية"، ص 132-145، 169-194. (المترجم)

٢٧ كالمُسترشد وما تلاه. (المترجم)



شكل 5 الكُرُزُ برأس حيوانٍ بمؤسسة الفروسية للفن، لندن، والدَّبُوسُ ذو الحواف ضمن مجموعة خاصة بإسرائيل، واللَّتُّ المُبَطَّطُ بمتحف الفن الإسلامي، القاهرة



شكل 6 جَرَّة كاشانيَّة من إيران من القرن الثاني عشر، مجموعة خاصَّة

دائمًا على أنه مُغتصِبٌ قد انقلب على أبنائه<sup>٢٨</sup> سيِّده نور الدِّين. فلا مندوحة لصلاح الدِّين إذا من جهاد الصِّلبيين كوسيلةٍ لشرعنة حُكمه كأقوى حاكمٍ في الشرق الأوسط.<sup>٢٩</sup> [8]

٢٨ لم يكُ لنور الدِّين من الذُّكور إلا ابنٌ واحدٌ هو الملك الصَّالح إسماعيل. ترجمته في: التاريخ الباهر، ص181-182؛ تاريخ الإسلام 12: 596-598. (المترجم)

٢٩ راجع: "صلاح الدِّين وتوحيد الجبهة العربية زمن الصِّلبيين" لفوزي نجيب حسين، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1959م. (المترجم)

## جدولٌ زمنيٌّ بالحوادث

532هـ = 1138م	ميلاد صلاح الدّين (يُوسف بن أيّوب) بتكْرِيْت؛ فْتُهاجِر عائلته إلى عماد الدّين زَنْكي صاحب المَوْصِل.
549هـ = 1154م	أيّوبُ <sup>١</sup> والِد صلاح الدّين، وعمّه شيرْكوه <sup>٢</sup> في خدمة نور الدّين صاحب دِمَشق <sup>٣</sup> ، التي سيقضي فيها صلاح الدّين سنِيّ التّكوين.
559هـ = 1164م	يرافق صلاح الدّين عمّه شيرْكوه في حملةٍ إلى الدّيار المِصْرِيّة، مَقَرّ الخلافة الفاطميّة.
562هـ = 1167م	يقود صلاح الدّين الدّفَاع عن الإسكندريّة ضد تحالفٍ صليبيّ-فاطميّ.
564هـ = 1169م	يتولّى صلاح الدّين قيادة العساكر الثّوريّة بديار مِصر بُعيد موت عمّه شيرْكوه، ويُعيّن وزيراً للخلافة الفاطميّة التي كانت لا تزال تحكّم ديار مِصر.
567هـ = 1171م	يصير صلاح الدّين حاكم مِصر عَقيب وفاة آخر خليفة فاطميّ، ويحكمُ باسم نور الدّين صاحب بلاد الشّام.

١ ومن أحدث الدّراسات عنه دراسة رعد إسماعيل نعمان بعنوان "نَجْم الدّين أيّوب والِد السّلطان صلاح الدّين الأيوبيّ: سيرته ودوره السّياسيّ والحضاريّ في تاريخ الدّولة الأيوبيّة"، دمشق - دار صفحات، 2024م. (المترجم)

٢ كان أسد الدّين يخدم نور الدّين في أيّام أبيه عماد الدّين زَنْكي، وظلّ في خدمته بعد مقتل زَنْكي سنة 541هـ = 1146م، وقربّه وأقطعهُ، وزاد إقطاعه حتّى صار له جِمْص والرّحبة وغيرهما، وجعله مُقدّم عسكره. يُنظر: التاريخ الباهر، ص120. (المترجم)

٣ الصواب "صاحب حلب ودمشق"؛ إذ إنّه ملك حلب بعقب مقتل أبيه، ثمّ ملك دِمَشق سنة 549هـ = 1154م. يُنظر: التاريخ الباهر، ص86، 86. (المترجم)

يرسل صلاح الدّين قُوَاتٍ لِلإِغَارَةِ عَلَى بِلَادِ التُّوْبَةِ.	= 570-568 هـ
	1175-1173 م
موت نور الدّين؛ فيشرع صلاح الدّين في شنّ حملاتٍ للسيطرة على أملاك نور الدّين، فيستولي صلاح الدّين على دِمَشْقٍ وَحِمَصٍ وَحَمَاةٍ فِي وَسَطِ بِلَادِ الشَّامِ. وَيُرْسِلُ جَيْشًا لِعَزْوِ الْيَمَنِ.	1174 هـ = 1174 م
يشنّ صلاح الدّين حملاتٍ ضِدَّ مَنْ خَلَفَ نَوْرَ الدّين فِي شِمَالِي بِلَادِ الشَّامِ، وَيُرْسِلُ قُوَاتٍ لِلسيطرة على شمال شرق ليبيا، وَتُبَذَلُ مَحَاوِلَاتٌ لِلاستيلاء على الإقليم الواقع في أقصى الغرب؛ فيحبطها الموحّدون. [8]	570-571 هـ = 1175-1176 م
مُنِيَتْ غَارَةُ صَلَاحِ الدّين عَلَى مَمْلَكَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الصَّلِيبِيَّةِ بِالهزيمة بمعركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ.	573 هـ = 1177 م
يهزم صلاح الدّين مملكة بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِوقعة مَرَجِ عُيُونٍ.	575 هـ = 1179 م
يغير رينالد دي شاتيون (Reynald of Châtillon) على شمال غرب الجزيرة العربيّة.	577 هـ = 1181 م
يغير صلاح الدّين على مملكة بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيُرْسِلُ رينالد دي شاتيون أسطولاً للإغارة في البحر الأحمر.	578 هـ = 1182 م
يُهْزَمُ أُسْطُولُ رينالد دي شاتيون فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَيُغَيِّرُ صَلَاحُ الدّين عَلَى مَمْلَكَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ يَسْتَوْلِي أَيْضًا عَلَى حَلَبٍ وَمِيَّافَرِقِينَ وَمَارِدِينَ وَأَمْدٍ (دِيَارِ بَكْرٍ)، فِي حِينِ اعْتَرَفَتِ الْمَوْصِلُ فِي شِمَالِ الْعِرَاقِ بِسِيَادَتِهِ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ.	579 هـ = 1183 م

٤ تَلِّ الصَّافِيَّةِ حِصْنٌ مِنْ أَعْمَالِ فَلَسْطِينِ، قُرْبَ بَيْتِ جَبْرِينَ مِنْ نَوَاحِي الرَّمْلَةِ. (معجم البلدان 2: 42). وتُعرف هذه المعركة أيضًا بتلّ الجَزَرِ أو كَسْرَةِ الرَّمْلَةِ، راجع بحث ياسر كامل بعنوان "معركة تلّ الجَزَرِ (Montgisard) عام 1177م"، ص 251-281. وراجع دراسة محمد مؤنس عوض المُفَصَّلَةَ

عنها في كتابه: صلاح الدّين الأيوبي انكسارات وانتصارات، ص 11-23. (المترجم)

٥ إحدى قُرَى محافظة النبطية في لُبْنَانَ. (معجم البلدان 5: 101). (المترجم)

٦ أي أَرْنَاط. (المترجم)

٧ لم تنضمِ الْمَوْصِلُ تحت لواء صلاح الدّين إلّا بعد صلح العام 581 هـ = 1186 م. يُنظَر: الكامل 11: 517؛

يُهاجم رينالد دي شاتيون قافلةً لحُجاج مسلمين، ويهزم صلاحُ الدين مملكةَ بَيْتِ المَقْدِسِ بمعركة حِطِّين، ويستعيد معظم المدن التابعة لها، بما فيها مدينة بَيْتِ المَقْدِسِ ذاتها.	583هـ = 1187م
يُواصل صلاح الدين استرداد البلدان الصليبيّة، باستثناء صور (Tyre) وطرابلس وأنطاكية.	584-585هـ = 1188-1189م
انطلقت الحملة الصليبيّة الثالثة من غرب أوروبا، وتقدّمت قوّات مملكة بَيْتِ المَقْدِسِ من صور لحصار عكا، ثم يُحاصر صلاحُ الدين المُحاصرين.	585هـ = 1189م
تستولي الحملة الصليبيّة الثالثة على عكا، ويفشل صلاح الدين في إيقافها بأرسوف.	587هـ = 1191م
يحبط صلاح الدين المحاولات الصليبيّة المُبتغية الوصول إلى مدينة بَيْتِ المَقْدِسِ، ويرم القائد الصليبيّ رتشارد ملك إنكلترا صلحًا مع صلاح الدين ويعود إلى موطنه.	588هـ = 1192م
يموت صلاح الدين في السابع والعشرين من صَفَر = الثالث من مارس. [9]	589هـ = 1193م

النوادر السلطانية، ص 120؛ مرآة الزمان 21: 305؛ الروضتين 3: 235-237؛ مفرج الكروب 2: 171-172. (المترجم)

يُوصَف صلاح الدِّين عادةً بأنَّه كُرْدِيٌّ<sup>١</sup>، ومع أنَّ ذلكم صحيحٌ فيما يخصُّ أصول عائلته، بيدَ أنَّه أمرٌ مُضللٌ. لقد رُبِّي الشَّابُّ يُوسُف بن أُيُوب - صلاح الدِّين (Saladin) في المُستقبل - في كَنَف مجتمع عسكريٍّ تُركيٍّ في شكله العامِّ، وفي بيئَةٍ حضريَّةٍ شاميَّةٍ تتحدَّث اللُّغَةَ العربيَّةَ<sup>٢</sup>، بيِّنا ظلَّت كُرْدِيَّةُ عائلته المباشرة مسألةً أصلٌ عِرْقِيٌّ، ليس لها من كبير أثرٍ في ثقافتها. كان لأبيه أُيُوب ولعمَّه شيركوه أكبر أثرٍ في حياته الباكرة، ومن المُؤكَّد أنَّهما لم يكونا من أسياد القبائل الجباليَّة غير المُثقفين؛ فقد انحدرنا من أرسطراطيَّةٍ دَبِيلٍ<sup>٣</sup>، التي تُعرَف الآن بأرمنيَّا (Armenia)، وخدمنا حُكَّامًا عَرَبًا وتُرُكًّا أقوياء في العِراق والشَّام؛ إذ شكَّلا هما وأهلوهما جزءًا من صَفوة الأسرات العسكريَّة. ولم يكونا - مع ذلك - من بين أقوى تيك الأسرات. [9]

١ صلاح الدِّين من الأكراد الهذليَّة أبًا وأُمًّا. فأما عن نسب الأب فراجع: التاريخ الباهر، ص 119؛ الكامل 11: 340؛ وفيات الأعيان 7: 139؛ الروضتين 1: 403؛ مفرج الكروب 1: 3؛ ذيل مرآة الزمان 1: 37-39؛ كَنز الدُّرر 7: 6؛ السُّلوك 1/1: 42؛ الخِطَط 3: 752. وأما عن أخواله فراجع المقتطفات المنشورة في تضايف: مرآة الزمان 21: 257؛ الروضتين 2: 14، 70، 338، 386، 470-472؛ 4: 108؛ الخِطَط 3: 493؛ النجوم الزاهرة 6: 110. وثمَّة دراسة ضافية أعدها الباحث رعد إسماعيل نعمان، عنوانها: "الخاتون والدة السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين الأيوبي"، دورية كان التاريخية، سبتمبر 2020م، المجلد 13، العدد 49، ص 55-62. (المترجم)

٢ ولَمَّا حكم مصرَ زار أبًا طاهر ابن عَوْف بالإسكندرية، وسَمِعَ منه "مُوطًا للإمام مالك". وكان يحفظ "ديوان الحَماسة"، ويؤثِّر سماع الحديث بالأسانيد. (سير أعلام النبلاء 21: 122، 282، 287). وسمع الحديث، وطلب الفِقه على مذهب الشَّافعيِّ، وبرع في علم الأدب. (طبقات الفقهاء الكبرى للقرشيِّ 1: 624). (المترجم)

٣ مدينةٌ بأرمنيَّة تُتاجمُ أَرَّانَ، كان ثغرًا فتحه حبيث بن مَسلمة الفهريِّ في أيَّام الخليفة الرَّاشد عُثمان ابن عفَّان رضي الله عنه في إمارة مُعاوية على الشَّام. (معجم البلدان 2: 439). (المترجم)



شكل 7 إحدى قاعات الاستقبال الفخمة منذ عصر صلاح الدِّين، القائمة على ضِفَّة دِجْلَةَ في المَوْصِل، صورة التقطها المُوَلِّف

وُلِدَ صلاح الدِّين في مدينة تِكْرِيْت وَسَطَ العِراق في العام 532هـ = 1138م، فهناك كان أبوه وعمُّه حاكِمَيْن [9] عسكريين نيابةً عن السُّلطان مُحَمَّد بن مَلِك شاه، أحد السَّلاجقة العِظام. وبرغم أن تِكْرِيْت كانت موقعاً مُهمَّما، له قلعةٌ حصينةٌ، فإنها كانت أكثرَ أهميَّة كمرکزٍ للثقافة المسيحيَّة والإسلاميَّة. مع ذلك، كان عُمرُ صلاح الدِّين أقلَّ من العامِّ لَمَّا اتَّهَم شيركوه بالقتل<sup>٦</sup>؛ ومن ثمَّ اضطرتَّ العائلةُ إلى الهجرة. ثمَّ ما فتى أن عَثَرَ أَيُّوب وشيركوه على عملٍ في جيشِ عماد الدِّين زَنكي، أتاك المَوْصِل<sup>٧</sup>. كانت طفولة صلاح الدِّين بعدئذٍ مُستقرَّةً نسبياً. فمنذ العام 534هـ = 1139م حكم أبوه أَيُّوب بلدة بَعْلَبَك الحدوديَّة – العُرْضة للخطر – في لُبْنان، لكن لَمَّا اغتيل زَنكي في سنة 541هـ = 1146م، أرسل حاكمُ دِمَشق<sup>٨</sup> جيشاً لاستعادة بَعْلَبَك. فوافق أَيُّوب على الاستسلام، إن سُمِحَ له بالبقاء حاكمًا عليها، وعلى سبيل الترخيب عُرضَ عليه إقطاعُ عشر قرايا قُرْب دِمَشق، بالإضافة إلى دارٍ عامِرَةٍ في المدينة نفسها. [10]

من أَسْفِ أن هذا وَضَعَ أَيُّوب وأخاه شيركوه في مُعسكِرَيْن مُناوئَيْن؛ لأنَّ شيركوه

٤ المُتوفى في أُخريات سنة 511هـ = 1118م. له ترجمة في: وفيات الأعيان 5: 71-73؛ سير أعلام النبلاء 19: 506-507. (المترجم)

٥ الظَّاهر أنَّ نجم الدِّين وأسد الدِّين أقاما بقلعة تِكْرِيْت بعد ولادة صلاح الدين مدَّةً يسيرةً. غَيْرَ أن ابن خَلِّكان ذكر أنه سأل بعض أهل بيت صلاح الدِّين: "هل تعرف متى خرجوا من تِكْرِيْت؟ فقال: سَمِعْتُ جماعةً من أهلنا يقولون: إنَّهم أُخْرِجوا منها في اللَّيْلَة التي وُلِدَ فيها صلاح الدِّين". (وفيات الأعيان 7: 144-145). ويُنظر: سير أعلام النبلاء 21: 283. (المترجم)

٦ كانت إحدى النِّساء قد خرجت من قلعة تِكْرِيْت لقضاء حاجةٍ، وعادت فعبرت على أَيُّوب وأخيه شيركوه وهي تبكي، فسألاها عن سبب بُكاها، فقالت: "أنا داخلةٌ في الباب الذي للقلعة، فتعرَّض إليَّ الأَسْفَهْسِلارُ، فقام شيركوه وتناول الحربة التي مع الأَسْفَهْسِلار وضربه بها؛ فقتله. (وفيات الأعيان 1: 257؛ 7: 143). ويُقال: إنَّه قتل إنساناً نصرانيًّا عزيزاً عند مُجاهد الدِّين بَهْرُوز الرُّوميّ – شِخنة بَعْداد – لمُلاحاة جرتَ بينهما. (التاريخ الباهر، ص 119؛ الكامل 11: 341؛ الروضتين 1: 404-405؛ السُّلوك 1/1: 41). (المترجم)

٧ يَمَّا سَطَرَ عماد الدِّين ليدٍ كانت لهما عنده؛ إذ كانا قد أنقذاه في العام 526هـ = 1132م لَمَّا هزمه قَرَاجَة السَّاقِي؛ فقَدَّما له ولجيشه الفارُّ سَفناً ليعبر دِجْلَة، فلم ينسها لهما زَنكي. (التاريخ الباهر، ص 119). (المترجم)

٨ هو الأمير مُعِين الدِّين أنر (ت. 544هـ = 1149م)، مُدبِّر دُول أولاد أستاذه ظهير الدِّين طُغْتِكِين بدمشق. له ترجمة في: مرآة الزمان 20: 395-397؛ الرُّوضَتَيْن 1: 222-223؛ سير أعلام النبلاء 20: 229-230؛ تاريخ الإسلام 11: 852. (المترجم)

بقي موالياً لنور الدين، ابن زَنكي ووريثه. ترعرع في هذي العُضون الشَّابُّ صلاح الدين في بيئة دِمَشقِ المُتَقَفَّة؛ وهُنالك تلقَّى تعليمه كسَيِّد شابٍّ وفردٍ مُستقبليٍّ من الطبقة الحاكمة. ينصبُّ معظمُ ما هو معروفٌ عن ذلكم التَّعليم على الدين والأخلاق والثقافة أكثر من الاهتمام بالمهارات العمليَّة. لكن بحلول القرن الثاني عشر صيغت الأحاديث المُستفادَة من سيرة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>٩</sup> ضمن نظامٍ تدريسيٍّ، وجمعت تحت مواضعٍ تُعطي مناحي الحياة كافَّةً، بما في ذلك الحُكْم والحَرْب. فوفاق زَكِّيِّ الدِّين الوهْرانيِّ<sup>١٠</sup> - العالم المولود في بلاد المَغْرِب، الذي رُبَّما سمِعَ عن صلاح الدِّين - يجب أن يتضمَّن أيضًا التَّعليم الإثاليِّ لأيِّ طالبٍ تعلَّم الرِّماية واستخدام السِّلاح<sup>١١</sup>. ومن المعروف أن أبناء صلاح الدِّين كانوا يتسابقون بالخَيْل، ويلعبون البولو (Polo)<sup>١٢</sup>، ويمارسون الرِّماية خارج قلعة دِمَشق في كُلِّ مساءٍ<sup>١٣</sup>، فمن المُؤكَّد أن صلاح الدِّين قد فعل الشَّيء ذاته من قبل<sup>١٤</sup>. [10]

أقرَّ صلاح الدِّين أنه أحاط عِلْمًا بالعدالة والحُكْم من نور الدِّين، وأصرَّ على أن سلوكه ما هو إلاَّ اتِّباعٌ لسلوك سلفه الذَّائع الصِّيت<sup>١٥</sup>. وتشى الأدلَّة - بطبيعة الحال - أن صلاح الدِّين تعلَّم منه كيف يُسيِّر حربًا دعائيَّةً ناجعةً ضدَّ حُكَّام مسلمين مُنافسين إبَّان حملاته؛ ابتغاء توحيد الشرق الأوسط الإسلاميَّ لجهاد الصَّليبيين "الفِرْنج". في الحقِّ، قضى صلاح الدِّين زهاء سِتَّة عَشْرَ عامًا في خدمة نور الدِّين، ليس في أدوارٍ

٩ إضافة مني. (المترجم)

١٠ المُتوفى سنة 575هـ = 1179م. ترجمته في: وفيات الأعيان 4: 385؛ تاريخ الإسلام 12: 562-564.

(المترجم)

١١ Lyons, M.C., & D.E.P. Jackson, *Saladin. The Politics of the Holy War* (Cambridge 1982) p. 4.

١٢ أو الكُرَّة (الأُكْرَة) أو الصَّوالِجة (Mall)، لعبةٌ فارسيَّةٌ قديمةٌ؛ أطلق عليها الفُرسُ "جوغان" (Chogan)، والإغريقُ "تزيكانيون" (Tzukanion). وكانت من أَحَبِّ اللُّعَبات إلى بلاط الملوك والسُّلاطين، ومن أوائل مَنْ لعبها بمِضْر الأَمير أَحْمَد بن طُولُون، والوزير الفاطميِّ الأفضَل شاهنشاه. (الخطَطُ المَقْريريَّة 3: 391-392هـ). وكان صلاحُ الدِّين مشهورًا بمهارته في لعبها، لكن يُقال: إنَّه كان شديد الرُّكُض وراء الكُرَّة مثل أبيه. (الروضتين 2: 30، 249). (المترجم)

١٣ رحلة ابن جُبَيْر، ص 261. (المترجم)

١٤ ونصَّ ابنُ جُبَيْر على أن صلاح الدِّين كان يلعب الصَّوالِجة في ميدانين خارج دِمَشق في جهة الغرب. (الرحلة، ص 261). (المترجم)

١٥ الروضتين 1: 26. (المترجم)



شكل 8 قلعة بعلبك، صورة التقطها المؤلف

إداريَّة فَحَسَبُ، وإِنَّمَا فِي مَهَامَّ حَرِيَّةٍ أَيْضًا. [10]

على آيَّةِ حَالٍ، كان صلاح الدِّين الشَّابُّ تَابِعًا هَادِنًا، تَوَلَّى - كُرْهًا لَا طَوْعًا - منصبَ عَمِّهِ شِيرْكُوهُ فِي الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ فِي العَامِ 564هـ = 1169م كما وصفه مُؤرِّخُو القرن التاسع عشر ذُوو المَشْرَبِ العَاطِفِيّ. فَأَكْثَرُ تَعْبِيرٍ دِقَّةً هُوَ تَعْبِيرُ أَحَدِ عُلَمَاءِ القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ<sup>١٦</sup>، الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ [10] لِصَلَاحِ الدِّينِ: "وَالجِهَادُ أَنْتَ رَضِيْعُ دَرِّهِ وَنَاشِئَةُ حَجْرِهِ... فَشَمَّرَ لَهُ عَن سَاقِي مِنَ القَنَا، وَخَضَّ فِيهِ بَحْرًا مِنَ الطُّبَى".<sup>١٧</sup> [11]

لَمَّا أُرْسِلَ صِلَاحُ الدِّينِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ فِي العَامِ 559هـ = 1164م كَجِزَاءٍ مِنَ الجَيْشِ الَّذِي يَقُودُهُ عَمُّهُ شِيرْكُوهُ، لَمْ يَكُ بِكُلِّ الأَكَادَةِ وَاليَقِينِ غِرًّا قَلِيلَ الخَبْرَةِ. وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَرَفَ بِهِ كَقَائِدٍ كَفِّءٍ، أَمِينٍ، طَمُوحٍ. كَانَتْ هَذِهِ الحِمْلَةُ أَوَّلَ تَدخُلِ عَسْكَرِيٍّ مُبَاشِرٍ فِي شُؤْنِ الخِلافةِ الفَاطِمِيَّةِ الأَيْلَةَ لِلسَّقُوطِ، وَكَانَ هَدَفُهَا إِحْبَاطَ السَّيْطَرَةِ الصَّلْبِيَّةِ عَلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ. وَقَدْ كَانَتْ حِمْلَةً فَاشِلَةً مِنَ النَّاحِيَةِ العَسْكَرِيَّةِ، لَكِنَ فِي العَامِ 562هـ = 1167م أُرْسِلَ نُورُ الدِّينِ جَيْشًا آخَرَ، لَهُ - بِالصَّرُورَةِ - الهَيْكَلُ القِيَادِي ذَاتُهُ. وَفِي هَذِهِ المَرَّةِ هَزَمَ الشَّامِيُونَ جَيْشًا فَاطِمِيًّا-صَلْبِيًّا مُشْتَرِكًا بِمَعْرَكَةِ البَابِيْنِ فِي صَعِيدِ مِصْرَ فِي الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنَ جُمَادَى الآخِرَةِ = الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ إِبْرَيْلٍ. وَهَذِي كَانَتْ أَوَّلَ تَجْرِبَةٍ يَخُوضُ فِيهَا صِلَاحُ الدِّينِ عِمَارَ مَعْرَكَةٍ صَرُوسٍ. مَعَ ذَلِكَ، سَرَعَانَ مَا أَعَادَ العَدُوُّ تَنْظِيمَ صَفُوفِهِ، وَفِي غُضُونِ بَضْعَةِ أُسَابِيْعٍ إِذْ بِصِلَاحِ الدِّينِ، البَالِغِ مِنَ العَمْرِ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا، وَاجِدٌ نَفْسَهُ يَقُودُ الدَّفَاعَ عَن تَغْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ العَظِيمِ وَمَعَهُ أَلْفَ فَارِسٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى المَرَضِيِّ وَالجِرْحِيِّ مِنَ العَسْكَرِ. [11]

دَامَ هَذَا الحِصَارُ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ إِلَى شَوَّالٍ = مُسْتَهْلٌ مَايُو حَتَّى أَوَّلِ أَغْسُطُسِ<sup>١٨</sup>، لَكِنَ أُبْرِمَتْ هُدْنَةٌ بِأَخْرَةٍ؛ فَغَادَرَ بِمُوجِبِهَا الشَّامِيُونَ الدِّيَارَ المِصْرِيَّةَ. ثُمَّ فِي مُحَرَّمِ 564هـ = أكتُوبَرِ 1168م تَقَدَّمَ المَلِكُ أَمَلْرِيكُ نَحْوَ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى، فَنَهَبَ بَلْبِيْسَ، وَهَدَّدَ القَاهِرَةَ نَفْسَهَا. فَكَانَتْ الحِمْلَةُ الثَّالِثَةُ، الَّتِي أُرْسِلُهَا نُورُ الدِّينِ إِلَى الدِّيَارِ

١٦ هو القاضي الفاضل، وقد كتب ذلك في منشور وزارة صلاح الدين للعايد الفاطمي. (سنن البرق الشامي 1: 81؛ الروضتين 2: 73-74؛ صبح الأعشى 10: 97). (المترجم)

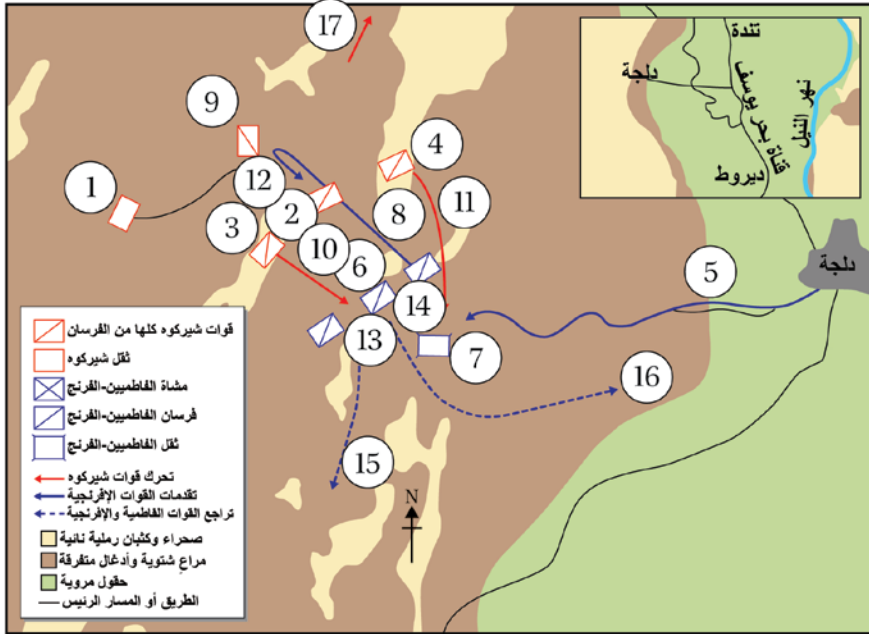
١٧ Partner, G., *God of Battles: Holy Wars of Christianity and Islam* (Princeton, 1997) p. 93.

قلت: ينظر سنن البرق الشامي 1: 81؛ الروضتين 2: 73-74؛ صبح الأعشى 10: 97. (المترجم)

١٨ ووعد شاور أهل الإسكندرية أن يضع عنهم المكوس، ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين، فأبوا ذلك؛ فحاصروهم حتى قل عندهم الطعام. (الخطط المقريريّة 1: 472). (المترجم)



شكل 9 طبق من الخزف المصري من القرن الثاني عشر، معرض فريير للفنون بواشنطن، صورة التقطها المؤلف



شكل 10 معركة البَيْت

المِصْرِيَّة رَدًّا على هذا الاعتداء الصَّلَيبِيِّ، أكثرَ نجاحًا؛ إذ سيطرتُ على البلاد، مع بقاء السُّلْطَة الاسميَّة للخليفة الفاطميِّ. فعَيَّن شيركوه وزيراً للخليفة، لكن بعد ذلك - وفي لحظة انتصاره - تُوفِّي عمُّ صلاح الدِّين فجأةً في جُمادى الآخرة 564هـ = مارس 1069م. وهذا أنذر بأزمةٍ خطيرةٍ لقوَّة الحملة الشَّاميَّة، ولنفوذ نور الدِّين بالديار المِصْرِيَّة. إذ بات لِزامًا اختيار قائد جديد على الفور من بين الأمراء، فكان صلاح الدِّين هو رَجُلُ الجيشِ المُصْطَفَى. [11]

لَمَّا عَيَّن صلاح الدِّين وزيراً للخليفة الفاطميِّ خَلَفًا لشيركوه، صار أيضًا قائدًا للجيش الفاطميِّ. في الواقع، كان هناك جيشان فاطميَّان منذ سنينٍ مديدةٍ: قاد أحدهما وجنَّده الوزراءُ مُباشرةً، وفرقةٌ مُستقلَّةٌ من أفواج القِصْر تدين بالولاء المُباشر للخليفة الفاطميِّ. ومن أسفِّ واجه صلاح الدِّين مُعارضةً من كليهما. وفي تلكم العُصون، لم يتوقَّع العاضِد<sup>19</sup> آخر خليفة فاطميِّ - الشابَّ المريض - أن يُطاح بأسرته

19 "العاضِد" في اللُّغة: القاطع، يُقال: عَضَدْتُ الشَّيءَ، فأنا عاضِدٌ له، إذا قطعته، فكأنَّه عاضِدٌ لدولتهم، وكذا كان؛ لأنَّه قطعها، ومنه في حديث حُرْمَة مكَّة الصَّحيح: "لا يُعَضدُ شَجْرُها"،

الحاكمة؛ لذا بدت علاقته بصلاح الدين وديته. بيد أنه في قرابة العام كان صلاح الدين قد قلم أظافر سلطة الإسلام الشيعي ونفوذ داخل الدولة، وكان يستخدم في الوقت ذاته - وبكل حذق - جميع مقومات نظام الدولة الفاطمية؛ رجاء توطيد سلطته. [11]

تفاصيل شكل 10:

1. المكان الذي فيه ثقل شيركوه بين الصحراء والتلال الرملية.
2. من المؤكد أن صلاح الدين كان على رأس القلب، المكون في الأساس من عساكر من العُربان، ولديه أوامر بالتراجع نحو المكان الذي فيه الثقل، ثم بالهجوم المضاد حسب ما يسمح به الموقف.<sup>20</sup>
3. على الأرجح أن شيركوه كان على رأس الجناح الأيمن الذي يقوم بالهجوم كما جرت بذلك العادة، المكون في الغالب من عساكر الغز الترك، بما في ذلك فرقة الأسدية التابعة لشيركوه.
4. يضم الجناح الأيسر الملقى على عاتقه عادة مهمة الدفاع، أو المكون في الأساس من عساكر كردية يتقدمها قائد لم يذكر اسمه.
5. يصل الجيش الفرنجي-الفاطمي من الأشمونين<sup>21</sup>، بعد عبور قناة بحر يوسف<sup>22</sup> شرق دلجة<sup>23</sup>.
6. على الأرجح أن جماعة من العسكر الفاطميين-الصليبيين مع فرسان فرنج بقيادة هيو صاحب فيسارية<sup>24</sup> (Hughes of Caesara) كانوا في الميمنة، مع فرسان فاطميين بقيادة

وبه قطعت دولة العبيدين وعُضدت. (وفيات الأعيان 3: 111؛ الكواكب الدرزية، ص 204؛ عقد الجمان 1: 78). (المترجم)

٢٠ الروضتين 2: 13. (المترجم)

٢١ كانت تقع غربي النيل بالصعيد تجاه مدينة أنصنا، التي حل محلها الآن قرية الشيخ عبادة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل. (معجم البلدان 1: 200؛ الخطط المقرية 1: 647-649؛ القاموس

الجغرافي 4/2: 59-60). وهي الآن إحدى مدن مركز مَلُوي بمحافظة المنيا. (المترجم)

٢٢ أحد فروع تزعمة الإبراهيمية من نهر النيل، ينبع من مدينة ديروط بمحافظة أسيوط، ماراً بمحافظتي المنيا وبني سويف ليصب في محافظة الفيوم. (مروج الذهب 2: 72؛ نزهة المشتاق 1: 327-328؛ الخطط المقرية 1: 190). (المترجم)

٢٣ أو دلجا، ويُسميها العامة "جلدة"، إحدى قرى مركز ديمواس بمحافظة المنيا. (القاموس الجغرافي 4/2: 46-47). والنخبر في: الروضتين 2: 97. (المترجم)

٢٤ أو فيسارية. (وفيات الأعيان 4: 288 ترجمة الحافظ ابن القيسراني). وضبطها وفاق باقوت الذي

- الوزير شاور<sup>٢٥</sup> في الميسرة، وخليط من مُشاةٍ وفُرسانٍ فاطميين وفِرْنَجٍ في القلب يتأسهم الملك أمريك.
7. المكان الذي فيه أُنْقَالَ الجيش الفاطميّ-الصليبيّ.
8. فُرسانٍ فِرْنَجٍ بقيادة هيو صاحب قيسارية يُهاجمون قلب العدو، ربّما ظنّا منهم أنّه تحت قيادة شيركوه.
9. يتراجع القلبُ بقيادة صلاح الدّين نحو المكان الذي فيه ثَقَلَ شيركوه، ثمّ يقوم بهجومٍ مُضادٍّ بعد انقضاء شيركوه على خطوط العدو الرّئيسة.
10. يغلق شيركوه والجناح الأيمن الثّغرة خلف هيو صاحب قيسارية، ويهاجمون المعسكر الفاطميّ-الصليبيّ الرّئيس.
11. من المرجّح أنّ الجناح الأيسر لشيركوه انقضّ هو الآخر، وربّما انعطف نحو المكان الذي فيه أُنْقَالَ العدو.
12. يتكبّد فُرسان الفِرْنَجٍ بقيادة هيو صاحب قيسارية خسائرٍ فادحةً؛ إذ قُبِضَ على هيو نفسه، بينما ولّى معظم الفُرسان الأذبار.
13. تنهار القوّة الفاطميّة-الفِرْنَجِيّة الرّئيسة، وتترك ساحة الوعى، ويُقتل هيو صاحب كريونا (Hugues of Creona) وأستاش شوليه (Eustache Cholet)، بينما أُسِرَ أرنولف (Arnulf) صاحب تلّ باشر<sup>٢٦</sup> وراؤول أُسْقُف بيت لحم (Bishop Raoul of Bethlehem).<sup>٢٧</sup>

صَبَطَهَا صَبَطَ حُرُوفَ. (معجم البلدان 4 : 421). (المترجم)

٢٥ أبو شجاع شاور بن مُجير السّعديّ من بني هوازن، كان قد وليّ صعيد مصر الأعلى قبل وفاة الصّالح طلائع بن رُزَيْك، وأتخذ مدينة قوص مقرّاً لحكمه، ثمّ استطاع دخول القاهرة مع أنصاره في محرّم 558هـ = يناير 1163م، وقتل العادل رُزَيْك بن الصّالح طلائع وأخذ موضعه من الوزارة. أمّا هو فقد قتله الأميران صلاح الدّين وجرّديك الثّوريّ في شهر ربيع الآخر 564هـ = يناير 1169م. له ترجمة في: النّكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة، ص 68؛ وفيات الأعيان 2 : 439-448؛ سير أعلام النبلاء 20 : 514-515؛ أعاظ الحنفا 3 : 259. ولأستاذي الرّيبق بحثٌ رائقٌ عنه، بعنوان: "أبو شجاع شاور بن مُجير السّعديّ" مجلة الكاتب الفلسطيني، العدد 23، ربيع 1991م، ص 111-125. (المترجم)

٢٦ قلعة حصينة، وكورة واسعة في شمال حلب. (معجم البلدان 2 : 40). وتقع الآن بمحافظة غازي عينتاب في جنوب شرق تركيا. (المترجم)

٢٧ William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, translated and annotated by Emily Atwater Babcock & A.C. Krey, Columbia University Press, 1943, vol. 2, pp. 332-333.

14. الاستيلاء على أثقال الجيش الفاطمي-الصليبي.
15. يبقى قتالٌ مُتفرِّقٌ في "وديان" جنوبي ساحة المعركة.
16. يستجمع أمريك عسكره في الوقت الذي تنشغل فيه قُوَّات العدو القريب بأهدافٍ أُخرى، ويتراجع عبر بحر يوسف، ثمَّ إلى مُنيَّة ابن الحَصِيْب<sup>٢٨</sup> (المنيا الآن)، ومن المُحتمل أنَّ شاورًا تراجع في الاتجاه ذاته، وانضم إليهما جيرارد صاجب بوجي (Gerard of Pougi) وجوسلين صاجب سُمِّيَسَاط<sup>٢٩</sup> (Jocelin of Samosata)، ورُبَّما الكاميل<sup>٣٠</sup> ابن شاورٍ ومعه قُوَّةٌ كبيرةٌ من المُشاة قد عبرت النَّيل<sup>٣١</sup>.
17. عاد جيش شيركوه إلى الشمال، جاعلاً قناة بحر يوسف بينه وقُوَّة العدو الرَّئيسة. [12]

- ٢٨ أو مُنيَّة بني حَصِيْب، كانت من أعمال الأَشْمُونِيِّين. (الخِطَطُ المَقْرِيْزِيَّة 1: 287). والخبر في: الروضتين 2: 98. (المترجم)
- ٢٩ مدينةٌ على شاطئ الفُرات في غربيه، في طرف بلاد الرُّوم، ولها قَلْعَةٌ في شَقِّ منها. (معجم البلدان 3: 258). وهي الآن تقع في جنوب وسط تركيا بمحافظة أديامان. (المترجم)
- ٣٠ المُلقَّب بشجاع المُلك، منع ناصرُ الدِّين مُلْهَمٌ - أخو ضِرْغام - قتله واعتقله عنده بداره، ولم يَخْرُجْ منها إلَّا بعد أن قُتِلَ مُلْهَمٌ. وهو من نهى أباه عن القبض على أسد الدِّين شيركوه لَمَّا اعتزم عمل دعوة له ولكبار أمرائه، قائلاً: "والله لئن عَزَمْتُ على هذا لأَعْرِفَنَّ شيركوه"؛ فقال له أبوه: "والله لئن لم نفعل هذا لَنُقْتَلَنَّ جميعاً" فقال: "صدقت، ولكن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نُقتل وقد ملكها الفِرْنَج؛ فإنه ليس بينك وبين عُوْدِ الفِرْنَج إلَّا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدِّين لم يرسل معه فارساً واحداً، ويملكون البلاد". فترك شاورٌ ما كان عزم عليه. ثمَّ لَمَّا قُتِلَ أبوه دخل إلى القَصْر هو وإخوته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم. فأكل شيركوه يديه أسفًا على قتله؛ لأنَّه بلغه ما كان منه مع والده في منعه من قتله، وكان يقول: "وددتُ لو بقي لأَحْسِنَ إليه جزاء الصَّنِيعَةِ". (الروضتين 2: 56، 84، 89؛ وفيات الأعيان 2: 447-448). كما أنَّه بعد الحملة الثَّورِيَّة الثانية على مِصْر سنة 562هـ = 1167م راسل الكاميلُ نور الدِّين مع شهاب الدِّين محمود الحارمي - خال صلاح الدِّين - ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجَمْعِ الكلمة بِمِصْرٍ على طاعته، وبجَمْعِ كلمة الإسلام، وببَدَلِ مَالٍ يحمله كُلُّ سنةٍ، فأجابهُ نور الدِّين إلى ذلك. وبقي الأمر على ذلك حتَّى سنة 564هـ = 1169م. (الروضتين 2: 14-15). واستطردتُ في ترجمته؛ لأنَّ المُؤَلِّفَ سوف يلمزه فيما بعد بالقسوة! (المترجم)

## الحياة العسكريّة

عندما تُوفِّي العاضدُ العليلُ الصَّحَّةَ - آخِرُ خليفة من الأُسرةِ الفاطميَّةِ - في السَّاعاتِ الأولى من يومِ الاثنين، العاشر من المُحرَّمِ 567هـ = الثالث عشر من سبتمبر 1171م، لم تكُ لديه قُوَّةٌ حقيقيَّةٌ - بل ولا سُلْطَةٌ دينيَّةٌ - داخلِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ. فالآن يستطيع صلاح الدِّين أن يهتمَّ بتقوية الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ كمعقلٍ للسُّلْطَةِ الإسلاميَّةِ السُّنِّيَّةِ مع وضعه كحاكمٍ باسمِ نور الدِّين، صاحبِ الشَّامِ. مع ذلك، سرَّعان ما نشبَ توتُّرٌ بين صلاح الدِّين ونور الدِّين، وأشفياً على نزاعٍ لولا وفاة نور الدِّين فجأةً في شَوَّالِ 569هـ = مايو 1174م. [13]

إنَّ السَّببَ الرَّئيسَ في هذه العَلاقة المُتدهورة كان مالياً. فنور الدِّين عدَّ مِصْرَ وكأنَّها بَفرَةٌ حلوبٌ، يمكن أن تُموَّلَ ثرواتها آليته الحرِّيَّةُ التوسُّعية في الشَّامِ، ومن ناحيةٍ أُخرى كان صلاح الدِّين يبغي تعزيز القُوَّةِ المِصْرِيَّةِ - ومن ثمَّ قُوَّته - كقُوَّةٍ حربِيَّةٍ عظمى أُخرى، تكون قادِرةً على مُواجهة الإماراتِ الصَّليبيَّةِ. مع ذلك، ما فتئ أن شَنَّ صلاح الدِّين حملاتٍ تفوق إمكانياته. وهذه ستظلُّ مُشكلةً خَطِرةً، حتَّى بعد انتصاره بمعركة حِطِّين في العام 583هـ = 1187م. عرف صلاح الدِّين في تلك الأثناء أنَّ الجيشَ الفاطميَّ القديم - برغم زيادة كفاءته - لم يَصِرْ بالضرورة أكثرَ ولاءً لنظامه الجديد. لذلك منع الإيرادات التي كان نور الدِّين يتوقَّعها، واستخدم أكثرَها لدعم القُوَّةِ التي قد جلبها شيركوه في الحملة على الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، مُكوِّناً جيشاً مُواليًا له وحده. لقد دُرِّسَتْ جيوشُ صلاح الدِّين في الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، وفيما بعد في الشَّامِ وشمالِ العِراقِ، منذ أكثر من قرنٍ<sup>٢</sup>، ولكن يبقى كثيرٌ من المفاهيم الخاطئة.

١ وعن علاقة نور الدِّين بصلاح الدين، راجع: "الحروب الصليبية والأُسرة الرنكية" لشاكر أحمد أبو بدر، ص 354-356. (المترجم)

٢ فكان نور الدِّين يتمثَّلُ ببيت أبي تَمَّام: [من البسيط]

لم يُنفِقِ الدَّهَبَ المُربِي بِكَثْرَتِهِ عَلَى الحِصَى وبه فَقَرَ إلى الدَّهَبِ  
يُنْظَرُ: الروضتين 2: 337. (المترجم)

٣ للدكتور محسن محمد حسين دراسةٌ رصينةٌ عن جيش صلاح الدِّين بعنوان "الجيش الأيوبي في

وعلى الرغم من أصول صلاح الدين الكرديّة، سيطر التُرك على الجيُش الجديد. كان الأكراد بارزين أيضاً، لكنهم بقوا ثانويين. [13]

بعقب "تحرير طريق الحجّ" عبر استعادة أيلة؛ ومن ثمّ تمكّن الحُجّاج المسلمون من الأندلس وبلاد المغرب وديار مصر من السّفر آمنين إلى الأماكن الإسلاميّة المقدّسة في شبه الجزيرة العربيّة، واللافت للنظر أنّ صلاح الدين لم يبذل جهداً كبيراً؛ ليثبت دَوْرَه المُعلن كقائدٍ للجهاد. حقيقة، كانت غالبية حملاته حتّى العام 583هـ = 1187م ضدّ أقرانه من الحُكّام المُسلمين. أسست هذه السّياسة - في نهاية المطاف - جبهةً مُوحّدة من النّاحية العمليّة ضدّ الإمارات الصّليبيّة، غيّر أنّها أدّت - في الوقت نفسه - إلى انتقادٍ كبيرٍ. فعلى سبيل المثال بعث صلاح الدين جيوشاً غرباً صوّب بلاد المغرب؛ فاصطدمت مع قُوّة أسرة المُوحّدين المُغرّبيّة الصّاعِدة. كان صلاح الدين يأمل بالاستيلاء على هذه المنطقة أن يُوقف أعمال القرصنة، ويُجنّد بحارةً لأسطوله المصريّ المُنتعش؛، بيد أنّ ما وراء إقليم بَرّقة (Cyrenaica) في شرق ليبيا لم يُعزّز نفوذ صلاح الدين قطّ. [13]

كانت حملات صلاح الدين جنوباً لها أهدافٌ إستراتيجيّةٌ مُماثلة؛ إذ كانت الأهداف الرّئيسة هي التّوبة في وادي النّيل، واليَمَن بالطرف الجنوبيّ من شبه الجزيرة العربيّة. فكلُّ منهما كان مرّتعاً لدعم المُؤيدين للفاطميين والإسماعيليّة، على الرّغم من أنّ ممالك بلاد التّوبة كانت لا تزال مسيحيّة من النّاحية الرّسميّة. وعلى هذا النّحو كان كلُّ منهما تشكّل خطراً على صلاح الدين. وفي وقت استيلاء صلاح الدين عليهما، كانت الأوضاع فوضويّة في المنطقة الحدوديّة بين أقصى شمال المملكة التّويّبة والديار المصريّة. لم يكن مصدر التّهديد من التّويّبين فقط، وإنّما من الأفاقة السّودان أيضاً الذين ضمّوا - بكلّ أكادّة - العسكّر الفاطميين السّابقين والتّاجين من تلكم الانتفاضة التي قامت ضد صلاح الدين في العام 564هـ = 1169م. وبسبب من انتشار الفوضى في أرجاء الصّعيد، طلب كنز الدّولة - القائد العربيّ [13] المسؤول اسمياً عن المنطقة - المُساعدة من صلاح الدين، الذي غدا سيّد القاهرة

---

عهد صلاح الدين: تنظيمه، تركيبه، أسلحته"، رسالة دكتوراة، جامعة الموصل 1980م. هذا فضلاً عن دراسة نظير حسان سَعْداويّ الرّائدة، وقد كتب الله لمُعرب هذا الكتاب أن يُحقّقها، وخرجت للضياء بدار إشرافه في العام 2024م. (المترجم)

٤ وعن اهتمام صلاح الدين بالأسطول المصري، يُنظر: الخِطَط المُقرّزيّة 3: 614-615. (المترجم)

الجديد. فأرسل صلاح الدين في آخر الأمر أخاه غير الشقيق ثوران شاه الحازم من أجل طرد النوبيين والسودان. ثم في العام 570هـ = 1174م قام كنز الدولة نفسه بتمردٍ باسم الفاطميين، وانضمَّ بقواته إلى النوبيين المسيحيين. كانت النتيجة هذه المرة أكثر حسمًا؛ إذ قُتل كنز الدولة وهو على أهبة الاستعداد للزحف نحو القاهرة. فطلت الأمور من ذلك الحين فصاعدًا مستقرةً نسبيًا لأكثر من قرن، وشهدت الممالك النوبية إبان هذه الفترة ازدهارًا أخيرًا بارزًا للحضارة السودانية المسيحية. [14]

شكل اليمَن خطرًا؛ لكونه كان مصدرًا للمؤامرات المؤيدة للفاطميين؛ إذ كان يحكم أكثر البلاد أسرةً شيعيةً إسماعيليةً - يُعرفون بالصليحيين - من سنة 429 = 1047 إلى 532هـ = 1138م. فمن الناحية الإستراتيجية كان اليمَن له أهمية كبيرة؛ لأنه تحكَّم في الجانب الشرقي من مضيق باب المندب، الذي يربط مصر بالهند وشرق إفريقيا والشرق الأقصى. وكانت الحرب البحرية نادرة الحدوث جدًّا في هذه البحار الشرقية، مُقارنةً بالوضع في البحر المتوسط، لكن كان هناك خطرٌ قائمٌ بسبب من أعمال القرصنة. [14]

لا غرَوى كان قرار صلاح الدين بالسيطرة على اليمَن هو من أجل تعزيز السيطرة الإسلامية على البحر الأحمر بأسره، ومن أجل حماية طريق الحج البحري من مصر والسودان إلى المدينتين الإسلاميتين المقدستين - مكة والمدينة - في شبه الجزيرة العربية. كانت أول حملة استكشافية أرسلها إلى اليمَن في 569-570هـ = أوائل 1174م تشتمل على بضعة سفن، لكنَّها كانت حملةً بريئةً في المقام الأول، يقودها أيضًا ثوران شاه، أخو صلاح الدين الطمُوح. لقد كانت نذرة الحروب البحرية - ومن ثمَّ السفن الحربية المتكاملة - هي السمة الغالبة على هذه البحار الشرقية على مدار ألف سنة، غير أن الأمور تغيرت بعض الوقت بُعيد غزو صلاح الدين لليمن.

٥ نسبة إلى أبي الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي (ت. 473هـ = 1081م). له ترجمة في: وفيات الأعيان 3: 411-415؛ تاريخ الإسلام 10: 353-355. وفيهما غنية. (المترجم)

٦ للمزيد راجع: "العلاقة بين دولة الصليحيين والخلافة الفاطمية" لمحمد أمين صالح، ص 61-84. (المترجم)

٧ حسنين محمد ربيع: "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ص 108-111؛ عائشة بنت عبد الله: "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ص 41-44؛ حسن عبد الوهاب: "مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية"، ص 203-204. (المترجم)



شكل 11 فارسٌ معه صقرٌ يقف على مِعَصَّمه، من القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر، مؤسسة الفروسية للفن بلندن

نُقِلَ عددٌ قليلٌ من السفن الحربيَّة من النَّوع المعروف بالشَّواني<sup>٨</sup> من نهر النَّيل إلى البحر الأحمر، ومن نَمَّ إلى مرفأ عَدَن اليمَنِي الحيويِّ. يَبْدَأ أنَّ هذه الشَّواني بقيتْ بعد ذلك

٨ الشَّيني أو الشَّاني أو الشَّينيَّة أو الشَّونة (والجمع شَّوانٍ)، هي السَّفينه الحربيَّة الكبيرة، وتشبه القواديس التي كانت تُستخدَم في البحر المتوسط. ويقول الزَّبيديُّ في "تاج العرُوس": "إنَّ اللَّفظَ من أصلٍ مِصرِيٍّ. وذكر ابنُ مَمَّاني (قوانين الدَّواوين، ص340، 356) أنَّ الشَّيني كانت تَسِيرُ "بمئة وأربعين مِجدافاً، وفيها المُقاتِلَةُ والجَدَّافون". وظلَّ هذا اللَّفظُ مُستعملاً حتَّى العصر العُثمانيِّ. ويُظنر: عليُّ باشا مُبارك: الخِطَطُ التَّوفيقِيَّةُ الجديدة 14: 81؛ مُحَمَّدٌ لبيب البتونيِّ: رِحْلَةُ الأندَلُس، ص141؛ درويش التَّخيليِّ: السُّفن الإسلاميَّة، ص83-85. (المترجم)

غير مُستخدمةٍ سنينَ عَدَدًا. ولم يُسجَلْ أيُّ خيرٍ عمّا كانت تقوم به هذه الشّواني لَمَّا أرسل رينالد دي شاتيون الأسطول الصّليبيّ لينشر الفوضى حول البحر الأحمر سنة 579هـ = 1183م. [14]

إنّ وفاة نور الدّين سنة 569هـ = 1174م فتحت البابَ على مُصراعَيْه أمام إمكانيّة قيام صلاح الدّين بالاستيلاء على كثيرٍ من الشرق الأوسط، كوربث لنور الدّين. في الحقّ، لم يستطع صلاح الدّين أن يتدخّل على الفور؛ إذ كان أسطولٌ صِقلِيّ-نورمانديّ يهدّد سواحلَ مصر، ولكن ما إن زال هذا الخطر ووُئِدَت انتفاضةُ كَنزِ الدّولة بالصّعيد في مَهدها، حتّى أعلن أنّ الحاجةَ ماسّةً إلى الوَحدة والجهد؛ كذريعةٍ للتدخّل في بلاد الشّام. جُملةُ القول، وجد صلاح الدّين دعمًا بين عامّة النّاس وصِغار الجند أكثر من كبار الأمراء - المدنيين منهم والعسكريين على سواءٍ - أثناء حملاته من أجل إخضاع عترة نور الدّين وغيرهم من أفراد البيت الزنكيّ في الشّام والجزيرة وشمال العراق. مع ذلك، وحتّى بعد قيام صلاح الدّين بالسيطرة على دِمَشق في ربيع الأوّل 570هـ = أكتوبر 1174م، ظلّ "حاكم" مصر وجنوبي الشّام ليس إلّا. ولم يُعترف به - حتّى العام التالي - سلطانًا أو حاكمًا أكبر للمنطقة. [14]

كان الاستيلاء على حلب شاقًّا ناصبًا؛ إذ اضطرّ صلاح الدّين إلى شنّ حملاتٍ حقيقيّةٍ حتّى خضع شمال الشّام لسيطرته. فها هنا وفي شمال العراق عدّه الحُكّام الزنكيون مُدعياً كُردِيًّا قد انقلب على أسرة سيّده. لذا استغلّ صلاح الدّين وضعه الذي رَضِيَه لنفسه كقائدٍ للجهد ضدّ الإمارات الصّليبيّة من أجل ضعضة أيّ دعمٍ لهؤلاء الزنكيين الأنداد. فأما عسكريًّا فكانت عملياته ضدّ هؤلاء المسلمين من بني جلدته محدودةً في الغالب. وأمّا سياسيًا، فكان أكثرَ قسوةً؛ ومن ثمّ نجح في استمالة لفيفٍ من الأسرات الحاكمة الصّغيرة التي استاءت حقًّا من مزاعم الزنكيين. [15]

٩ المعروف أنّ لنور الدّين ولدًا ذكراً واحدًا هو الملك الصّالح إسماعيل صاحب حلب، كما علّونَتْ آنفًا. (المترجم)

١٠ راجع: "سياسة صلاح الدّين في بلاد الشّام والجزيرة (570-589هـ = 1174-1193م)" لدريد عبد القادر نوري، بغداد، 1976م. (المترجم)

كانت هناك حصارات أكثر من الحروب الميدانية إبان غزو صلاح الدين لهذه الأقاليم الإسلامية، وقد كان بعضها قاسياً للغاية. فهذا هو حصار منبج<sup>١١</sup> يستحق منا ذكراً، بدأ في سلخ شوال 571هـ = الحادي عشر من مايو 1176م. كان هذا البلد في الواقع إقطاع قُطِب الدين ينال بن حسن المنبجي<sup>١٢</sup>، الذي وصفه المؤرخ ابن الأثير<sup>١٣</sup> بأنه عدو شديد العداوة لصلاح الدين<sup>١٤</sup>. حنق صلاح الدين عليه بأخرة، ومَلَكَ بلدة منبج، ”وبقيت القلعة وبها صاحبها (قُطِب الدين ينال) قد جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر. فحصره صلاح الدين، وضيّق عليه، وزحف إلى القلعة. فوصل النقبان إلى السور؛ فنقبوها، وملكوها عنوة. وغنم العسكر الصلحي كل ما فيها. وأخذ صاحبها ينال أسيراً؛ فأخذ صلاح الدين كل ما له، وأصبح فقيراً<sup>١٥</sup>، لا يملك نقيراً“<sup>١٦</sup>. [15]

إن انتقاد صلاح الدين تذرّعاً بأنه بذل قصارى جهده في مهاجمة مسلمين من بني جلدته أكثر مما قام به من جهادٍ ضدّ الإمارات الصليبية، مباح إلا أنه قسمة

- ١١ مدينة كبيرة واسعة قرب حلب، كان عليها سورٌ مبنيّ بالحجارة مُحكّم. (معجم البلدان 5: 205-206). وتقع الآن في شمال شرق حلب. (المترجم)
- ١٢ دخل في طاعة صلاح الدين في الرقة سنة 578هـ = 1182م. (الروضتين 3: 123). (المترجم)
- ١٣ أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الشافعي (555-630هـ = 1160-1233م)، المعروف بابن الأثير الجزري. له ترجمة في: التكملة لوفيات النقلة 3: 348-349؛ المُدبّل على الروضتين 2: 29؛ وفيات الأعيان 3: 348-350؛ سير أعلام النبلاء 22: 353-356؛ تاريخ الإسلام 13: 925-927؛ طبقات الشافعية للسبكي 8: 299-300. (المترجم)
- ١٤ الكامل 11: 430. (المترجم)
- ١٥ تسلّم صلاح الدين منه قلعة منبج عنوة، وسامه أن يخدمه ويرد عليه ماله، فأبى وأنف، وكثرت نفسه، ومضى إلى سيف الدين صاحب الموصل، فأقطعه الرقة، فبقي فيها إلى أن أخذها صلاح الدين منه في العام 578هـ = 1182م. ومما يُذكر أن ابن حسن كان له في قلعة منبج أموال كثيرة، فاستولى عليها صلاح الدين، ورأى على الأكياس والآنية الذهبية مكتوباً يُوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ”ولّد يحنه ويؤثره، اسمه يُوسف كان يذخر هذه الأموال له“، فقال صلاح الدين: ”أنا يُوسف وقد أخذت ما حُبّي لي“. (الكامل 11: 430؛ الروضتين 2: 405-407؛ مفرج الكروب 2: 42-43). (المترجم)
- ١٦ ابن الأثير (ترجمة دونالد سيدني ريتشاردز: Richards, D.S.): الكامل في التاريخ "تاريخ ابن الأثير لفترة الحروب الصليبية"، الجزء الثاني: السنوات 541-589هـ = 1146-1193م (الأدرشوت، 2007م)، ص 242-243.



شكل 12 لوحة خشبية منحوتة من القرن الثاني عشر تُظهر قديسًا مُحاربًا مُسلحًا وَفَق الطراز الشرق  
أوسطي، من دُنْقَلَة. (متحف السودان القومي، لوحة رقم 98/1، الخرطوم، صورة فويتشخ  
كميل)

ضيزى. ففي جُمادى الآخرة 573هـ = بواكير 1177م قاد صلاح الدين غارة شَعَوَاءَ على مملكة بَيْتِ الْمَقْدِسِ، رُبَّمَا من أَجْلِ إحباط اعتداء صليبيّ-بيزنطيّ خَطِرٍ على الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ، وذلك بُعَيْدَ وصول حملة صليبيَّة بقيادة فيليب كونت فلاندر (Philip of Flanders). في الحقيقة، كانت الضربة المضادة لصلاح الدين تُعدُّ تقريباً كارثةً، وقد بلغ السَّيْلُ الرُّبِّيُّ بالهزيمة بمعركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ (مونت جيسار: Mont Gisard)<sup>١٧</sup> في الثاني من جُمادى الآخرة = الخامس والعشرين من نوفمبر. كان رينالد دي شاتيون – السَّيِّدُ الجديد لإقليم ما وراء نهر الأردن، الواقع الآن في جنوب الأردن – مسؤولاً مسؤولية تامَّة عن هزيمة صلاح الدين؛ فقد كانت معركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ ما هي إلا واحدة في سلسلة الاشتباكات الشخصية المتزايدة بينه وبين صلاح الدين. [15]

أَسِرَ كثيرٌ من جيشِ صلاح الدين بمعركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ، لكن من المعروف أنه لم يُقتَدَ سوى كبار الأمراء. ولم يُعرف إلا القليل جدًّا عن مصير الأسرى من صِغار الجُنْد؛ لذلك فإنَّ رسالةً بعثها أحد هؤلاء الأسرى إلى الأصدقاء أو العائلة في الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ تشير الانتباه أَيْمًا إثارة. لقد نجحت هذه الرسالة من بين وثائق أُخرى في الجَنِيْزَةِ (Geniza)<sup>١٨</sup> أو ”المخبأ“ في معبد بن عزرا في القاهرة. وحيث إنَّ الكاتبَ أَسِرَ على يد مملكة بَيْتِ الْمَقْدِسِ ما بين سنتي 570 = 1174 و 583هـ = 1187م، فإنَّ معركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ كانت هي الحادثة التي أَسِرَ فيها على الأرجح. واسمُه غير معروف<sup>١٩</sup>، لكن

١٧ وتعريفها: ”تلّ الجَزَر“، كما في: معجم البلدان 2: 41؛ النوادر السلطانية، ص 305. وكانت الهزيمة شنيعةً؛ بدليل ما ذكره ابن الأثير أنه قرأ كتابًا كتبه صلاح الدين بخطه إلى أخيه شمس الدولة ثوران شاه، يصفُ هزيمة الرَّملة بعد وقوعها بسنين، يقول فيه: ”لقد أشرَفنا على الهلاكِ غيرَ مرَّةٍ، وما أنجانا الله سُبْحانَه منه إلا لأمرٍ يُريدهُ سُبْحانَه. وَمَا تَبَتَّتْ إلا وفي نَفْسِها أمرٌ“. يُنظَر: الكامل 11: 293-294؛ مُفْرَجُ الكُرُوبِ 2: 62؛ تاريخ الإسلام 12: 468. ولفضل تفصيلٍ عن هذه الكسرة، يُنظَر: الروضتين 2: 462-468. (المترجم)

١٨ وعن وثائق الجَنِيْزَةِ راجع: ”وثائق الجَنِيْزَةِ وأهمَّيَّتُها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية“ لعطية القوصي، ص 185-193. يُنظَرُ أيضًا: ”أوراق جَنِيْزَةِ القاهرة هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته؟“ لأحمد فؤاد سيِّد، ندوة الدراسات البردية في مصر، مركز الدراسات البردية، جامعة عين شمس، 1983م. (المترجم)

١٩ هو سَمِيْمُ المِصْرِي. وعقد الدكتور محمد مؤنس عوض فصلًا عن هذه الرِّسالة بعنوان ”رسالة الأسير سَمَسَمِ المِصْرِي في سجون الصليبيين بنابئس (1177-1186م) إلى أهله بالفُسطاط من خلال وثائق الجَنِيْزَةِ اليهودية“ في كتابه ”الحروب الصليبية من خلال وثائق الجَنِيْزَةِ اليهودية“،

من الواضح أنه خاف أن يصير في طَيِّ النسيان؛ لأنه ليس شخصًا مهمًا. ٢٠ [15] حَقَّق صلاح الدين نصرًا مؤزرًا بُعِيدَ عامين اثنين؛ فلم يَهْزَمْ قُوَّةَ إِفْرَنْجِيَّةَ بُوْقَعَةَ مَرْجِ عَيْونَ ٢١ فَحَسَبْتُ، وَإِنَّمَا اسْتَوْلَى أَيْضًا - بعد ذلك - على حصنِ صليبيّ جديدٍ مُطِلٍّ على مَخَاضَةِ يَعْقُوبَ ٢٢ (Jacob's Ford) الإستراتيجيَّةِ فوق نهر الأزدنِّ الأعلى. غَيْرَ أَنَّ هذه الحملة كانت مُكَلَّفَةً للغاية في وقتٍ كانت فيه إدارة صلاح الدين تعاني حَقًّا من نقصٍ في المال. لذلك، فَإِنَّ هُذُنَةَ العامين التي أُبرِمتْ في أعقاب ذلك، رُبَّمَا جاءتْ كَطَوِّقٍ نَجَاحٍ لِكِلَا الطرفين، خاصَّةً بسبب آثار الجفاف الشَّدِيدِ والمجاعة الناتجة عنه، وقد بلغتِ المُدِيَّةُ العَظْمَ لَمَّا أَهْلِكَتِ المحاصيلُ إِبَّانَ الحملة ذاتِها. دام هذا الجفافُ حَمَسَ سنين، وقد كان شديدًا، لا سِيَّما في دِمَشْقَ؛ إذ كانت المدينة وواحة العُوطة المحيطة بها تعتمدان كُلَّ الاعتماد على نظامٍ مُتَطَوِّرٍ من القنوات، التي تأخذ مِياهَ الشُّربِ والصَّرْفِ والرِّيِّ من نهر بَرَدَى الصَّغِيرِ. [16]

وُهِبَتْ مِصْرُ نَهْرِ النَّيْلِ العَظِيمِ الذي ينبع من إفريقيا، ومن نَجَتْ من هذه الأزمة المُنَاحِيَّةِ الاستثنائيَّة. لا غَرَوُ أَنَّ كانت مِصْرُ رِدْءًا لِلشَّامِ، فكان لقوافل الإمدادات الغذائية القادمة من مِصْرٍ إلى الشَّامِ أَهمِّيَّةٌ بالغةٌ إِبَّانَ هاتيكِ السَّنِينِ العِجَافِ. ولأنَّ صلاح الدين كان قد حرَّرَ طريقَ الحِجِّ باستعادة أَيْلَةَ، لم تضطَّرَّ هذه القوافلُ إلى المرور عبر أيِّ إقليمٍ صليبيّ. مع ذلك، بقيتْ عُرضَةً لخطرِ إقطاعيَّةِ رينالد دي شاتيون

ص 11-28، فلينظره مَنْ شاء، فَإِنَّهُ نَفِيسٌ وَمُؤَيَّدٌ لِمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ مِنْ أَنَّ هذا الأسير رُبَّمَا قد أُسِرَ بمعركة تَلِّ الصَّافِيَّةِ. (المترجم)

٢٠ Cahen, C., 'Une Lettre d'un Prisonnier Musulman des Francs de Syrie', in (ed. anon.), *Études de Civilization Médiévale (IXe-XIe siècle): Mélanges Offerts à Edmond-René Labande* (Poitiers, 1975) pp. 83-87.

٢١ للمزيد عن هذه الوُقْعَةُ وأَسْرَى الفِرْنِجِ، راجع: البرق الشَّامِيّ 3: 162، 166؛ الكامل 11: 453؛ مرآة الزمان 21: 262؛ الروضتين 3: 26-29؛ مفرج الكروب 2: 75-76. (المترجم)

٢٢ أو مَخَاضَةُ الأَحْزَانِ، شَيَّدَهَا الفِرْنِجُ فوق هَضْبَةٍ مرتفعةٍ قُرْبَ بَانِيَّاسِ، وَأَتَمُّوا بُنْيَانَهَا فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ سَنَةِ 574هـ = 1178م، وَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دِمَشْقَ مَسَافَةٌ يَوْمٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ صَفَدَ وَطَبْرِيَّةَ نِصْفُ يَوْمٍ. وَمَعَ نَهَايَةِ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ حَتَّى القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ صَارَ اسْمُهَا "جِسْرُ يَعْقُوبَ" أَوْ "جِسْرُ بَنَاتِ يَعْقُوبَ" جَنُوبِي بَحْرِ طَبْرِيَّةَ. يُنظَرُ: "أَعْمَالُ أَنْجَزَتْ فِيهَا وَرَاءَ البَحَارِ" لُولِيمِ الصُّورِيِّ، ص 419؛ الروضتين 3: 19؛ مفرج الكروب 2: 72؛ حجازي عبد المنعم سليمان: جِصْنَ مَخَاضَةِ يَعْقُوبَ وَأَثَرُهُ فِي الصَّرَاعِ الصَّليبيِّ-الإسلامي، ص 161-245. (المترجم)



شكل 13 دُنْقَلَة العاصِمة التُّونِيَّة القَدِيمة، صوْرة التَّقْطِها المُوَلَّف

في منطقة ما وراء نهر الأردن، كما كانت عرضة لهجمات حامية قلعتها التي كانت لا تزال تُهدد الاتصالات بين مصر والشام. وشكّل في أقصى الشمال مخاطرٍ مماثلةً تنوء صخريّ بإقليم صليبيّ، يقع على مدّ الجزء السفليّ من نهر اليرموك، ويدور حول قلعة شقيف حبيس جلدك<sup>٢٣</sup> (Habib Jaldak) المهمة. [16]

أقام رينالد - بصفته سيّد منطقة ما وراء نهر الأردن - علائق طيِّبة مع مُختلف القبائل العربيّة البدويّة القاطنة هناك. واعتاد المؤرّخون على وصف أولئك البدو بأنهم لُصوصٌ ومُرتزقة، وبأنهم خائنون للإسلام. في الواقع، كان لدى ثلثة منهم مظالمٌ مُعقدة وخلافاتٌ دينيَّة جوهريَّة مع صلاح الدّين، ومع [16] كثيرٍ من النُخب الشّركيّة الأخرى الحاكمة في الشرق الأوسط الإسلاميّ. كانت أولى غارات رينالد اعتداءً مُفاجئًا على قافلة كبيرة في واحة تيماء الواقعة على بُعد أربعمائة كيلومتر جنوبي الكرك، في شتاء 1181-1182م (= 577-578هـ)؛ أي عندما كان الكلاء مُتوفّرًا لخيل المُغبرين. إنَّ مثل هذه الحملة مثلُ كُلِّ حملات رينالد، كان لها هدفٌ إستراتيجيٌّ بعيد عَوْره، يتمثّل في صرف انتباه صلاح الدّين عن حَلَب في شمالي الشّام؛ ومن ثمّ تأخير توحيدهِ للبلاد المحيطة بالإمارات الصّليبيّة. [18]

كانت عمليته التالية غارةً أكثر جُرأةً على البحر الأحمر في شتاء 1182-1183م (= 578-579هـ)، على أنّه لم يُشارك فيها بنفسه. إنَّ سُفنَ رينالد صُنعت على يد نصارى شاميين، ورُبّما تمّ ذلك على ساحل البحر المتوسط وليس في منطقة ما وراء نهر الأردن الجبليّة. ثمّ حملت قطعًا لتبدأ رحلتها في خليج العقبة. في الحق، لقد كان القائد الصّليبيّ يقوم بما قام به صلاح الدّين عندما استعاد العقبة من الصّليبيين مُدَّ عَقْدٍ فائتٍ. لم يك للعملية البحريّة المُرتبّة على ذلك تأثيرٌ نفسيّ هائلٌ فحَسْبُ - بمُهاجمة طرق حجّ المسلمين عبر البحر الأحمر، وتهديد الأماكن الإسلاميّة المُقدّسة - وإنّما أوقفت أيضًا التجارة بين مصر والهند. [18]

قرّر صلاح الدّين أنّه قادرٌ على شنِّ غارةٍ أكبر على مملكة بيت المقدس في العام 579هـ = 1183م، بيد أنّه فشل مرّةً أُخرى. وقد كانت جهود صلاح الدّين في

٢٣ يُسمّى أيضًا "حصن الحبيس"، وهو شقيف من أعمال طبرية مُطلٌّ على السّواد ووراء نهر الأردن. (معجم البلدان 2: 216؛ الكامل 11: 476؛ مصطفى الحباري: حصن الحابس جلدك "حبيس

جلدك"، ص 147). (المترجم)



شكل 14 ضريح رشيد الدين سنان خارج مضياف، صورة التقطها المؤلف

أقصى الشمال - في التلال الخصبة المعروفة الآن بجبل عجلون<sup>٢٤</sup> - أكثر نجاحًا، وفي العام 580هـ (= 1184-1185م) أمر صلاح الدين أميرًا اسمه عز الدين<sup>٢٥</sup> بالانتقال من منصبه الحالي كحاكم للتلال الحدودية الواقعة وراء بيزروت؛ كي يستولي على عجلون. كانت كلتا المنطقتين تحتوي على مناجم حديد مهمّة؛ لذا ربّما كان عز الدين مُتخصّصًا في هذه الأمور. [18]

بقدر ما كان صلاح الدين ماهرًا كقائد عسكريّ، كان ماهرًا أيضًا كديبلوماسيّ؛ ومن ثمّ قادته رؤيته الإستراتيجيةّ المُنتجة إلى إقامة علاقاتٍ جيّدة مع الإمبراطورية البيزنطية. فسعت كلتا الدولتين إلى حصر سلطنة سلاجقة الروم فيما هو الآن وسط تركيا، برغم أنّ صلاح الدين اضطرّ إلى التّحرك بحذر؛ لأنّ السلاجقة يمكن أن يكونوا حلفاء يُعولّ عليهم ضدّ إمارة أنطاكية الصليبيّة. وسهّلت مهمّته بالهزيمة التّكراء التي مُني بها البيزنطيون على أيدي السلاجقة بمعركة ميريوكيفالون (Myriokephalon)<sup>٢٦</sup> في العام 572هـ = 1176م. ثمّ تبع وفاة الإمبراطور مانويل<sup>٢٧</sup> (Manuel) المُوالي للصليبيين في سنة 576هـ = 1180م توترٌ متزايدٌ بين البيزنطيين الروم الأرثوذكس وجيرانهم الكاثوليك

٢٤ قلعَة عجلون من جُند الأُرْدُن، مبنية على جبل يُعرف بجبل عوف، وتُشرف على العُور، بناها الأمير عز الدين أسامة ابن مُتقذ في العام 580هـ = 1184م. وكان مكانها ديرًا به راهب اسمه عجلون؛ فسُمّيَتْ به. (صبح الأعشى 4: 105-107). (المترجم)

٢٥ لعله الأمير عز الدين سامة، صاحب عجلون وكوكب. (مفرج الكروب 3: 119). (المترجم)

٢٦ للمزيد راجع: معركة ميريوكيفالون 1176م من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي لعلي عودة الغامدي، ص 123-150؛ و"معركتا ميريوكيفالون (1176م) وتلّ الجزر (1177م) هزيمتان بيزنطية وأيوبية - دراسة مقارنة" لمحمد مؤنس عوض ضمن كتابه "صلاح الدين الأيوبيّ الإعاقة- الكاريزما- الإنجاز"، ص 88-112. (المترجم)

٢٧ الإمبراطور مانويل الأوّل كومنين (537-576هـ = 1143-1180م)، ساعد الفرنج في حصار دمياط وفي محاولات غزوه مِصر. ويُنظر خبر موته في: أعمال أنجزت فيما وراء البحار، ص 437. وللمزيد راجع: "علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين 1081-1185م" لمحمد نجيب الوسيمي، ص 184؛ "السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل كومنين" لمحمود سعيد عُمران، ص 334-348. (المترجم)

اللاتين. وسنحت فرصةً ذهبيّةً لَمَّا فرَّ اثنانٍ من كبار أفراد الطبقة الأرستقراطية البيزنطيّة – هما إسحاق (Isaac) <sup>٢٨</sup> وأليكسيوس أنجيلوس (Alexius Angelus) – إلى الشّام لاجتئين من الإمبراطور أندرونيكوس “Andronicus” (579–581هـ = 1183–1185م). فأقام صلاح الدّين صدقةً معهما، إلى أن عاد [18] إسحاق إلى بلاده في سنة 581هـ = 1185م ليصبح الإمبراطور البيزنطيّ الجديد. وجاءت القسّنة التي قصمت ظهر البعير عندما سمع قَوْمَصُ <sup>٢٩</sup> طرابُلُس (Count of Tripoli) الصّليبيّ إشاعاتٍ عن عقد تحالفٍ بين إسحاق وصلاح الدّين؛ فأَسَرَ أليكسيوس أنجيلوس وهو في طريق عودته إلى القسطنطينية بعد بضعة أشهرٍ. <sup>٣٠</sup> [19]

٢٨ الإمبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس (581–592هـ = 1185–1195م). وللمزيد عن علاقته بصلاح الدّين، راجع: “علاقات المودّة والمراسلات بين صلاح الدّين الأيوبيّ والأباطرة البيزنطيين (1181–1192م = 577–589هـ)” لهويدا محمد أحمد بنيرة، ص251. (المترجم)

٢٩ لَقَّبَ الْمُؤرِّخُونَ الْمُسْلِمُونَ حُكَّامَ كُونْتِيَّةِ طَرَابُلُس بِـ “الْقَوْمَص”، و”الْقَمَص”. (التاريخ الباهر، ص125؛ الروضتين 1: 416). والْقَوْمَص تعريبٌ حَرْفِيٌّ لِلْفِظَةِ اللَّاتِينِيَّةِ (Comes) أَي الْأَمِير، وَمَعْنَاهَا الْأَصْلِيَّةُ فِي اللَّاتِينِيَّةِ “الرْفِيق”؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي بَادِي الْأَمْرِ يُرَافِقُ الْمَلِكَ فِي حُرُوبِهِ وَتَنْقِلاتِهِ، ثُمَّ عُرِفَ بِالْأَمِير. (النوادر السلطانية، ص127هـ؛ مفرج الكروب 1: 1هـ73). وراجع في معناه: مقالة الأب أنستاس ماري الكرملّي، مجلة الرسالة، بتاريخ 19 مايو 1941م، العدد 411. (المترجم)

٣٠ Brand C.M., “The Byzantines and Saladin, 1185–1192; Opponents of the Third Crusade”, *Speculum*, 37 (1962) pp. 169–171.

## ساعة القدر

اختلف غزو صلاح الدين لمملكة بيت المقدس الصليبية في العام 583هـ = 1187م قليلاً عن بعض غاراته السابقة. ويميل المؤرخون الغربيون إلى وصفها بأنها محاولة جبارة لكسر الفرنج بأيدي جيش عرمرم، ولكن في الحق - حتى في ذروة قوة صلاح الدين - كان يمكن للإمارات الصليبية أن تحشد جيشاً مماثلاً لعدد جيشه، بل يفوقه - ومن نواح كثيرة - في العدة والتكتيك على سواء. لم يك سقوط مملكة بيت المقدس حتمياً بحالٍ من الأحوال؛ إذ ربّما كان صلاح الدين خائفاً من نتيجة هذه الحملة بالذات أكثر من خصومه أنفسهم. فسيطرته الضعيفة على "إمبراطورية" مثرامية الأطراف كانت تعني أنّ الهزيمة - أو حتى التراجع - يمكن أن تكون كارثيةً سياسياً. وعلى صعيدٍ آخر، فإنّ الغارة الناجحة كانت سوف تساعد في تعزيز موقف صلاح الدين تجاه القادة المسلمين المنافسين. [19]

إنّ توقع صلاح الدين نشوب معركة كبرى في العام 583هـ = 1187م أمرٌ غير واضحٍ أيضاً. وكان الجيش الذي قاده في هذه الحملة مختلطاً، يضمُّ فرساناً مسلّحين وغير مدّرعين، وأعداداً غفيرةً من المشاة وآلات الحصار. وتشير تلك الأدلة إلى أنّ الغزوة قد تغيّت أن تكون أكثر من حربٍ مُدمّرةٍ "تخريبية" اقتصاديةً. [19]

وبتجوةٍ من جبهة القتال، شهد العام 583هـ = 1187م سعي إدارة صلاح الدين لتقوية وضعها بطرائقٍ أخرى. وهذه تضمّنت إصلاحاتٍ ماليّةً كبيرةً، اشتملت - على الرّغم من أنّها أقلُّ دراماتيكيّةً من الحوادث في فلسطين - على جهدٍ للتخلّص من عملةٍ مغشوشةٍ من التّداول. ولم يك لها إلاّ تأثيرٌ مؤقتٌ، فسوف تزداد مُشكلةُ العملة المغشوشة سوءاً - فيما بعد - إبّان الحملة الصليبية الثالثة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه مثلما جمعت ضرائبٌ خاصّةٌ في العالم المسيحيّ الغربيّ لتمويل الحملة الصليبية الثالثة، اقترح على الفور العادل - أخو صلاح الدين - ضريبةً دخل بنسبة واحد في المئة، وذلك قبيل قرونٍ من ظهور هذه الفكرة في أوروبا. وحتى هذا أثبت أنّه غير كافٍ؛ لذا فرضت ضرائبٌ خاصّةٌ على غير المسلمين في جميع أرجاء مملكة صلاح الدين. فضلاً عن ذلك، فإنّ الحرب الذي سَعَرها غزو صلاح الدين في العام 583هـ =



شكل 15 قلعة بئليس، صورة التقطها المؤلف



شكل 16 قلعة بيت الأخران بمخاضة يعقوب، صورة التقطها المؤلف

1187م، ولم تنته إلا بانسحاب الحملة الصليبية الثالثة في العام 588هـ = 1192م، كانت تعني أن إدارة السلطان اشترت طعاماً وسلعاً أخرى على أساس ثابت [19] وهائل. وبناءً عليه، ارتفع سعر المواد الغذائية بشكل جنوني. فعلى سبيل المثال في العام 588هـ = 1192م تضاعفت تكلفة الفول، وهو الغذاء الأساسي في الديار المصرية<sup>١</sup>. [20] إضافة إلى عوامل اقتصادية وعسكرية أكثر إلحاحاً، كانت هناك اعتبارات دبلوماسية أوسع. ففي ربيع العام 1187م (= 583هـ)، وبينما كان صلاح الدين لا يزال يحشد قواته في الشام، أغار أسطول إمبراطوري-بيزنطي على جزيرة قبرص (Cyprus)، التي كانت تحت سيطرة إسحاق كومنين (Isaac Comnenus)، وهو "متمرد" وعلى علائق قوية بالإمارات الصليبية<sup>٢</sup>. وبرغم أن هذا الهجوم نجم عن تنافس سياسي داخل الإمبراطورية البيزنطية، فإنه كان يُنظر إليه - بكل وضوح - داخل الإمارات الصليبية على أنه دعم لهجوم صلاح الدين المزمع. [20]

١ Ehrenkrecht A.S., *Saladin* (State University of New York Press, Albany 197), p. 223.

٢ Brand C.M., "The Byzantines and Saladin, 1185-1192: Opponents of the Third Crusade", *Speculum*, 37 (1962) p. 170.

لا رَيْبَ أَنَّ صلاح الدِّين نفسه انتفع أيما انتفاع من علاقته المُتَحَسِّنة بالسُّلْطَة البيزنطيَّة الحاكمة في القسطنطينية. في هذي الأثناء - ومن ناحيةٍ أُخرى - قوَّضتْ توثراتٌ قائِمةٌ بين الإمارات الصَّلبيَّة والإمبراطورية البيزنطيَّة العَلاقة التي كانت على شفا جُرفٍ هارٍ بين الكنيسة اللاتينيَّة الكاثوليكيَّة والكنيسة اليونانيَّة الأرثوذكسيَّة. في الحقِّ، كان إبرامُ اتِّصالٍ وثيقٍ بين صلاح الدِّين [20] والرُّوم المَلَكِيِّين الأرثوذكس في بَيْتِ المَقْدِسِ غيرَ معروفٍ، مع أَنَّ المسؤول الرَّئيس يبدو أَنَّهُ كان يُوسُف (Joseph)، وهو مسيحيٌّ مَلَكانيٌّ مولودٌ في بَيْتِ المَقْدِسِ، وكان يعمل وقتئذٍ ضمن مُعاوني السُّلطان<sup>٢</sup>. وسوف تُنسَبُ إليه مُحاولَة إقناع رفاقه المَلَكِيِّين بفتح بوابات بَيْتِ المَقْدِسِ عَقِبَ انتصار صلاح الدِّين المُؤزَّر بمعركة حِطِّين. رُبَّما كان هذا الخطر معروفًا من قِبَل المُدافِعِين الصَّلبيِّين؛ ومن ثَمَّ دفعهم إلى اتِّخاذ قرارهم بالتفاوض من أَجْلِ استسلامٍ على عَجَلٍ في العام 583هـ = 1187م. [22]

في هذا العام - أي في العام نفسه الذي وقعت فيه معركة حِطِّين - شنَّ قائدٌ تُركمانيٌّ معروفٌ لدى الأَرَمَن باسمِ رَسْدوم (Resdom) على مملكة أَرَمينيَّة الأَقْبَقِيَّة التي كانت حليفًا رئيسًا للإمارات الصَّلبيَّة. فانجلتْ هذه الوَقْعَة عن هزيمة رَسْدوم، ثُمَّ قَتَلَه على يد ليون ملك أَرَمينيَّة (Leon of Armenia).<sup>٤</sup> وغير معروفٍ إن كان هُنالك أيُّ ارتباطٍ بين هؤلاء المُغِيرِين وصلاح الدِّين، إلا أَنَّ التَّهديد الذي شكَّلتَه هذه القبائل التُّركمانيَّة لا بُدَّ أَنَّهُ كان يدور في ذهن حاكم الإمارة الصَّلبيَّة الموجودة في أقصى الشمال - أي إبرنسيَّة أنطاكيَّة - عند تفاوضه بشأن عقد هُدنة مع السُّلطان.

[22]

Ibid. ٣

Der Nersessian S., "The Armenian Chronicle of the Constable Sempad or of the "Royal Historian"; *Dumbarton Oaks Papers*, 13 (1959) p. 153. ٤



شكل 17 مدينة السُّوَيْهِ، صورة التقطها المؤلّف

## 1 غزو مملكة بَيْتِ الْمَقْدِسِ

إنّ مراحل حملة حِطِّين مُسجَّلةً بتفاصيلها ومعروفةٌ بدقائقها (يُنظَر: Campaign 19: Hattin 1187). ° بدأت لما ضرب صلاح الدّين مُعسكره بمنطقة رأس الماء الغنيّة بالمياه جنوبي دِمَشق مع إهلال مُحَرَّم 583هـ = ثالث عشر مارس 1187م. وهُنالك استدعى وَحَدَاتٍ عسكريّةً من جميع أنحاء مملكته، وفي الوقت نفسه نَفَرَ الْمُتَطَوِّعَةَ من كُلِّ حَدَبٍ ينسلون. في الحقّ، إنّ بَدْءَ الأَسْطُولِ المِصْرِيِّ في الاحتشاد بالإسكندرية يشي بأنّ هذه سوف تكون حملةً كبيرةً. بيّد أنّ عملية الحشّد استغرقت

° Nicolae D., Hattin 1187; Campaign Series 19 (Osprey Publishing, London 1993).

قلتُ: ويُنظَر ”معركة حِطِّين خلفياتها ودلالاتها“ لجوزيف نسيم يوسف، ص 235-251؛ ”حِطِّين وقائع وعبر“ لسعيد عبد الفتاح عاشور، ص 42-45؛ ”الطريق إلى حِطِّين“ لعماد الدّين خليل، ص 20. (المترجم)

٦ موضع في حَوْران بين النَّاصِرَةِ وطَبْرِيَّة. (معجم البلدان 3: 14). وهو موضع شديد البرد، يطلُّ عليه جَبَلُ الشَّيْخِ الذي كان يُسمّى هذا الاسم لبرودته، وكانت الأمطار دائمة التهطل عليه.. (الروستين

4: 454). (المترجم)

عِدَّةَ أسابيعَ، وقد كان لدى صلاح الدِّين أيضًا مَهَامٌ أُخرى، بما في ذلك قيادة فرقة صغيرة إلى بُصْرَى لحماية قافلة الحجِّ السَّنويَّة. وفي صَفَر = إبريل انتقل صلاح الدِّين إلى أقصى الجنوب؛ كي يُهاجِمَ مرَّةً أُخرى قَلْعَةَ رينالد دي شاتيون في الكرك. [22] في هذه العُضون، كانت هناك جهودٌ قائِمةٌ على قدمٍ وساقٍ داخل الإمارات الصَّلبيَّة من أجل رَأبِ الصَّدع بين جي<sup>٧</sup> ملك بَيْتِ المَقْدِس (Guy of Jerusalem) وريموند قَوْمَص طرَابُلُس (Count Raymond of Tripoli). وفي عشرين صَفَر = سَلْخ إبريل طلب وَفْدٌ، على رأسه الأفضَل<sup>٨</sup> - ابن صلاح الدِّين المُرَاهِق - إِدْنًا رسميًا من القَوْمَص ريموند للعبور من أرضه في الجليل، وإعداءً بعدم التَّسبب في أيِّ ضررٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا التَّوجُّهَ إلى المناطق التَّابِعة للملك جي<sup>٩</sup>. فبدأتِ اعتداءاتٌ خَطِرَةٌ في اليوم التالي - الحادي والعشرين من صَفَر = الأوَّل من مايو - بمناوشةٍ بين قُوَّةِ إسلاميَّةٍ استكشافيةٍ، يقدِّمها قائدٌ تُركيٌّ مُحَنِّكٌ - هو مظفَّر الدِّين كُوكُبُري<sup>١٠</sup> - وبين فرقةٍ

٧ قَمْصُ يافا وَعَسقلان، وزوج الأميرة سيببلا أخت الملك بلدوين الرابع "المجذوم"، وآخر ملوك مملكة بيت المقدس الصَّلبيَّة (582-588هـ = 1186-1192م). وكان بلدوين لَمَّا اشتدَّ مرضه، جعله وصيًا على المملكة. للمزيد عن مرض بلدوين والوصاية بالعهد لحي، راجع: تاريخ أعمال أنجرت فيما وراء البحار، ص 486-488. ويرد اسمه "كي" في المصادر العربية، يُنظر: الكامل ١١: 525؛ الروضتين 3: 288؛ تاريخ الإسلام 12: 674. و"كاي" في: مرآة الزمان 21: 317. (المترجم)

٨ الملك الأفضَل نور الدِّين عليٌّ، وُلِدَ يوم عيد الفِطْرِ سنة 565هـ = 1170م بالقاهرة، وكان أَسَنَ إخوته، وإليه كانت ولاية عهد أبيه، تُوفِّي فجاءةً بقلعة سُمَيْساط على الفُرات في صَفَر 622هـ = 1225م. له ترجمة في: الكامل 12: 428-429؛ التكملة لوفيات النقلة 3: 140؛ مرآة الزمان 22: 276-277؛ المُدَيِّل على الروضتين 1: 381؛ وفيات الأعيان 3: 419-421؛ مُفْرَج الكروب 4: 155-158؛ سير أعلام النبلاء 21: 294-296؛ تاريخ الإسلام 13: 716-718؛ السُّلوك 1: 252-254. وكان أهل دِمَشق قد أطلقوا عليه "الملك التَّوَام"؛ لأنَّه في أثناء حُكْمه لدِمَشق أقبل على الشَّرَاب وسمع الأغاني والأوتار ليَّله ونهاره، مُجاهرًا بذلك، واحتجب عن الرِّعية. (مفراج الكروب 3: 40). بيَّد أنَّه في تقلباته قد اتَّخذ في أوائل 591هـ = 1195م منهجًا جديدًا في الحياة، إذ أقلع فجأةً عن الشَّرَاب والانصراف إلى الملذات، واستغرق في العبادة والذِّكر، وتكفيرًا عن آتامه السَّالفة راح في عزلته يكتب مُصَحَّفًا بخطه. (الروضتين 4: 424). (المترجم)

٩ ذيل وليم الصوري، ص 56-58. (المترجم)

١٠ أبو سعيد كُوكُبُري بن زَيْن الدِّين عليِّ كُوجِك بن بُكِكِين، ت. 630هـ = 1232م. و"كُوكُبُري" اسم تُركيٌّ معناه بالعربي: "ذئب أزرق". له ترجمة في: التاريخ الباهر، ص 136؛ مرآة الزمان 22: 323-325؛ التكملة لوفيات النقلة 3: 354؛ وفيات الأعيان 4: 113-121؛ مُفْرَج الكروب 5: 48-62.

إفْرَنْجِيَّةٍ صَغِيرَةٍ نَسَبِيًّا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ عَيُونِ كِرِيْسُونِ (Springs of Cresson).<sup>١١</sup> فَتَكْبَدُ الصَّلِيبِيُّونَ خَسَائِرَ فَوَادِحَ، يَبْدَأَنَّ كُوكُبُرِيَّيْ أَنْسَحَبَ فِي الْيَوْمِ ذَاتِهِ عِبْرَ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ. [22] كَانَتْ هَذِهِ - مَعَ ذَلِكَ - مُقَدِّمَاتٍ. فِيهِ مُنْتَصَفَ رَيْبِ الْأَوَّلِ = خَوَاتِيمَ مَيَاوِ أَمْرٍ صِلَاحِ الدِّينِ عَسَاكِرِهِ بِالْاِحْتِشَادِ بِتَلِّ عَشْتَرَا<sup>١٢</sup> جَنُوبِي رَأْسِ الْمَاءِ، يَبْنِيَّ أَمْرَ الْمَلِكِ جِي [22] عَسَاكِرِهِ بِالتَّجْمَعِ قُرْبَ يَنْابِيعِ صَفُورِيَّةٍ. اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ زُهَاءَ شَهْرٍ حَتَّى تَجْمَعَ عَسَاكِرُ صِلَاحِ الدِّينِ، وَكَانَ تَقِيُّ الدِّينِ<sup>١٣</sup> وَالْفِرْقُ الشَّمَالِيَّةُ مِنْ بَيْنِ آخِرِ الْوَاصِلِينَ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَأَخَّرَتْ لِمَسِيْسِ الْحَاجَةِ إِلَى مُرَاقَبَةِ إِبْرَنْسِيَّةِ أَنْطَاكِيَّةِ. وَفِي مُنْتَصَفِ رَيْبِ الْآخِرِ = السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ يُونِيُو كَانَ كُلُّ شَيْءٍ جَاهِزًا؛ فَقَدْ وُضِعَتْ تَرْتِيْبَاتُ الْجَيْشِ الْأَسَاسِيَّةِ: تَقِيُّ الدِّينِ عَلَى الْمِيْمَنَةِ، وَكُوكُبُرِيَّيْ عَلَى الْمِيْسَرَةِ، وَصِلَاحِ الدِّينِ فِي الْقَلْبِ. ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْجَيْشُ قَبْلَ التَّحْرُكِ نَحْوَ خِسْفِينَ<sup>١٤</sup> عَلَى مَرْتَفَعَاتِ الْجَوْلَانِ. وَفِي تَلْكَمِ الْأَثْنَاءِ عَقَدَ الْمَلِكُ جِي مَجْلِسًا فِي عَكَّا مَعَ كِبَارِ بَارُونَاتِهِ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ تَوَجَّهَ جَيْشُ صِلَاحِ الدِّينِ لِتَلْقَاءِ الْأَقْحُوَانَةِ<sup>١٥</sup> بِقُرْبِ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، وَالْوَاقِعَةُ دَاخِلَ مَمْلَكَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَعَلَى مَدَارِ الْأَيَّامِ الْقِلَالِ التَّالِيَةِ اكْتَمَلَ اِحْتِشَادُ الْعَسَاكِرِ الصَّلِيبِيَّةِ بِصَفُورِيَّةٍ؛ إِذْ انْضَمَّ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ جِي وَبَارُونَاتُ الْآخَرُونَ. وَبِرُغْمِ أَنْ تَمَّ اخْتِلَافًا فِي

(المترجم)

١١ لم يرد هذا الاسم في المصادر العربية، وعُرفت هذه المعركة بعَيْنِ جَوْرَةَ، قُرْبَ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ. يُنْظَرُ:

David Nicolle, *Hattin 1187, Saladin's Greatest Victory*, Osprey Publishing, Oxford 1993, pp. 55-59. (المترجم)

١٢ مَوْضِعٌ بِحَوْرَانٍ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ. (معجم البلدان 4: 125). (المترجم)

١٣ تَقِيُّ الدِّينِ عُمَرُ بْنُ شَاهِنْشَاهِ بْنِ أَيُّوبَ، صَاحِبُ حَمَاةَ، وَمِنْ أَجْلِ فَوَادِحِ صِلَاحِ الدِّينِ، تُوفِّيَ سَنَةَ 587هـ = 1191م. وَهُوَ تَرْجَمَةُ فِي: النُّوَادِرِ السُّلْطَانِيَّةِ، ص 295-296؛ مَرَاةُ الزَّمَانِ 21: 392-395؛ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ 3: 456-458؛ مَفْرَجُ الْكَرُوبِ 2: 375-377؛ سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 21: 202-203؛ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ 12: 836-837. وَلِلْبَاحِثِينَ عَصَامُ مَصْطَفَى عَقْلَةَ وَفُوزِي خَالِدُ الطَّوَاهِيَّةِ دَرَاْسَةٌ عَنْهُ بِعَنْوَانِ "الْمَلِكُ الْمُظْفَرُّ تَقِيُّ الدِّينِ عُمَرُ وَدَوْرُهُ فِي الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ"، الْمَجْلَةُ الْأُرْدُنِّيَّةُ لِلتَّارِيخِ وَالْآثَارِ، الْمَجْلَدُ 8، الْعَدَدَانِ 3-4، 2014م، ص 17-50. (المترجم)

١٤ قَرِيْبَةٌ مِنْ أَعْمَالِ حَوْرَانٍ بَعْدَ نَوَى، فِي طَرِيقِ مِصْرَ بَيْنَ نَوَى وَالْأُرْدُنِّ. (معجم البلدان 2: 371). (المترجم)

١٥ يَقَعُ نَعْرُ الْأَقْحُوَانَةِ قُرْبَ بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةٍ عِنْدَ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ. (الكامل 11: 531؛ الروضتين 3: 278). (المترجم)



شكل 18 قلعة صدر أو قلعة الجندبي في صحراء سيناء، صورة التقطها المؤلف

تحديد الوقت الذي عبر فيه صلاح الدين نهر الأردن، فمن المرجح أنه قام بذلك في التاسع عشر من ربيع الآخر = الثلاثين من يونيو. [23]

ما فتئ بعضُ عسكر صلاح الدين أن فرض حصاراً على بلدة طبرية، وطوت وُحْدَاتٌ أُخْرَى صغيرة المراحل طياً لتراقب العدو، بينما رابضت القوة الأساسية بمعسكرٍ عند كفر سبت<sup>١٦</sup>. كان يوجد عددٌ من مصادر المياه يُعول عليه في المنطقة الواقعة بين طبرية والمعسكر الصليبي بصفورية، فاقترب صلاح الدين بنفسه من العدو في الحادي والعشرين من ربيع الآخر = الأول من يوليو. قام أيضاً بعمل استطلاع مُفصّلٍ عن منطقة لوبيا<sup>١٧</sup>. وهذه كانت تقع على طريقٍ أُخرى من صفورية، ربّما يختار سلوكها الملك جي إن أراد نجدة طبرية. هاجم مُشاة صلاح الدين ومهندسوه طبرية بالآلات الحصار في الثاني والعشرين من ربيع الآخر = الثاني من يوليو. وهذه كانت إستراتيجية محفوفة بالمخاطر؛ لأنها وضعت صلاح الدين بين الأعداء في

١٦ قرية عند عقبة طبرية. (معجم البلدان 4: 469). (المترجم)

١٧ اللوبيا أو لوبية. (النوادر السلطانية، ص 128؛ مرآة الزمان 21: 317؛ الروضتين 3: 294؛ مفرج الكروب

2: 189). (المترجم)

طَبْرِيَّةَ وَصَفُورِيَّةَ. فوق ذلك، كانت بحيرة طَبْرِيَّةَ تقع وقتئذٍ بين جيش صلاح الدِّين والإقليم المُوَالِي له عبر نهر الأُرْدُنِّ. ومن أجل تجنُّب هذا الخطر بقي السُّلْطَانُ بِكَفْرٍ سَبَّتْ مع مُعْظَمِ فرسانه. وبحلول الطَّلَامِ كانت بلدة طَبْرِيَّةَ قد سقطت؛ فانسحبت حاميتها الصَّغِيرَةُ إلى القَلْعَةِ بقيادة إشييفا<sup>١٨</sup> (Eschiva)، زوجة القَوْمِصِ ريموند. [23] عقد الملكُ جِي ومستشاروه إِبَانَ حصار طَبْرِيَّةَ مجلسًا بصَفُورِيَّةَ سادته التَّوتُرُ؛ حيث رُفِضَتْ فيه نصيحةُ القَوْمِصِ ريموند الحَذَرُ.<sup>١٩</sup> ومن ثمَّ زحف الجيش الصَّلِيبِيُّ شرقًا في الثالث والعشرين من ربيع الآخر = الثالث من يوليو. كان بإمكانهم الاختيار بين فِجَاجٍ عديده؛ لأنَّ قالب الطريق الرُّومانية القديمة – وإن لم تكن بالضرورية هي الطَّرِيق ذاتها – كان لا يزال قيد الاستخدام. من الواضح الآن وبصورةٍ أجلى أنَّ عساكر الملك جِي سلكت هذه الفِجَاجِ القديمة ريثما أمكنها ذلك، لكن بأخذ صلاح الدِّين كَفْرٍ سَبَّتْ سيطر على الطَّرِيقِ الرَّئِيسَةِ من صَفُورِيَّةَ إلى طَبْرِيَّةَ. لذا، فإنَّ قرار الملك جِي – الذي واجه انتقادًا في الغالب – باتِّخاذ الطريق الواقعة في أقصى الشمال، كان في الواقع قرارًا منطقيًّا من النَّاحِيَةِ التكتيكيَّةِ. أضف إلى ذلك، يَبِّنُ المؤرِّخُ الإِسْرَائِيلِيُّ بنجامين كيدار (Benjamin Kedar)<sup>٢٠</sup> أنَّ معظم أخطاء الصَّلِيبِيِّين المُفْتَرَضَةِ لم تكن شيئًا من هذا القبيل، فبرغم فشلهم في الوصول إلى [23] يَنابِيعِ حِطِّين، رُبَّمَا وانتهم فرصةً حقيقيَّةً للقيام بذلك.<sup>٢١</sup> [26]

يبدو أنَّ صلاح الدِّين كان خارج طَبْرِيَّةَ لَمَّا وصلته أخبارُ تحرُّكِ العدوِّ. إذ ترك قُوَّةً صغيرةً لحراسة القَلْعَةِ، وقاد على القُوَرِ فِرْقَةَ حَرَسِهِ، وعاد أدراجَه إلى مُعسكِرِهِ الرَّئِيسِ بِكَفْرٍ سَبَّتْ. ثمَّ سرعان ما أخذت قُوَّاتٌ صغيرةٌ تتحرَّشُ بخطِّ سَيْرِ الصَّلِيبِيِّين، ولم

١٨ تزوَّجها ريموند الثالث، وهي ليست بأخت الملك بلدوين الرَّابِعِ؛ إذ إنَّ أخته هي سيبِلا، وهي التي تولَّتِ المملكة. (الروضتين 3: 272هـ). (المترجم)

١٩ لم يُشجِّعهم ريموند على نَجْدَةِ طَبْرِيَّةَ، بل قال لهم: "لو سقطت طَبْرِيَّةَ مدينتي وأخذ المسلمون زوجتي وكلَّ ما أملك أفضلُ عندي من ضياع كُلِّ المملكة". يُنظر: ذيل وليم الصُّوري، ص 69–70، 73؛ Eracles, pp. 49–51; Ernoul, pp. 159–160. (المترجم)

٢٠ وُلِدَ في تشيكوسلوفاكيا سنة 1938م، وهو أستاذ في الجامعة العبرية بالقدس المُحتلَّة. وراجع: "المؤرِّخون الإِسْرَائِيلِيُّون والحروب الصَّلِيبِيَّة" لمحمد مؤنس عوض، القاهرة - مكتبة الآداب 2015م. (المترجم)

٢١ Kedar B.Z., "The Battle of Hattin Revisited", in B.Z. Kedar (ed.), *The Horns of Hattin* (Jerusalem 1992) p. 201.



شكل 19 (أ) فتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة (الحدود تقريباً في العام 588هـ = 1192م)

يحتك صلاح الدين والقوة الرئيسية بجيش الملك جي إلاما وصل الصليبيون إلى طرُعان<sup>٢٢</sup> ضحى. وهنا توجد عين صغيرة؛ ومن ثم قد تستطيع قلة من عساكر ميسرة الصليبيين الشرب. [26]

تفاصيل شكل 19:

١. 570-571هـ = 1174-1175م: يُحاصر صلاح الدين خليفة نور الدين بحلب<sup>٢٣</sup> في غير طائل؛ فتحاول الحشيشية قتل صلاح الدين. وشن الصليبيون غارة ضد قوات صلاح الدين التي كانت تُحاصر حينئذ قلعة حمص، فيرفع صلاح الدين الحصار عن حلب<sup>٢٤</sup>، ويكمل عوضاً عن ذلك حصار حمص، ويستولي على بعلبك (من جمادى

٢٢ قرية فلسطينية قرب الناصرة، وترزح الآن تحت نير المحتل الغاشم. (المترجم)

٢٣ أي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين. (المترجم)

٢٤ كاتب الحلبيون ريموند، وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل صلاح الدين عن حلب، وكان الجوقد خلا له بعد موت أمريك (عموري الأول)، ووصايته على ابنه المجدوم (الأبرص) بلدوين الرابع (569-581هـ = 1174-1185م)، فأرسل إلى صلاح الدين في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال صلاح الدين: "لست ممن يرهّب بتألب الفرنج، وها أنا

- الآخرة 570هـ = ديسمبر 1174 إلى شعبان 570هـ = مارس 1175م).
2. 570هـ = 1175م: يدحر صلاح الدين هجوماً مضاداً بقيادة حَلْب والمَوْصِل بمعركة قُرون حَمَاة (19 رَمَضان = 13 إبريل).<sup>٢٥</sup>
3. 570 = 1175م: يرسل صلاح الدين قَرَأُوشَ كجزءٍ من المُنافسة الدائمة مع المُوحِّدين من أجل السيطرة على ليبيا (في الصَّيف).
4. 571هـ = 1176م: يهزم صلاح الدين الزُّنكيين بمعركة تلِّ السُّلطان<sup>٢٦</sup> (10 شوَّال = 22 إبريل)، ثمَّ يتفاوض لفرض السِّيادة على حَلْب (في مُحرَّم 572هـ = يوليو).<sup>٢٧</sup>
5. 572هـ = 1176م: هزم سلاجقة الرُّوم الإمبراطور البيزنطيَّ مانويل بمعركة ميريوكيفالون (في ربيع الأوَّل = 17 سبتمبر).
6. 573هـ = 1177م: أُسطول صِقْلِيَّ-نورمانديَّ يُهاجم تَنيس<sup>٢٨</sup> (في الصَّيف).
7. 573هـ = 1177م: هُزِمَ صلاح الدين في غارته على مملكة تَيْت المَقْدِس بمعركة تلِّ الصَّافِيَّة (2 جُمادى الآخرة = 25 نوفمبر).
8. 574هـ = 1178م<sup>٢٩</sup>: يحبط صلاح الدين مُحاوَلَة سلاجقة الرُّوم في حصار

سائرٍ إليهم“، ثمَّ بعث قِطْعَة من جيشه وأمرهم بقصد إمارة أنطاكية، فغنموا غنيمةً كبيرةً، وعادوا. فتوجّه ريموند بالفرنج إلى حَمَص، وحاصرها، فلمَّا سمِع صلاح الدين بذلك، رفع حصاره عن حَلْب، عندئذٍ رجع ريموند إلى بلاده؛ إذ حصل الغرض برحيل صلاح الدين عن حَلْب. (الكامل 11: 419؛ الرُّوضتين 2: 350-351؛ مُفرِّج الكُروب 2: 24). (المترجم)

٢٥ سنَّا البرق الشَّامي، ص 86-87. (المترجم)

٢٦ سُمِّي هذا التلُّ باسم السُّلطان السَّلجوقيِّ العظيم ألب أرسلان؛ إذ خيَّم فيه بجيش جرَّارٍ عند حصاره مدينة حَلْب، وهو في طريقه إلى مِصر في سنتي 461-462هـ = 1069م. (الأعلاق الخطيرة 1/1: 330؛ مراصد الأطلال 1: 271). وهي قرية بين حلب وحماة. (تاريخ الإسلام 12: 589).

(المترجم)

٢٧ سنَّا البرق الشَّامي، ص 94-95. (المترجم)

٢٨ مدينةٌ مُندرسَةٌ، كانت جزيرة قريبًا من البرِّ، ما بين الفَرَمَا ودِمياط، يحيط بها البحرُ من كُلِّ جهةٍ. راجع عنها: معجم البلدان 1: 51-54؛ الخِطَطُ المُقْرِيزِيَّة 1: 476-491. ولا تزال الجزيرة التي كانت بها مدينة تَنيس موجودةً إلى اليوم ببحيرة المَنْزَلَة، وتُعرَف بجزيرة تَنيس، تقع على بُعد تسعة كيلومتراتٍ جنوب غربي مدينة بورسعيد. (“القاموس الجغرافي” لمحمد رمزي 1: 197-198).

وضبطها وفاق المُقْرِيزِيَّ. (الخِطَطُ 1: 476). (المترجم)

٢٩ الصواب سنة 575هـ = 1179م. وقد قامت حَرْبٌ بين صلاح الدين وعِزُّ الدين قَلِج أرسلان الثاني السَّلجوقيِّ؛ بسبب أنَّ الأخير طمع في تملك حِصْن رَعْبَان، وادَّعى أنَّه من بلاده، وأنَّ الملك العادل نُور الدين بن زُنكي أخذه منه على خلاف مُرادِه، وأنَّ ابنه الملك الصَّالح إسماعيل قد

رَعْبَان ٣٠ (في الرَّبِيع).

9. 575هـ = 1179م: يهزم صلاح الدّين مملكة بَيْت المَقْدِس بوقعة مَرَج عُيون، ويستولي

على حِصْن بَيْت الأَحْزَان الدَّوَوِيّ (في ذي القعدة 574هـ - ربيع الأوّل 575هـ = إبريل - أغسطس).

10. 576هـ = 1180م: يتدخّل صلاح الدّين في خلافٍ بين زَنْكِيي المَوْصِل وأرائقة حِصْن كَيْفَا<sup>٣١</sup>، ويقنع سلاجقة الرُّوم بعدم التّدخُل<sup>٣٢</sup>، ثمّ يُهاجم أَرْمِينِيَّة الأَفْلَيْقِيَّة<sup>٣٣</sup>.

11. 577هـ = 1181م: يُغيّر رينالد دي شاتيون على شمال الحِجَاز (في الصَّيف).

12. 578هـ = 1182م: يُغيّر صلاح الدّين على مملكة بَيْت المَقْدِس (في المُحَرَّم - صَفَر = يوليو - أغسطس).

13. 578هـ = 1182م: يفشل صلاح الدّين في الاستيلاء على المَوْصِل حاضرة الزَنْكِيين، بيدّ أنّه يستولي على سِنْجَار (في رمضان = ديسمبر).

14. 578هـ = 1183م: يرسل رينالد دي شاتيون أسطولاً للإغارة في البحر الأحمر (في رَمَضان

أنعم به عليه ورضي بعودته إليه، فرفض صلاح الدّين إرجاعه إليه؛ ومن ثمّ أرسل قَلِج أَرْسَلَان عشرين ألف فارسٍ لحصار الحِصْن، فبعث صلاح الدّين ابن أخيه - الملك المُظفّر تَقِيّ الدّين عُمَر صاحب حَمَاة - في ألف فارسٍ، فهزموهم، وظلّ الحِصْن ضمن أملاك عمّه. (البرق الشامي 3: 173-174؛ الكامل 11: 457؛ الروضتين 3: 31؛ مفرج الكروب 2: 79). (المترجم)

٣٠ مدينة بالثغور بين حَلَب وشميساط، قُرب الفُرات. (معجم البلدان 3: 51). (المترجم)

٣١ ويُقال حِصْن كَيْبَا - كلمة أَرْمِينِيَّة - والنسبة إليه "الحِصْكَفِيّ"، وهي بلدة وقاعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عَمَر من ديار بكر. (معجم البلدان 2: 265). (المترجم)

٣٢ كان التّزاع بين الأمير نُور الدّين مُحَمَّد بن فخر الدّين قرا أَرْسَلَان بن داود الأُرْتُقِيّ صاحب حِصْن كَيْفَا (570-581هـ = 1174-1185م) وظهره السُّلطان السَّلْجُوقِيّ عَزّ الدّين قَلِج أَرْسَلَان الثاني لَمَّا تزوّج الأوّل مُعِينِيَّة وهَجَرَ ابنة السُّلطان. للمزيد، يُنظر: الكامل 11: 464؛ مرآة الزمان 21: 270؛ الروضتين 3: 55؛ مفرج الكروب 2: 96. (المترجم)

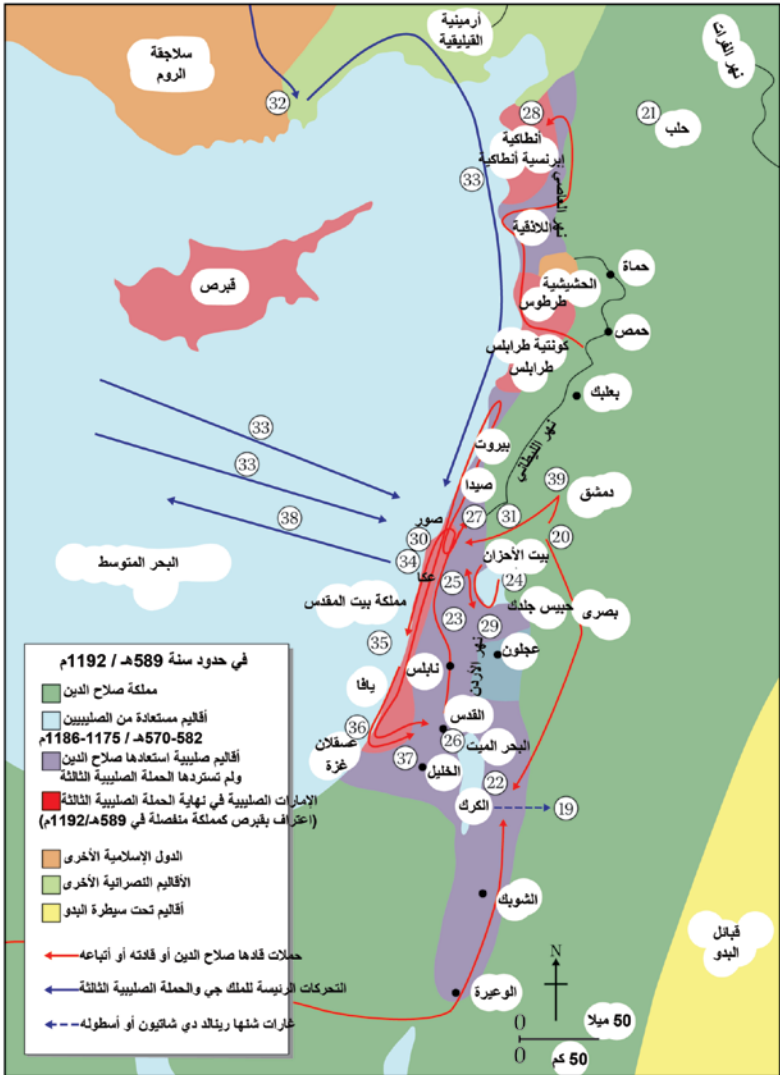
٣٣ دخل صلاح الدّين بلادَ الأَرْمَن لَمَعَمِ مَلِكِهِم رويين الثالث - الذي لَقَّبته المَصَادِر العربيّة بـ "ابن لاون" - لأنّه كان استمالَ قَوْماً من التُّرْكُمَان حتّى يَرَعُوا في مَرَاعِي بِلادِهِ، وأمنهم، ثمّ غدر بهم وأسَرهم، فدخل صلاح الدّين بِلادَهُ وأوغل بها، فخاف رويين على قَلْعِهِ له حصينة تُسمّى "المانقير"، فخرّبها وأحرقها، فسمع صلاح الدّين بذلك، فأغذ السَّيْر إليها، فأدركها قبل أن ينقل ما فيها من دَخَائِرٍ وأقواتٍ، وبأدر المسلمون إلى إخراج ما فيها، وتقوُّوا بها، وتمّموا هَدْمَهَا إلى الأساس، فخضع رويين وذُلّ، ودخل تحت طاعة صلاح الدّين، وأطلق ما بيده من الأسرى. (الكامل 11: 465؛ التّوادر السُّلْطَانِيَّة، ص 98؛ الروضتين 3: 55؛ مفرج الكروب 2: 98-99). (المترجم)

- شَوَّال = يناير - فبراير)، غَيْرَ أَنَّ التَّوَعُّلَ حَتَّى عَدَنَ غَيْرُ مُؤَكَّدٍ.
15. 578هـ = 1183م: يُدْمِرُ حُسَامَ الدِّينِ لُوْلُوْ أُسْطُوْلَ رِينَالْدِ دِي شَاتِيوْنَ قُرْبَ رَابِعِ رَابِعٍ<sup>٣٤</sup> (في شَوَّال = فبراير).
16. 579هـ = 1183م: يَسْتَوْلِي صِلَاحَ الدِّينِ عَلَي مَيَّافَارِقِيْنَ وَمَارِدِيْنَ وَدِيَارَ بَكْرَ (في المُحَرَّم = مايو)، وَيُفْرِضُ حُكْمَهُ المُبَاشِرَ عَلَي حَلَبَ (في صَفَر = يونيو).
17. 579هـ = 1183م: [أ] يُغَيِّرُ صِلَاحَ الدِّينِ عَلَي مَمْلَكَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ (في جُمَادَى الآخِرَةِ – رَجَب = سبتمبر - أكتوبر)، ثُمَّ [ب] يَسْتَدْعِي جَيْشًا مِنْ مِصْرَ بِقِيَادَةِ العَادِلِ مِنْ أَجْلِ شَنْ هِجُومٍ مُشْتَرِكٍ عَلَي الكَرْكِ لَمْ يُوْتِ أَكْلَهُ (في رَجَب – شعبان = نوفمبر – ديسمبر).
18. 581هـ = 1186م: تَعْتَرِفُ المَوْصِلُ بِسِيَادَةِ صِلَاحِ الدِّينِ (في ذِي الحِجَّة = مارس).
19. 582هـ = 1187م: يَخْرُقُ رِينَالْدِ دِي شَاتِيوْنَ المُهْدَنَةَ بِأَسْرَ قَافِلَةٍ مُسَلِمَةٍ، كَان فِيهَا أَفْرَادٌ مِنْ عَائِلَةِ صِلَاحِ الدِّينِ<sup>٣٥</sup> (في ذِي القَعْدَةِ - ذِي الحِجَّة = يناير - فبراير).
20. 583هـ = 1187م: يَقِيْمُ صِلَاحَ الدِّينِ مُعْسَكَرًا حَرِيْبًا بِرَأْسِ المَاءِ، وَيَسْتَدْعِي العَسَاكِرَ لِلجِهَادِ ضِدَّ الإِمَارَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ (في المُحَرَّم = مارس).
21. 583هـ = 1187م: يَتَوَلَّى تَقْيِي الدِّينِ مَهْمَةَ الدَّفَاعِ عَنِ الحُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ (في المُحَرَّم = مارس).
22. 583هـ = 1187م: صِلَاحُ الدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ وَالعَادِلِ مِنْ مِصْرَ يَضْمَانُ قُوَّاتِهِمَا لِلإِغَارَةِ عَلَي مَنطِقَةِ الكَرْكِ (في المُحَرَّم – صَفَر = إبريل).
23. 583هـ = 1187م: قُوَّةُ اسْتِكْشَافِيَّةِ مُسَلِمَةٍ تَهْزِمُ قُوَّةَ صِلِيبِيَّةٍ عِنْدَ عُيُونِ كَرِيَسُونِ (في الحَادِي والعَشْرِيْنَ مِنْ صَفَر = الأوَّل مِنْ مَايو).
24. 583هـ = 1187م: يَأْمُرُ صِلَاحُ الدِّينِ القُوَّاتِ الأيُوبِيَّةِ بِالتَّجْمُعِ عِنْدَ تَلِّ عَشْتَرَا (في 11 ربيع الأوَّل = 27 مَايو). [24]
25. 583هـ = 1187م: يَغْزُو صِلَاحُ الدِّينِ مَمْلَكَةَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَيَسْتَوْلِي عَلَي بِلْدَةِ طَبْرِيَّةٍ مِنْ دُونَ قَلْعَتِهَا (في 22 صَفَر = 2 مَايو)، وَيَهْزِمُ مَمْلَكَةَ بَيْتِ المَقْدِسِ وَكُونْتِيَّةَ طَرَابُلُوسَ بِمَعْرَكَةِ حِطِّينَ (في 24 ربيع الآخر = 4 يوليُو).

٣٤ وادٍ يقطعُه الحاجُّ بين البُرُوزِ والجُحْفَةِ دُونَ عَزُورِ. (معجم البلدان 3: 11). (المترجم)

٣٥ نصٌّ صَاحِبِ ذَيْلِ وَليْمِ الصُّورِيِّ (ص52) أَنَّ أُخْتِ صِلَاحِ الدِّينِ قَدْ أُسْرَتْ. لَكِنْ لَا ذِكْرَ لِأَسْرِهَا فِي المِصَادِرِ العَرَبِيَّةِ، وَاتَّفَقَتْ عَلَي أَنَّ أُخْتَهُ بَسْتُ الشَّامِ وَابْنَهَا الأَمِيرَ حُسَامَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ عَمْرِ ابْنِ لَاجِيْنَ كَانَا فِي الحِجِّ، وَخَرَجَ صِلَاحُ الدِّينِ فِي مُحَرَّم 583هـ = مَارِس 1187م وَنَزَلَ بَصْرَى؛ لِيَرْتَقِبَ وَصُولَهُمَا بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ أَنَّ أَرْنَاطَ يُوُدِّ الإِغَارَةَ عَلَي الحُجَّاجِ. (الكامل 11: 528؛ مَرَاةُ الرِّمَانِ

21: 316–317؛ الروضتين 3: 276). (المترجم)



شكل 20 (ب) فتح بيت المقدس والحملات الصليبية الثالثة (الحدود تقريباً في العام 588هـ = 1192م)

26. 583هـ = 1187م: يستعيد صلاح الدين عكا (في 2 جمادى الأولى = 10 يوليو)، وصيدا (في 21 جمادى الأولى = 29 يوليو)، وبيروت (في 27 جمادى الأولى = 6 أغسطس)، وعسقلان (سُلمَ جمادى الآخرة = 5 سبتمبر)، وبيت المقدس (في 2 رجب = 2 أكتوبر).
27. 583هـ = 1188م: يرفع صلاح الدين الحصار عن صور<sup>٣٦</sup>، ويُسرِّح معظم جيشه (في 23

٣٦ وراجع: "مسؤولية صلاح الدين الأيوبي عن فشل حصار صور" لمحسن محمد حسين، المجلة

- شَوَّال = 1 يناير).
28. 584هـ = 1188م: يستولي صلاح الدِّين على بلدة طَرطُوس (Tartus) <sup>٣٧</sup> من دُون قَلْعَتِهَا، ويستولي على اللَّاذِقِيَّة (في 19 جُمادى الأولى = 22 يوليو)، ويبرم هُدْنَةً مع إِبْرَنَسِيَّة أَنْطَاكِيَّة (في 2 شَعْبَان = 26 سبتمبر).
29. 584هـ = 1188-1189م: يستولي صلاح الدِّين على قَلْعَةِ كَوَّكَب (بلفوار: Belvoir) <sup>٣٨</sup> (في زمهرير الشَّتاء).
30. 585هـ = 1189م: يتحرَّك جِي ملك بَيْتِ المَقْدِس من صُور لِيُحاصِر عَكَّا (في 8 رَجَب = 28 أغسطس).
31. 585هـ = 1189م: يتحرَّك صلاح الدِّين لِيمنع حصارَ الملك جِي (في رَجَب = سبتمبر).
32. 586هـ = 1190م: يغرق الإمبراطورُ فِرْدَرِيك (Frederick)، قائد الفرقة الإمبراطورية الألمانية بالحملة الصليبية الثالثة (في 27 ربيع الآخر = 10 يونيو).
33. 586-585هـ = 1189-1191م: وصول فرق الحملة الصليبية الثالثة إلى المُعسكر المُحاصِر لعكَّا.
34. 587هـ = 1191م: تستسلم حامية صلاح الدِّين في عكَّا (في 17 جُمادى الآخرة = 12 يونيو<sup>٣٩</sup>)، ويُذبحون هم وأهلهم (في 27 رَجَب = 20 أغسطس).
35. 587هـ = 1191م: زحفٌ متوازٍ من قِبَل صلاح الدِّين وقُوَّات الحملة الصليبية الثالثة، يُكسِر هجومُ صلاح الدِّين بوقعة أرسُوف (في 16<sup>٤٠</sup> شَعْبَان = 7 سبتمبر).
36. 587هـ = 1191م: يُحرَّب صلاح الدِّين تحصينات عَسَقْلان (في 19-20 شَعْبَان = 10-11 سبتمبر)، ويتراجع إلى الرَّملة، ثُمَّ إلى اللَّطرون (Latrun) <sup>٤١</sup>، ويُسرَّح معظم جيشه،
- 
- العربية للعلوم الإنسانية، الكويت 1987م، المجلد 2، العدد 26. (المترجم)
- ٣٧ أو أَنْطَرطُوس، بلدٌ من سواحل بحر الشَّام (= البحر المتوسط)، وهي آخرُ أعمال دِمَشق من البلاد السَّاحِلِيَّة وأوَّل أعمال جَمص، قُرْب قَلْعَةِ المَرْقَب وعكَّا. (معجم البلدان 1: 270؛ 4: 40). وتقع الآن بسُورِيَّة. (المترجم)
- ٣٨ أو قلعة كَوَّكَب الهَوا، وهي قَلْعَةٌ منيعةٌ تقع على الجَبَل المُطَلَّ على بحيرة طَبْرِيَّة، وتُشرَّف على نهر الأُرْدُنَّ بين الهضاب الواقعة بين بَيْسان وطَبْرِيَّة، شَيَّدَهَا فُرْسَانُ الإِسْتِبارِيَّة في سنة 535هـ = 1140م. (أعمال أنجزت فيما وراء البحار، ص 462؛ معجم البلدان 4: 494). (المترجم)
- ٣٩ الصواب: يوليو. (المترجم)
- ٤٠ في (النوادر، ص 275): "في يوم السبت رابع عشر شعبان". (المترجم)
- ٤١ أو التَّطْرُون أو أَطْرُون، بلدٌ بجنوب فِلَسْطِين قُرْب الرَّملة، كان به حصنٌ للدَّاويَّة. (معجم البلدان 1: 218؛ الروضتين 4: 283). (المترجم)

- ويعود أذراجه إلى بَيْتِ المَقْدِس (في 17 ذي القعدة = 12 ديسمبر).
37. 587-588هـ = 1192م: مناوشات بين قُوَّات صلاح الدِّين والحملة الصَّليبيَّة الثالثة (في ذي الحِجَّة - المُحَرَّم = يناير - أغسطس)، توقيع مُعاهدة سلامٍ بين مُمثلي صلاح الدِّين والملك رِثْشارْد (Richard) (في 23 شَعْبَان = 2 سبتمبر).
38. 588هـ = 1192م: يبحر الملك رِثْشارْد عائداً إلى بلاده من عكَّا (في شَوَّال = أكتوبر).
39. 589هـ = 1193م: يموت صلاح الدِّين في دِمَشق (في 27 صَفَر = 3 مارس). [25]

## 2 معركة حِطِّين - النَّصر المُبين

مُدَّ هذه اللحظة فصاعداً أضحت مُحاولات صلاح الدِّين لتطويق العدو أكثرَ نجاحاً بشكلٍ تدريجيٍّ؛ لذلك أرسل أيضاً عساكرَ للسيطرة على عُيون حِطِّين التي قد يتَّجه الصَّليبيون إليها. على الجانب الآخر واجه الجيشُ الصَّليبيُّ، الذي يعاني أشدَّ المعاناة من الظمأ والحَرِّ والغبار، مُضايقاتٍ مُتكرِّرةً - ولمسافةٍ طويلةٍ - من قِبَل الرُّماة. وهذا شكَّل تهديداً كبيراً لدوابِّهم، بما في ذلك خَيْل الفرسان، مع ذلك كان أقلَّ تهديداً للرِّجال. وقَسَم الطريقُ من طُرْعان إلى طَبْرِيَّة مسافةً قصيرةً غربي لُوييا، بمكانٍ أُطلق عليه الصَّليبيون مرسكليكيا (Marescalia)<sup>٣</sup>، ويُعرف الآن إمَّا بقرية خِرْبَة مَسْكَنَة الواقعة قُرْب الطريق الرُّومانية، وإمَّا بِبِرْكة مَسْكَنَة، وهي البرْكة الاصطناعية بين الطريق وخِرْبَة مَسْكَنَة. وهذه يمكن أن تحتوي على ماءٍ، حتَّى في شهر يوليو، إنْ حُوِّظ عليه جيِّداً، كما كانت عليه الحال - على الأرجح - في العام 583هـ = 1187م. توقَّفت طليعة الجيش الصَّليبيِّ بقيادة القَوْمَص ريموند بمَسْكَنَة؛ لأنَّ الجيش وراءهم كان يسير الهُوَيْني، ومن ثَمَّ يزداد تعرُّضه للخطر بسببٍ من مضايقات العدو. [26]

في تلكم اللحظة رُبَّما كان هناك تغييرٌ في الخُطَّة الصَّليبيَّة. فريموند اعتقد أنَّ الجيش لا يمكنه شقَّ طريقه عبر مُقدِّمة جيش صلاح الدِّين الرئيس، الرابضة على التلال جنوبي الطريق؛ لذا أُنْعَج جِي بالانحراف يساراً والاتِّجاه نحو عُيون حِطِّين. فمن هنا يستطيعون الرِّحْف صَوْب طَبْرِيَّة في اليوم التالي. يُعتَقَد أنَّ قرية حِطِّين هي

٤٢ الصواب: 4 مارس. (المترجم)

٤٣ تُسمَّى اليوم "مفرق جولاني"، وبها مُعسكرٌ للمُحتلِّ الغاصب. وتذكر المصادر العربية أنَّ مُعسكر الفرنج كان بأرض قرية تُسمَّى اللُوييا أو لُوييَّة. (النوادر السلطانية، ص 128؛ مرآة الزمان 21: 317؛ الروستين 3: 294؛ مفرج الكروب 2: 189). (المترجم)



شكل 21 النُقش الموجود فوق البوابة الرئيسيّة لقلعة صلاح الدين المعروفة بقلعة صَدْر، صورة التقطها المؤلف

موقع قبر شُعَيْب؛ - النَّبِيُّ التَّوْرَاتِيّ يثرون (Jethro) - بينما عَدَّ بعضُ المسيحيين الشرقيين التلالَ المُجاورة المعروفة بِقُرُونِ حِطِّينَ هي موقع عِظَةِ المسيح على الجَبَلِ.<sup>٤٥</sup> ومن الأمور ذات الصِّلة المُباشرة بالمعركة القادمة أنّ أسوار العصر البرونزي القديم حول قُرُونِ حِطِّينَ رُبَّمَا كانت أطولَ في القرن الثاني عشر ممَّا هي عليه اليوم. فضلًا عن ذلك، فإنَّ طبيعة ميدان المعركة المُحاط بالأسوار في جنوبي القُرُونِ وفي جنوبها الشرقي، وفَرَّتْ حمايةً للمُشاة من هجوم الفرسان على كِلا الجانبين. [26]

في هذا الوقت كان الجيش الصليبيّ مُنتشرًا - على الأرجح - على مسافة كيلومترين اثنين تقريبًا في وادٍ مُستوٍّ وفسيح نسبيًا. وامتدَّتْ تلالُ جَبَلِ طُرْعان على مَدِّ الجَنَاح الشمالي،، مُنتهية بتلّةٍ صغيرةٍ تتسنّمها قرية نِمْرين<sup>٤٦</sup>. وكانت ترتفع قِمَمُ بركانيّة

٤٤ عند تلّ يُقال له تلّ حِطِّين. (النوادر السلطانية، ص129؛ وفيات الأعيان 7: 175). (المترجم)

٤٥ Fr. Buhl [C. Cahen], "Hittin", in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edition, vol. 3 (Leiden 1971) p.

510.

٤٦ قرية فلسطينية تبعد عشرة كيلومترات شمال غرب مدينة طَبْرِية، وتقع حِطِّينَ شرقها. وهي الآن بيد

المُحتلّ الغشوم. (المترجم)



شكل 22 دَرَهَم نحاسيٌّ مضروبٌ بِمَيَّا فَارَقِينَ فِي الْعَامِ 587هـ = 1190-1191م يُظْهِرُ صِلَاحَ الدِّينِ مُرْتَدِيًّا الشَّرْبُوشِ (مَكْتَبَةُ الْجَامِعَةِ، رَقْمُ 0547/2009، لَائِزِيغ)

منخفضةً من قُرُونِ حِطِّينِ خَلْفَ مَمَرِّ ضَيْقٍ يُؤَدِّي إِلَى قَرْيَةِ حِطِّينِ وَعَيْنِهَا. وَأَخَذَتْ الْأَرْضُ وَرَاءَهَا فِي الْأَنْجِدَارِ الشَّدِيدِ بِاتِّجَاهِ بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ. وَبِالْقُرْبِ مِنَ الْجَنَاحِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْجَنُوبِيِّ لِلْجَيْشِ الصَّلِيبِيِّ ظَهَرَتْ تَلَالُ شَجَرِيَّةٍ أُخْرَى، تَحْتَضِنُ وَسَطَهَا قَرْيَتِي شَجَرَةَ وَلُويِيَا. وَأَسْفَلَ الْوَادِي مُبَاشِرَةً كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ رُؤْيَةَ زُرْقَةِ مِيَاهِ بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ عَلَى بُعْدِ اثْنَيْ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْجَيْشِ الصَّلِيبِيِّ الظَّمَّانِ. [27]

تَتَّفَقُ مَعْظَمُ الْمَصَادِرِ عَلَى أَنَّ تَغْيِيرَ الْجَيْشِ الصَّلِيبِيِّ لِرُجُوعِهِ إِلَى فَوْضَى عَارِمَةِ. كَانَ صِلَاحُ الدِّينِ رَابِعًا فَوْقَ التَّلَالِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَمَنْ تَمَّ كَانَ عَلَى مَرَأَى مِنْهُمْ وَمَسْمَعٍ؛ فَادْرَكَ مَا كَانَ الْعَدُوُّ يَحَاوِلُ الْقِيَامَ بِهِ، فَأَرْسَلَ فِرْقَةَ تَقِيِّ الدِّينِ مِنْ أَجْلِ



شكل 23 العربان يرعون قطعانهم على العشب الربيعي في الصحراء السورية جنوبي نهر الفرات، صورة التقطها المؤلف

اعترض طريقهم. وثَمَّ دليلٌ آخرٌ على أنه كان قادرًا على القيام بذلك، وهو سرعة القوّات الإسلاميّة الفائقة ومناورتها. عندئذٍ أقام صلاح الدّين ليلاً مقرّه المبدانيّ بلوبيا. من المؤكّد أنّ كوكبيري، الذي على ميسرة جيش صلاح الدّين، كان نازلاً على التلال الواقعة حول قرية شجرة، وربّما كانت قوّاته هي التي قد أجبرت هجماتّها الاستباقية ساقّة العدو على التوقف، ومن ثمّ تباطأ الصّليبيون واقتنع قادتهم بالانحراف شمالاً نحو أقرب مصدر للماء. لقد فشلت حملات الفرسان الصّليبيين في إبعادهم، وفي هذا الوقت صرخ القومص ريموند، قائلاً: ”آه! آه! أيّها السيّد الربّ! لقد انتهت الحرب؛ نحن في عداد الأموات، لقد انفرط عقد المملكة!“<sup>٤٧</sup> [27]

أقام الجيش الصّليبيّ لحظتيّئذٍ معسكرًا قُرب مَسْكَنَة. ومن المُحتمل أنّ جي ريموند قد تشوّفت نفسها - بعد استراحة عساكرهما وإعادة تنظيم صفوفها - إلى قيام عساكرهما بالاندفاع نحو عين حطين في صبيحة اليوم التالي. في الحقّ، قضى الصّليبيون المُتعبون والظّماء الليل يستمعون إلى المسلمين وهم يقرعون الطبول،

وينشدون، ويصلون، في دلالة على ثقة المسلمين المتنامية. لا غرور أن الليلة التي سبقت معركة حطين - وقد كانت "ليلة الخضر"، وهو وقت احتفال ديني لدى المسلمين - قد أدت دوراً أيضاً. أحضر صلاح الدين في تلك الأثناء بقيّة جيشه من كفر سبت، ربّما بما فيهم المشاة، بينا فرّق جملاً أربعمئة بعير من النشاب الجديدة، ووقف في ساحة المعركة سبعون بعيراً أخرى محمّلة بنشاب إضافية كذخيرة احتياطية.<sup>٤٨</sup> [27]

على عكس الصليبيين الظمّاء الهيم، كان الجنود المسلمون لديهم قافلة أخرى قد أحضرت قريبا ملاءى بماء الشرب؛ فأفرغت في حفر، أو ربّما في جفان كالجواب من الفخار مثبتة في الأرض، وهي عادة إسلامية شائعة في الحرب المحدث موقعها. وجمع جنود آخرون أغصاناً وأشواكاً جافة من التلال المجاورة، وكوموها في مهبّ الريح جهة المعسكر الصليبي، استعداداً لإشعالها مع خيوط الفجر الأولى. ربّما أيضاً كومت أغصاناً على مقربة من خط سير العدو المتوقع. [28]

لقد كان تكتيك صلاح الدين وقيادته بمعركة حطين على أعلى مستوى، وهذا لا يعني بالضرورة أن القيادة الصليبية كانت ضعيفة. ولعلّ وجه الصواب الإشارة إلى أن الجيش الصليبي قوتل ولم يُبرّر تكتيكياً. تأتى نجاح صلاح الدين من دخول جيشه المعركة في موقع وفي ظل ظروف مكنته من الاستفادة الكاملة من نقط قوته، ومن تقليل نُقط ضعفه. على صعيد آخر أجبر جيش مملكة بيت المقدس الصليبية وحلفائها من كونتيّة طرابلس على القتال، وقد قُصت نُقط قوّة الغربيين، وعلى نحوٍ أخصّ حملات الوحدات المترابطة المكوّنة من خمسة إلى عشرة فرسان (كونروس: Conrois)<sup>٤٩</sup>؛ من سلاح الفرسان المدرّعين من قرّنههم إلى قدامهم كأنهم قطعة حديد. ويُقال إنّ تكتيكات صلاح الدين كانت محفوفة بمخاطر كبيرة، برغم أنها كانت -

٤٨ الروضتين 3: 280. (المترجم)

٤٩ وحدة كانت أشبه ما تكون بسرية الفرسان، وقد يختلف عددها، لكنّه لم يكن كبيراً، وأهم ما يميّزها أنّ الفرسان كانوا يسيرون مترابطين متقاربين "ركاباً لركاب"؛ ومن ثمّ كانت الوحدة تناور كبنبانٍ مرصوصٍ يشدُّ بعضها بعضاً. ويجدر بالذكر هنا أنّ المؤلف هو من أمّديني بهذا التعريف. ويُظنّ كتابه:

*Crusader Warfare (Byzantium, Western Europe and the Battle for the Holy Land 1050-1300 AD)*, Bloomsbury Continuum, UK, 1st, 2007, vol. I, pp. 66-68. (المترجم)



شكل 24 جُنْدِي مُعَمَّمٌ يَحْمِلُ دِرْعًا مُسْتَدِيرَةً، بِالْإِضَافَةِ إِلَى رُحْمَيْنِ يَقْبِضُ عَلَيْهِمَا جُنْدِيَّيْنِ بِجَوَارِهِ، عَثِرَ عَلَيْهِ فِي أُطْلَالِ الْفُسْطَاطِ فِي جَنُوبِي الْقَاهِرَةِ، يَرْجِعُ إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ أَوْ رُبَّمَا قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ. مَتَحَفُ الْفَنِّ الْإِسْلَامِيِّ، رَقْمُ 13801، الْقَاهِرَةِ، صَوْرَةُ التَّقْطِيعِ الْمُؤَلَّفِ

في نواحٍ عديدةٍ - مأخوذةً من كُتُبِ فنون القتال التي صُنِّفَتْ في العالَمِ الإسلاميِّ منذ القرن الثامن. [28]

بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، كَانَ مَسَارُ الْمَعْرَكَةِ وَاضِحَ الْمَعَالِمِ نَسْبِيًّا. فَأُعِيدَ تَشْكِيلُ ثَلَاثِ فِرَقٍ مِنَ الْجَيْشِ الصَّلِيبِيِّ فِي شَكْلِ مَرَبَعَاتٍ أَوْ مُسْتَطِيلَاتٍ، مَعَ وَجُودِ الْفَرَسَانِ وَالْأَنْتِقَالِ فِي الْقَلْبِ مُحَاطَةً وَمُحَمِّيَةً بِمُشَاةٍ. لَمْ يَصْطَلِدْ صِلَاحُ الدِّينِ مَعَ هَذِهِ الْأَسْتَعْدَادَاتِ، فَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مَا إِنْ كَانَ أَعْدَاؤُهُ يَعْتَزِمُونَ الْقِتَالَ لَشَقِّ طَرِيقِهِمْ إِلَى الْبِنَايِعِ أَوْ مُهَاجِمَةً مَوْقِعِهِ عَلَى التَّلَالِ. [28]



شكل 25 جُندٌ يظهرون في هذه النسخة من مقامات الحريري يستعدون لمُرافقة قافلةٍ ذاهبةٍ من دِمَشقٍ إلى بَغداد. (معهد الدراسات الشرقية، رقم 23، ورقة 109، سانت بطرسبرغ)

إنَّ الوقت الذي أُشعلت فيه النَّيرانُ في الأحرّاش غيرُ معروفٍ، ولكن وفاق "كتاب ذيد تاريخ وليم الصوري" (*Continuation of the History of William of Tyre*) لمجهول: [28]



شكل 26 نبوءة أخذ بيت المقدس على يد "أنصار الحمل من أتباع الوحش" في الإنجيل الجورجي الذي يرجع إلى القرن الثاني عشر. (الأنجيل الأربعة جروتشي، مخطوطة رقم 1667، ورقة III، المركز الوطني للمخطوطات، تبليسي)

"مع غَبَش صباح اليوم التالي أمر صلاح الدين عساكره بإضرام النيران في الأسوار التي قد أقاموها حول النصارى من أغصان الشجر والحشائش الجافة. فنَفَذوا أوامره دونما إخلالٍ؛ فازداد ضِرامُ النيران حِدَّةً، وأطبق الدُّخانُ على النصارى من كُلِّ صَوْبٍ، بالإضافة إلى شِدَّة حرارة الشَّمْس وحَمارة القَيْظ؛ ممَّا أنزل النصارى أذى واضطرابًا كبيرين... وجين اشتعلت النيران وتعالَت سُحُبُ الدُّخان أحاط المسلمون بالجيش، وراحوا يرمونه بنبالهم عبر سُحُب الدُّخان؛ فتركوا الرِّجالَ والجِيادَ ما بين قتيلٍ وجريحٍ".<sup>٥٠</sup> [28]

رُبَّما كان هذا قبل بدء الصليبيين في التَّحرُّك، أو أثناء سَيرهم الهُوَيْنى نحو حِطِّين، أو أثناء انهيار تماسكهم على الهضبة الواقعة وراء قُرون حِطِّين، أو رُبَّما كانت عملية باقية [28] طول سَحابة النَّهار. وبالنظر إلى استعدادات صلاح الدين الدقيقة، نجد

٥٠ ذيل وليم الصوري، ص 85-86. (المترجم)

أنَّ التَّرجيحَ الأخيرَ هو المُرجَّح؛ وذلك بإشعال النَّيرانِ بلا توقُّفٍ من قِبَلِ مُتطوِّعين، وانضوى إليهم لفيْفٌ من مُساعِدي صلاحِ الدِّينِ المُتطوِّعة. [29]

في وقتٍ باكِرٍ من النَّهارِ حثَّ فارسٌ أو أكثرٌ من الفرسان، الذين لديهم سابقُ خبرةٍ بالقتالِ كَمُرتزِقَةٍ ضمنَ جيوشِ إسلاميَّةٍ، الملكَ جِي على مُهاجَمَةِ موقعِ صلاحِ الدِّينِ بكلِّ ما أُوتِيَ من قُوَّةٍ. رُفِضَ اقتراحُهم، وعلى أيِّ بدأ - أو واصل - الجيشُ الصَّلبيُّ سِيرَهُ الشَّاقَّ النَّاصِبَ نحو عَيْنِ حِطِّين، الواقعة على بُعدِ خمسة كيلومتراتٍ تقريباً. كانت معنويات الصَّلبيين حينئذٍ مُنهارَةً، وفَرَّ في هذا الوقت تقريباً سِتَّةُ فرسانٍ وبعضُ الرُّقباءِ إلى صلاحِ الدِّينِ، حاضِيه على الاقترابِ للقتالِ؛ لأنَّ رفاقهم هم لحظئذٍ للهزيمة أقرب. فهل كان هؤلاء الرُّجالُ - وبدلاً من أن يكونوا أشراراً كما وصفهم المؤرِّخون - أبطالاً في الواقع، حاولوا جعلَ صلاحِ الدِّينِ يشنَّ هجوماً قبل أوانه؟ [29] من الواضح الجليُّ أنَّ صلاحِ الدِّينِ أرسلَ حينئذٍ قلبه - ورُبَّما ميسرته بقيادة كوكُبري - إلى الهجوم. فشنتِ الدَّاويَّةُ حملةً مُضادَّةً، وشنَّ أيضاً ريموند - ومعه طليعة جيش طرابُلس - حملةً، هي على الأرجح ضدَّ تَقِيِّ الدِّينِ وميمنة المُسلمين. وابن خَلِّكان<sup>١٠</sup> هو المؤرِّخ الوحيد الذي ألمع إلى كيفية اقتراب العدوِّ وأخذه في شقِّ طريقٍ؛ إذ كتب في ترجمته لتَقِيِّ الدِّينِ وكوكُبري، قائلاً: "فإنَّه وقَفَ هو وتَقِيُّ الدِّينِ... وانكسر العسكرُ بأسره، ثُمَّ لَمَّا سَمِعُوا بوقوفهما تراجعوا حتَّى كانت النُّصرةُ للمُسلمين".<sup>١١</sup> [29]

بلا رَيْبٍ كانت مجريات الأحداثِ أقلَّ وضوحاً من ذلك. صدَّ الفرسان الصَّلبيون فرسانَ المُسلمين، غير أنَّهم فقدوا كثيراً من جِيادهم. بيَّدَ أنَّ تَمَّةً شيئاً أكثرَ أهميَّةً هو أنَّ معنويات مُشاة الصَّلبيين، الذين أضناهم الإزهاقُ وأعمى أعينهم الدُّخانُ وأوهنهم الظُّمأ، بدأت في التَّصدُّع، مع اندفاع الكثرة الكاثرة [29] منهم شرقاً. من غيرِ المُتوقَّع أنَّهم كانوا يأملون في الوصولِ إلى بحيرة طَبْرِيَّة كما هو مقترحٌ في بعض الأحيان، ولكن رُبَّما بحثوا عن مهربٍ داخل أسوار العصر البرونزي على قُرون حِطِّين. مع ذلك، يبدو أنَّ هذه التَّحرُّكات قد جرفت جنودَ المُشاة المنهكين في وسط جيش

٥١ قاضي القضاة شمس الدِّين أبو العباس أحمد بن محمد البرمكي الإزبلي الشافعي (608-681هـ = 1211-1282م)، مُصنِّف "وَقِيَّاتِ الأعيان وأنباء أبناء الرِّمان". ترجم لنفسه في: وَقِيَّاتِ الأعيان 7: 258-259. ويُظنَّر: تاريخ الإسلام 15: 444-445؛ طبقات الشافعية للشُّبكي 8: 33-34. (المترجم)

٥٢ وَقِيَّاتِ الأعيان 4: 115، في "ترجمة كوكُبري". (المترجم)



شكل 27 خوذة كثيرة الزخارف مصنوعة من الفولاذ ترجع إلى القرن الثالث عشر. (مؤسسة الفروسية للفن، لندن)

صلاح الدين، وهذا الوضع - لعمري - لا يمكن أن يكون هكذا آنئذٍ. قد يُوجد تفسيرٌ مُحتمَلٌ، وهو أن تقيّ الدين اعترض الطريقَ إلى حطّين بالسيطرة على الموقع من سفح قُرون حطّين إلى تلّ قرية نمرين؛ ومن ثمّ قام بفتح ثغرة بين جُنده وقلب صلاح الدين. [30]

أمر الملك جي ساعتئذٍ جيشه المُمزّق بالتوقّف ونصب الخيام التي يمكن أن تتجمّع العساكرُ حولها، لكن لم يُنصب سوى ثلاث خيامٍ وهم في هذا الأمر المريح، ورُبّما قد نصبت على بُعد مسافةٍ قصيرةٍ غربي قُرون حطّين أو في جنوبها الغربي. ربّما كان دُخانُ نار الأحرّاش المُحترقة ما زال يتصاعدُ، وفي ذلك الوقت من السنة تكون الرّياح السائدة قادمةً من الغرب؛ لذلك فإنّ أيّ عساكرٍ إسلاميّةٍ وراء قُرون حطّين كانت سوف تعاني بقدرٍ مُعانةٍ أعدائهم. وفي هذا الوقت غالبًا قام قومٌص طرابُلُس بما صار وُصمته المشهورة، وذلك بالاتّجاه شمالاً؛ فنجا من التّكبة الوشيكة. بيّد

أن هذا لم يكُ ضرَبًا من ضروب الخيانة، بل كان محاولةً لكسر تطويق المسلمين ولتمكين الجيش الصليبي من الوصول إلى يناييع حطّين. [30]

بدلاً من محاولة إيقاف فرسان ريموند الكثير، أفسح لهم فرسان تقيّ الدين الحُدُق - ورُبّما المُشاة - الطريق، وتركوا الفرسان الصليبيين يُتابعون السّير في الممرّ الضيق المؤدّي إلى قرية حطّين. لم يكُن حماسهم هو الذي جعل عودة أولئك الصليبيين مستحيلاً، بل طبيعة التّضاريس وإغلاق المسلمين للطريق من خلفهم. في الحقّ، لم يكُن لدى ريموند أيُّ بديلٍ آخر سوى البقاء في السّير في وادي الحَمَام<sup>٥٣</sup> باتّجاه بحيرة طبريّة. هنالك، وبدل أن ينضمّ إلى زوجته في الشّرك الذي نُصِب لها في قلعة طبريّة، أغدّ السّير شمالاً صوب مدينة صور السّاحليّة.<sup>٥٤</sup> [30]

كانت بقيّة الجيش الصليبيّ تموج في حالة من الفوضى العارمة وراء الهضبة؛ لأنّ معظم المُشاة تدقّقوا رجاء أن يلودوا بالأمن البادي عند قرن حطّين الشماليّ.. ربّما كانت أنفسهم تتشوّف إلى اتّباع ريموند في سيره شمالاً من أجل دعم حملته، أو ربّما كانوا يبحثون عن سبيلٍ للخلاص. وحالما أغلقت الطريق إلى قرية حطّين مرّة أخرى، بدا لهم بدهة إقامة موقعٍ دفاعيٍّ عند قرن حطّين الشماليّ الأقرب (وإن كان منخفضاً). كانت الرّوح المعنويّة آنئذٍ قد انهارت؛ إذ رفض المُشاة الذين على قرن حطّين النّزول ثانية؛ لينضمّوا مرّة أخرى إلى من تبقى من الفرسان الصليبيين الرّاضين حول الخيام الثلاث المنصوبة. في هذه الغمرات أسقط رماة المسلمّين جياد الفرسان التي كانت غير محمية تقريباً، حتّى صار معظم فرسان الصليبيين يُقاتلون أيضاً وهم راجلون. [30]

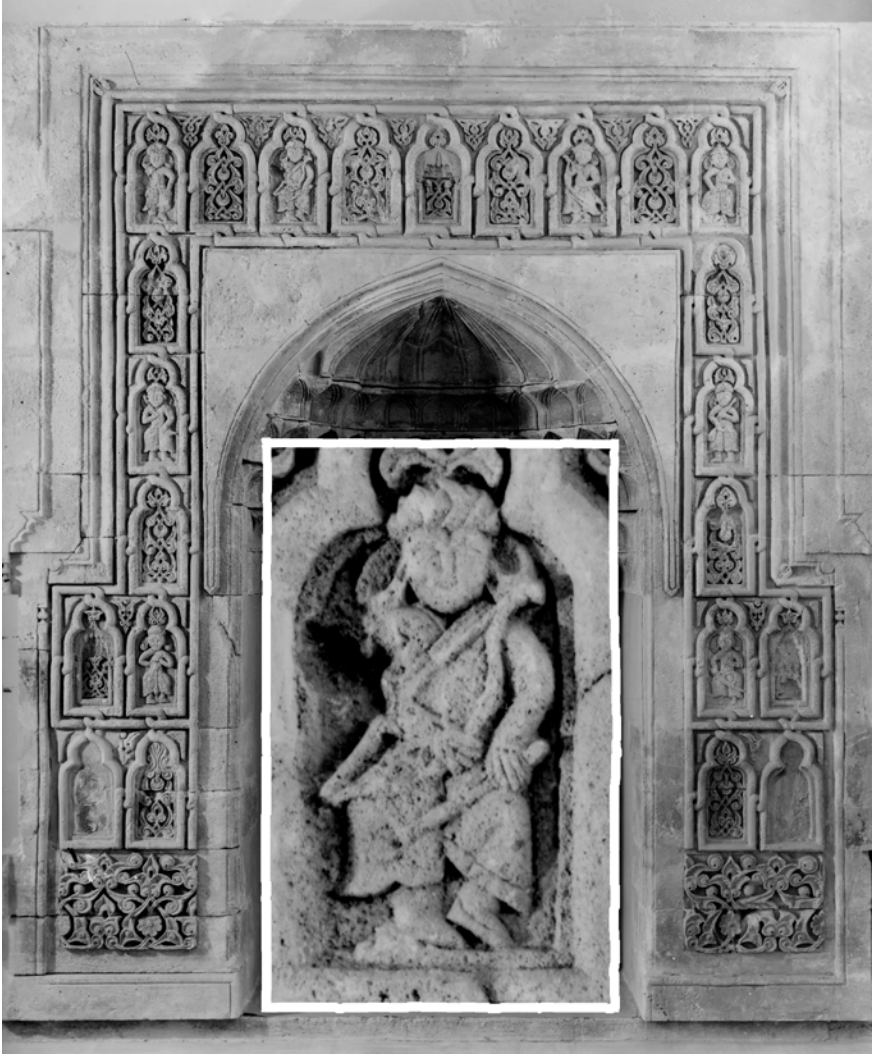
لم يكُ هنالك أيُّ شيءٍ يفعله الملك جي إلا أن يأمر جيشه بالتّوجّه بأسره إلى قرون حطّين ويتسّمها. وهنالك يُقال إنّ الفرسان قد اتّخذوا موضعاً على القرن الجنوبيّ الأطول - لكنّه ذات قيمّة منبسطة - إذ نُصبت عليه أيضاً الخيمة الملكيّة الحمراء فاقعة اللون. لا يُعرف بالضبط الوقت الذي غنم فيه المسلمون أقدم بقايا المسيحيين،

٥٣ قرية تقع بمنطقة الجليل شمالي فلسطين، على بُعد 5,5 كم من بحيرة طبريّة. سُميت بهذا الاسم لاشتهارها في الماضي بكثرة الحَمَام واليَمَام. (المترجم)

٥٤ قلت: مات بصور كمداً؛ فكان كما قيل:

رَاحَ يَبْغِي نَجْوَةً مِنْ هَلاكِ فَهَلَكْ

يُنظر: الروضتين 3: 324؛ مفرج الكروب 2: 208. (المترجم)



شكل 28 كُوَّةُ عرشِ ترجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر، عُثِرَ عليها في الحان في تلال سنْجار. (المتحف الوطني العراقي، بغداد)

[30] وهو صليب الصَّلْبوت<sup>٥٥</sup>، يَبْدَأُ أَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّ مَنْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ هِيَ فِرْقَةٌ تَقِيّ الدِّينِ. وقد كان لخسارته تأثيرٌ كارثيٌّ في معنويات الصَّلبيين؛ فانسلَّ المسلمون عندئذٍ على قُرون حِطّين من كُلِّ حَدَبٍ. كانت المنحدرات الشماليّة والشرقيّة وعرّةً ومنحدرّةً جَدًّا على الفرسان؛ لذا تدافع جُنْدُ المسلمين - وهم راجلون - مُهاجِمين مُشاةَ العدوِّ على القَرْنِ الشمالي من المُؤخِّرة. وبحلول الظهيرة كان القَرْنُ الشمالي قد استولى عليه؛ ومن ثَمَّ أمر صلاح الدِّين تَقِيّ الدِّين بالحملة على فرسان الصَّلبيين وغيرهم ممَّن كانوا اتَّخذوا لأنفسهم قَاعِدَةً أُخيرةً على القَرْنِ الجنوبيّ. [31]

كان المنحدر الجنوبيّ من القَرْنِ الجنوبيّ وعرًّا أيضًا، لكنّه لم يكُ بالذي يعجز الفرسان. ويبدو أنّ صلاح الدِّين كان وقتئذٍ يراقب هذا القطاعَ بنفسه، لذا ربّما قاد تَقِيّ الدِّين عساكره إلى المنحدر الغربي السهل فيرتقى، المؤدّي إلى الجسر الواقع بين قُرون حِطّين. لم يُهزَم الصَّلبيون بعدُ؛ لذلك شنَّ الفرسان عددًا من الحملات المُضادّة، فكانت إحداها أدنى من صلاح الدِّين من القاب إلى القوس. فرُبّما كان الصَّلبيون ييغون قتل السُلطان؛ ومن ثَمَّ يقلبون الأمور رأسًا على عَقِبٍ. كرَّر فرسان المسلمين كرّتين على المنحدر حتّى سيطروا على الجسر الواقع بين قُرون حِطّين. وسقطت الخيمة الملكيّة الحمراء بأخرة؛ إيدانًا بانتهاء معركة حِطّين. لقد كان قتالًا وحشيًّا، خلَّف خسائرَ جسامًا في كلا الطرفين. مع ذلك، كان مُشاة الصَّلبيين وحيادُ فرسانهم أكثرَ مَنْ عانى. يَبِينُا ترَجَلت أعدادٌ غفيرةٌ من الفرسان عن سهوات جيادهم - وقد هدّهم الإعياءُ هَدًّا - لِيُؤسروا، تُشير رواياتٌ إسلاميّةٌ إلى أن ما أُخذَ من خيل العدوِّ كان قليلًا جدًّا. <sup>٥٦</sup> [31]

٥٥ الصَّلِبُ الأعظم أو الحقيقيّ، ويذكرُ أنّ فيه قطعةً من الخشب التي صلَّبَ عليها المسيح ﷺ بزعمهم، وغُلِّف بالذهب الأحمر وكُلِّل بالدُرِّ والجَوْهر، أُعدَّ ليوم الحرب ولموسم العيد. (الكامل 11: 535؛ مرآة الزمان 21: 317؛ الروضتين 3: 287). ونُقِلَ هذا الصَّليبُ إلى جزيرة قُبْرص بعد إجلاء الفرنج عن بلاد الشَّام، ثُمَّ استولى عليه المُسلمون في عهد السلطان المملوكي بَرْسباي، عند فتحهم لهذه الجزيرة في العام 829هـ = 1426م، على أنّه بقِيّ بتلك الجزيرة، ورآه هناك أحدُ الرِّحالة الأوربيين سنة 894هـ = 1488م. يُنظَر:

M. Moustafa Ziada, *The Mamlūk Conquest of Cyprus in the 15th. Century*, (Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, Egyptian University, Cairo, vol. I, Part 1, 1933), p. 102. (المترجم)

## 3 استِثْمار النَّصْر

ما عتَمَّ صلاحُ الدِّينِ أنْ أخبرَ الجميعَ بنصره، لا سيَّما الخليفةَ العبَّاسيَّ<sup>٥٧</sup> في بَغداد. فأوجز رسالته إلى الخليفة بتلكم الكلمات: [31]

”فأخذَ الملكُ أسيراً ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَمِيرًا﴾<sup>٥٨</sup>، وأسيرَ الإبرنسُ [رينالد دي شاتيون] – لعنه الله – فحصدَ بَدْرَه، وقتله الخادِمُ [أي صلاح الدِّين] بيده ووفى بذلك نَدْرَه، وأسيرَ جماعةً من مُقدَّمي دَوْلته وكُبراء ضلالتِه، وكان القتلى تزيدُ على أربعين ألفًا، ولم يبقَ أحدٌ من الدَّاويَّة، فلهه هو من يومٍ تصاحب فيه الدُّثْبُ والنَّسْرُ، وتداول فيه القتلُ والأسْرُ. وبات الكُفَّارُ فيه مُقرَّنين في الأصفاد، مُمتطينَ الأَداهِم، إلاَّ أنَّها غيرُ المُطَهَّمة الجِياد“<sup>٥٩</sup>. [31]

في الوقت الذي كانت فيه عساكرُ صلاح الدين مُنتشبةً بالنَّصر، انتفع من زَخَم حملته؛ ليستعيد أكبرَ قدرٍ مُمكنٍ من الإمارات الصَّليبيَّة قبيلَ زمهرير السَّناء؛ إذ يُضطرُّ فيه عادةً إلى إنهاء الحملة. ولَعَمري لقد ساعده في القيام بذلك أنَّ معظم مُقاتلي مملكة بَيْت المَقْدِس قد كانوا مع جيش الملك جِي بمعركة حِطِّين. فكان أكثرُهم ما بين قتيلٍ، وأسيرٍ، ومُشرَّدٍ. وعادت قِلَّةٌ إلى ديارها في الوقت المُناسب؛ ليؤدوا دورًا كبيرًا في الدِّفاع عن قلاع المملكة وبلداتها ومدنها المُحصَّنة. لم يُسجَلْ شيءٌ عن مصير هذه الأماكن في حالاتٍ كثيرة. لقد سقطتْ دُونما صعوبةً؛ ومن ثمَّ يرد بعد ذلك في المصادر المكتوبة أنَّها كانت تضمُّ حامياتٍ إسلاميَّة. قد أضحَّت أيضًا

٥٧ هو الخليفة النَّاصر لدين الله (575–622هـ = 1179–1225م). له ترجمة في: مرآة الزمان 22: 274؛

مُختصر التاريخ لابن الكازرونِّي، ص245. (المترجم)

٥٨ سورة الفرقان: من الآية 26. (المترجم)

٥٩ Melville, C.P. and Lyons, M.C., 'Saladin's Hattin Letter' in Kedar, B.Z. (ed.), *The Horns of Hattin*, (Variorum: London & Jerusalem, 1992) p. 212.

قلتُ: والرَّسالة من إنشاء القاضي الفاضل. يُنظر: الروضتين 3: 313. وعبارة ”وبات الكُفَّار...“ لم ترد في ”الروضتين“؛ فطلبتُ من المُؤلِّف الأصل الذي اعتمد عليه فروندي به مشكورًا، وهو مخطوطة رقم (6024) بالمكتبة الأهلية بباريس. (المترجم)



شكل 29 قِمْتَا فُرُونِ حِطِّينَ، صورة التقطها المؤلِّف

مَهْمَةٌ صلاح الدِّينَ أيسَرَ بسبب أنَّ الشُّكَّانَ المحليين من المسلمين<sup>٦٠</sup> واليهود<sup>٦١</sup> انتفضوا ضد الصليبيين في أماكن عديدة. فعلى سبيل المثال أكره المتمرِّدون في منطقة نابلس مَنْ تبقَّى من الفرنج على دخول حصونهم، قبل أن تصل عساكر صلاح الدِّين<sup>٦٢</sup>. [32]

فضلاً عن الاستحواذ على أكثر الحصون غير المحمية تقريباً، وضع المسلمون أيديهم على غنائم وفيرة. ووافق أحد المصادر اللاتينية – وهو ”استيلاء صلاح الدِّين

٦٠ لمزيد بيان، راجع: ”أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099–1187م“ لمحمد فححي الشاعر، مصر، 1990م. (المترجم)

٦١ تواصلت مع المؤلِّف مُستفسراً، فأمدني بهذا الكتاب الذي استقى منه ما يُؤيِّد كلامه:

Joshua Prawer, *The Crusaders' Kingdom "European Colonialism in the Middle Ages"*, Praeger Publishers, New York – Washington, 1972, pp. 233–251.

قلت: يُنظر ”صلاح الدِّين واليهود“ لعطية القوصي، المجلة التاريخية المصرية، 1977م، المجلد 24؛ ”أوضاع اليهود وموقفهم في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية“ لرياض مصطفى شاهين، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، يونيو 2005م، العدد التاسع. (المترجم)

٦٢ الروضتين 3: 315–316. (المترجم)

على الأرض المقدَّسة“ (De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum) لمؤلِّفٍ مجهولٍ، شهد بأَمِّ عينه كثيرًا من هذه الحوادث - استولى العادلُ على كمياتٍ ضخامٍ من الآلات الحربيَّة بيافا.<sup>٦٣</sup> ليس من المُستغرب أن كانت معنويات المسلمين في عَنان السماء؛ إذ كان جيش صلاح الدِّين يتقدَّم نحو بَيْت المقدَّس. وكانت وحداتٌ من التُّركمان والمُتطوِّعة [32] من البدو في طليعة الجيش الرِّئيس تطوي المراحل طيًّا، وتسيح في سائر البلاد؛ فتأسِر عائلاتٍ ”إفْرنجيَّة“ بجبل الكرمل وصَيْدًا ويافا ولُدَّ والرَّملة وغيرها من البلاد. [34]

من المُحتَمَل، وتحسُّبًا لأيِّ حصارٍ قاسٍ ومَريرٍ، أرسل مهندسو الحصار في جيش صلاح الدِّين عساكرَ لَقَطع أَعْصان الرِّيتون وغيرها من الأَعْصان من أجل صُنْع زَرَّاب (Zaribas).<sup>٦٤</sup> وهذه لم تُكُن آلاَتٍ للحصار، بل ستائرٌ<sup>٦٥</sup> للدِّفاع عن الرُّماة أو المهندسين أو التَّقايين أو غيرهم من العساكر المتواجدين داخل نطاق رماية المُدافعين. يبدو أيضًا أنه كان ثَمَّ بعضٌ من غموضٍ حول قوَّة تحصينات بَيْت المقدَّس في العام 583هـ = 1187م. والآن يظهر أنه لم تكُ هُنَاكَ قلعَةٌ حقيقيَّةٌ في المدينة، وعوضًا عنها اشتمل بُرْج داود (Tower of David)<sup>٦٦</sup> على بُرْج هيروديان (Herodian Tower) الذي كان يُعدُّ أقوى أبنية بَيْت المقدَّس الدِّفاعيَّة منذ العصور الرُّومانيَّة. في تلْكُم الحال اندلع بعضُ القتال، وما فتى أن تفاوض صلاح الدِّين؛ كي تستسلم المدينة. علاوة على ذلك، لم يَكُن الأمرُ كذلك حتَّى العام 587هـ = 1191م، ففي غمرة التَّهديد الوشيك من قِبَل الحملة الصَّلبيَّة الثالثة قام صلاح الدِّين بترميم أسوار المدينة. ثَمَّ

٦٣ Anon, De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum, Libellus, edit. J. Stevenson (London, 1875) Rolls Series; vol. 66, pp. 226-243.

٦٤ أو Zarebas، مفردها الزَّريَّة، من أصلٍ عربيٍّ، وتُستعمل في السُّودان والدُّول المجاورة بمعنى سياج شائك يُحصَّن به مُعسكرًا أو قريةً. يُنظر:

Oxford Dictionary of English, edited by Angus Stevenson, Oxford University Press, 3rd, 2010, p. 2064. (المترجم)

٦٥ من أهمِّ آلاَت الحرب عند المُسلمين في العصور الوسطى، كانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخلِّ والشبِّ والنظرون لوقاية الحصون والقلاع والأسوار من قذائف النفط. (مفروح الكروب 2: 303هـ). (المترجم)

٦٦ تواصلت مع الدكتور الفلسطيني محمد هاشم غوشه؛ فبيَّن لي أن بُرْج داود هو قلعَةُ القُدس، ولا يزال قائمًا بجوار باب الخليل في القُدس القديمة. (المترجم)

حُفِرَ خَنْدَقٌ مَائِيٌّ جَدِيدٌ، بَيْنَا جُدِّدَتِ الْأَبْرَاجُ الواقعة بين بوابتي دِمَشَقٍ وَيَافَا. مُدُّ ذَلِكَ الْحِينَ لَمْ يَرِدْ ذِكْرٌ عَنْ آيَةِ قَلْعَةٍ<sup>٦٧</sup>؛ فَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ قَلْعَةٍ أَقَامَهَا الصَّلَيبِيُّونَ كَانَتْ إِبَّانَ احتلالهم الثاني القصير للمدينة ما بين سنتي 626-636هـ = 1229-1239م.<sup>٦٨</sup> وَإِنْ كَانَتْ تَوْجِدُ قَلْعَةً إِسْلَامِيَّةً مُبَكَّرَةً قَدْ أُحْقِتْ بُرْجُ دَاوُدَ-هَيْرُودِيَانَ الْقَدِيمِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، وَفَاقَ مَا يَقْتَرِحُهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْآثَارِ<sup>٦٩</sup>، فَيَبْدُو أَنَّهَا سَقَطَتْ وَلَمْ تُعَدَّ مُسْتَعْمَلَةً مَعَ حُلُولِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ. [34]

رَكَزَ صِلَاحُ الدِّينِ وَجَيْشُهُ فِي بَقِيَّةِ الْعَامِ 583هـ = 1187م عَلَى اسْتِعَادَةِ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنْ أَقَالِيمِ الْإِمَارَاتِ الصَّلَيبِيَّةِ. وَاتَّبَاعًا لِلتَّقَالِيدِ الْإِسْتِرَاتِيغِيَّةِ الرَّوَاسِخِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ إِبَّانَ الْعَصُورِ الْوَسْطَى، نَظَّفَ صِلَاحُ الدِّينِ أَسْهَلَ الْجِيُوبِ أَوَّلًا، وَتَجَنَّبَ الْمُوَاجَهَاتِ الَّتِي قَدْ تُبْطِئُ زَخَمَ حَمَلْتِهِ. وَبِذَلِكَ حَافِظٌ عَلَى كُلِّ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِ عَسَاكِرِهِ وَهَيْبَتِهِ، وَكِلَاهُمَا كَانَ ذَا أَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، لَا سَيِّمًا لِحَاكِمٍ جَدِيدٍ نَسَبِيًّا، ظَلَّ مَنْصِبُهُ عُرْضَةً لِاتِّهَامَاتِ اغْتِنَابِ السُّلْطَنَةِ. [34]

لَا بَدْعَ أَنْ بَحِثَ صِلَاحُ الدِّينِ عَنْ أَصْدِقَاءِ وَحُلَفَاءِ أَنِّي تَسَنَّى لَهُ ذَلِكَ. فَفِي لُبْنَانَ عَشَرَ عَلَيْهِمْ - وَدُونَ سَابِقِ مَعْرِفَةٍ - مِنْ بَيْنِ الدُّرُوزِ الشَّيْعَةِ الْمُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ كَانُوا حَرِيصِينَ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ عَلَى إِيجَادِ حَلِيفٍ قَوِيٍّ؛ بِسَبَبِ وَضْعِهِمُ الْهَشِّ كَجَمَاعَةٍ جَدِيدَةٍ، يُنْظَرُ إِلَيْهَا - فِي الْغَالِبِ - عَلَى أَنَّهَا مُبْتَدَعَةٌ. كَانَ الرَّعِيمُ الدَّرْزِيُّ الَّذِي يَسِيطِرُ

٦٧ وَمِمَّا يَنْسِفُ ذَلِكَ نَصُّ ذِكْرِهِ أَبُو شَامَةَ يَثْبِتُ فِيهِ أَنَّ قَلْعَةَ الْقُدْسِ كَانَتْ قَائِمَةً بَعْدَ الْفَتْحِ الصَّلَاحِيِّ مُبَاشَرَةً؛ إِذْ طَلَبَ رَيْشَارْدُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا عَشْرُونَ نَفَرًا مِنَ الْفَرَنْجِ، فَفَرَضَ صِلَاحُ الدِّينِ. (الروضتين 4: 313). (المترجم)

٦٨ يَشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَى تَسْلِيمِ السُّلْطَانِ الْأَيُّوبِيِّ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ مَدِينَةَ الْقُدْسِ إِلَى الْإِمْبَرَاتُورِ الْأَلْمَانِيِّ فِرْدْرِيكِ الثَّانِي، بَعْدَ عَقْدِ هُدْنَةٍ بَيْنَهُمَا لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسَةِ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، تَبَدَأَ مِنْ 28 رَيْبِ الْأَوَّلِ 626هـ = 24 شَبَاطِ 1229م. ثُمَّ أَخْلَى الصَّلَيبِيُّونَ بِشَرْطِ مِنْ شُرُوطِ الْهُدْنَةِ، وَهُوَ أَنْ يَبْقَى الْقُدْسُ خَرَابًا، وَلَا يُجَدَّدُ فِيهِ عِمَارَةٌ أَصْلًا؛ فَبَنَوْا قَلْعَةً فِي غَرْبِيَّةِ، وَجَعَلُوا بُرْجَ دَاوُدَ مِنْ أَبْرَاجِهَا، وَكَانَ هَذَا الْبُرْجُ قَدْ سَلِمَ مِنَ الْهَدْمِ حِينَ أَمَرَ الْمُعْظَمُ عَيْسَى بِتَخْرِيْبِ أَسْوَارِ الْقُدْسِ فِي الْعَامِ 616هـ = 1219م، ثُمَّ هَدَمَ النَّاصِرُ دَاوُدَ هَذِهِ الْقَلْعَةَ وَالْبُرْجَ فِي الْعَامِ 637هـ = 1239م. لِلْإِسْتِزَادَةِ رَاجِعْ: مَفْرَجُ الْكُرُوبِ 4: 32، 243؛ 5: 246-347؛ السَّلُوكُ 1/1: 268؛ "مَا بَعْدَ صِلَاحِ الدِّينِ" لِإِبْرَاهِيمِ الرَّيِّسِقِ، ص 138، 227-250، 343. (المترجم)

٦٩ ذَكَرَ لِي الْعَلَمَةُ الْفِلَسْطِينِيَّةُ غُوشَةُ أَنَّ قَلْعَةَ بَنِي أُمِّيَّةٍ هِيَ الْقَصُورُ الْأُمَوِيَّةُ الْوَاقِعَةُ جَنُوبِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَتُعْرَفُ بِدَارِ الْإِمَارَةِ، وَأَطْلَالُهَا ظَاهِرَةٌ لِلْعَيَانَ، وَقَدْ اكْتَشَفَتْ فِي الْعَامِ 1974م. (المترجم)

77

**R**ex nobilitatis defensor, recte generis, legi sue  
 et regni sui secundum iusticiam et equitatem: tam pauperum quam di-  
 uitum. Salhadunus rex Sarracenorum Babilonie, dulcissime  
 alexandrie, totius terre egypti fortunatus ioseph, pater quod  
 emirlemomelinus id est pater religiosus uirque imperatori mag-  
 nifico altissimo nobilissimo. f. in tanto anno amantissimo  
 amico. omnibus totius mundi domino iuxta cordis sui desiderium  
 omnibus imperatoribus regibus ac principibus rerum suarum felicissi-  
 mum ac beatum a deo euentum generis et nobilitatis sue uniu-  
 versorum quod possidetis et possidendam perpetuum gaudium longeuam  
 uitam cum gloria et honore in nomine domini amen. Gratias omnipotentem  
 refero qui ad agnitionem magnificentie eius et laudem nomi-  
 nis sui cor nostrum clarificauit et super omnibus beneficiis  
 que gratia eius nobis offerre dignata est ad glorificandum eum lin-  
 guam nostram edocuit. Literas maiestatis uestrae quas per  
 uirum nobilem sapientem ac discretum albericum militem et  
 legatum uestrum ianuentem nobis transmissistis cum summa  
 honorificentia presentibus baronibus nostris et terre nostre  
 magnatibus desiderantem receperunt. Quibus summo  
 intellectu die noctuque familiariter secreta super que in his  
 continebantur que ipse legatus nobis ex parte uestra intima-  
 uit consilium nostrum indefinenter habuimus. quod licet regna  
 nostre distantia corda nostra semoueret tamen cor nostrum  
 uestrae serenissime dilectioni statim colligatum fuit. Manda-  
 tum autem quod nobis mandastis ad auentum honoris regni nostri  
 precepto habemus quia per hoc credimus excellentiores esse  
 super omnes reges terrarum christianarum quam sarracenos. Unde astric-  
 tum uobis et unquam tenemus ut nunc a uoluntate et

رسالة باللاتينية بعثها صلاح الدين إلى الإمبراطور الألماني فيردريك الأول ببروسا في العام  
 584هـ = 1188م. (مكتبة برلين الحكومية - مؤسسة الإرث الثقافي البروسي، مخطوطات  
 العصور الوسطى، رقم 190، ورقة 77، برلين)

شكل 30

وقتئذٍ على حصن سرحمولى (Sarahmul) ٧٠ هو جمال الدين حجّبي، وقد كان والده كرامة حليفاً لنور الدين من قبل. كان حجّبي أصغر إخوته الأربعة، وكانت والدته الأرملة قد أخفته وهو في السابعة من عمره بعدما اغتال صليبيون من بيروت إخوته الثلاثة الكبار، وهدموا أيضاً حصن سرحمولى. كان حجّبي قد بلغ من العمر عشرين عاماً في العام 583هـ = 1187م، وهو يكاد يتميّز من الانتقام؛ لذلك عندما قدّم صلاح الدين لمهاجمة بيروت ذهب لمقابلة السلطان بخلدة ٧١. ويُعيد استسلام بيروت - وفاق رواية المؤرخ الدرزي [34] صالح بن يحيى - لمس صلاح الدين بيده رأس حجّبي، وقال له: "ها قد أخذنا ثارك من الفرنج؛ فطيب قلبك. وأنت مستور مكان أهلك وإخوتك" ٧٢. وبناءً على ذلك أصدر صلاح الدين منشوراً ٧٣ يثبت فيه القرى التي سوف يتكوّن منها إقطاع حجّبي. ٧٤ [35]

أسقط في يد صلاح الدين لما تزامن وصول كونراد دي مونفerrat (Conrad of Montferrat) ٧٥ على ساحل لبنان؛ إذ هنالك قدّم مساعدة عسكرية لرينالد صاحب

٧٠ كانت تُسمّى "سرحمور". وهي الآن قرية لبنانية من قرى قضاء عالية في محافظة جبل لبنان. (المترجم)

٧١ مدينة ساحلية جنوبي بيروت. (المترجم)

٧٢ كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأتراء البُخترين من بني الغرب، ص 51. (المترجم)

٧٣ توقيع رسمي (Official Certificate)، يُكتب فيه الإقطاعات، خاصّةً زمن المماليك، وكانت تُعرف بالتوقيع زمن الأيوبيين، والسجلات في عصر الفاطميين، وبالمقطاعات زمن العباسيين. (صبح الأعشى 13: 118-157). (المترجم)

٧٤ ونصّ المنشور: "الحمد لله، وبه توفيقى... بإجراء الأمير جمال الدين حجّبي بن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور، لما وصل إلى الخدمة السلطانية، وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفار - خذلهم الله - وهو ملكه وارثه عن أبيه وجدّه وهي: سرحمور، عين كسور، رَمْطون، الدوير، وطردلا، وعين درافيل، وفرار عم، وذلك حبساً منّا عليه واحتساباً إليه بمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المثار له... وكُتب بأرض بيروت في العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثلاثة وثمانين وخمسائة". (تاريخ بيروت، ص 51-52). (المترجم)

٧٥ أو الماركيس عند المؤرخين المسلمين، وهو لقب كان يُطلق على حكام مونفerrat. وعن الماركيس كونراد، يُنظر: ذيل وليم الصوري، ص 97-99؛

صَيِّدا (Reynald of Sidon)<sup>٧٦</sup> في صور. في الواقع، كان كونراد قد بدأ رحلته إلى الأرض المقدَّسة قُبَيْلَ بَدْءِ حملة صلاح الدِّين. كانت مُفَاوِضَاتُ الاستسلام ماضيةً قُدِّمًا بين رينالد صاحب صَيِّدا وصلاح الدِّين عندما ظهر كونراد بَعْتَةً وصور على شفا الاستسلام. فأوقفتْ آنثِدُ؛ ومن ثَمَّ قرَّر صلاح الدِّين ألا يُبَايِسَ حِصَارًا بطيئًا من دُونِ آيَّةِ ضمانةٍ لنجاحه. وَعِوَضًا عن ذلك سَرَّحَ نِصْفَ جيشه؛ كان العَسْكَرُ قد صَرِسُوا من القتال - يَبْدَأُ أَنَّهُمْ مُبْتَهَجُونَ بالنَّصْر - وَرُبَّمَا مُثْقَلِينَ بالغنائم، وأحرص - بلا شكَّ - على العودِ إلى ديارهم. وبالجملة، يرى المؤرِّخون العسكريون المُحدَثون أنَّ هذا كان قرارًا كارثيًا، غَيْرَ أَنَّ صلاح الدِّين في الحقيقة كان يتصرَّفُ بمُوجِبِ الإستراتيجية الإسلاميَّة المُقرَّرة في عصره. في الحقِّ، كان السُّلطان لا يزال خارجَ صور لَمَّا استقبل سَفَارَةً للتهنئة من الإمبراطور البيزنطيِّ إسحاق أنجيلوس (Isaac Angelus)، وكان صلاح الدِّين قد أرسل من قبلُ خبرَ انتصاراته إلى القسطنطينية. وفي المُقابِل، قدَّم له الشُّفراء البيزنطيون آلاتٍ حربيَّةً، كان إمبراطورهم أخذها من غُزاة صِقِلِّيِّين-نورمانيين دُجروا في اليونان في تلكم الأيَّام. [35]

ريثما استراحتْ عساكرُ صلاح الدِّين، استُدْعِيَتْ بعضُ الوحدات في ربيع العام ١١٨٨م (= 584هـ). وما تبع ذلك كان حملةً مثيرةً وجريئةً، تُلقِي مزيدًا من الضَّوء على أولويات صلاح الدِّين الإستراتيجيَّة. وقد حُلِّلت في أطروحةٍ أعدَّها جون وينثروب هاكيت (John Winthrop Hackett)<sup>٧٧</sup>، الذي صار - فيما بعد - أحد أنجح الجنرالات البريطانيين إبَّان الحرب العالميَّة الثانية.<sup>٧٨</sup> فاستشهد بقول المؤرِّخ

٧٦ أو رينو، هو رينالد جارنر صاحب صَيِّدا، وقد امتدَّت فترة حكمه لها من 567هـ = ١١7١م حتَّى

598هـ = 1202م. (ذيل وليم الصُّوري، ص 49هـ). (المترجم)

٧٧ يُطلَق عليه جون هاكيت الابن، كان يتحدَّث العربية، وأصيب أثناء الحرب العالميَّة الثانية أكثر من مرَّة، تُوِّفِّي في العام 1997م. (المترجم)

٧٨ Hackett, J.W., *Saladin's Campaign of 1188 in Northern Syria*, MS.B. Litt thesis, University of Oxford, 1937.



شكل 31 قلعة طرطوس، صورة التقطها المؤلف

عَمَاد الدِّين<sup>٧٩</sup> عن أَنطَاكِيَّة: ”وخرجت بإخراج حُصُونِهَا<sup>٨٠</sup> من ولايتها أرواحها“<sup>٨١</sup>. أوَّلَى هَاكِيَتْ فِي دِرَاسَتِهِ عَنَايَةً خَاصَّةً بِشَبْكَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَمَدِّدَةِ فِي شِمَالِ غَرْبِ بِلَادِ الشَّامِ، الَّتِي سَيَطَرَتْ عَلَيْهَا وَصَلَاتٌ شِمَالِيَّة-جَنُوبِيَّةٌ عَدِيدَةٌ، غَيْرَ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا يَمْتَدُّ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ. وَهَذَا جَرٌّ مُشْكِلَاتٍ خَطِرَةٌ عَلَى صِلَاحِ الدِّينِ؛ لِأَنَّ مَرَاكِزَ قُوَّتِهِ ظَلَّتْ هِيَ الْمَدَنُ الدَّاخِلِيَّةُ الْوَاقِعَةُ شَرْقِي الْجِبَالِ السَّاحِلِيَّةِ، بَيْنَمَا اسْتَنْدَتْ قُوَّةُ الْإِمَارَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ إِلَى مَدَنٍ سَاحِلِيَّةٍ يُمْكِنُ إِعَادَةُ تَمْوِينِهَا - دُونَ مَا شَكَّ - عِبْرَ الْبَحْرِ<sup>٨٢</sup>. [35]

إِنَّ الْحَمَلَةَ عَلَى طُولِ الشَّرِيطِ السَّاحِلِيِّ كَانَتْ تَعْنِي أَنَّ الْجِبَالَ تَوَسَّطَتْ بَيْنَ صِلَاحِ الدِّينِ وَالْمَدَنِ الدَّاخِلِيَّةِ. وَفِي هَذَا الْحَالِ كَانَتْ إِسْتِرَاتِيجِيَّتُهُ الْجَرِيئَةُ تَعْنِي أَنَّهُ لَا يَحِقُّ لَهُ تَرْكُ أَيِّ تَحْصِينَاتٍ خَلْفَهُ قَدْ يَسْتَعْمِدُهَا الْجَيْشُ الصَّلِيبِيُّ الْوَافِدُ حَدِيثًا<sup>٨٣</sup>. وَمِنْ ثَمَّ أَمْضَى ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ فِي الْإِشْرَافِ عَلَى إِخْرَابِ أَسْوَارِ مَدِينَةِ طَرطُوسَ، وَتَعْفِيَةِ الْجَزءِ الْخَارِجِيِّ<sup>٨٤</sup> الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنْ قَلْعَتِهَا؛ [35] لِيَجْعَلَهَا غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلدَّفَاعِ إِلَّا

٧٩ العِمَادُ الْكَاتِبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَامِدِ بْنِ آلِهِ الْأَصْفَهَانِيِّ (519-597هـ = 1125-1201م). و"آله" اسمٌ فَارِسِيٌّ مَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيِّ طَائِرُ الْعُقَابِ. لَهُ تَرْجَمَةٌ فِي: مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ 6: 2623-2628؛ الْكَامِلُ 12: 169؛ مِرَاةُ الزَّمَانِ 22: 119-120؛ التَّكْمَلَةُ لَوْفِيَاتِ النَّقْلَةِ 1: 392-393؛ الرَّوْضَتَيْنِ 4: 485-486؛ الْمُدَيْلُ عَلَى الرَّوْضَتَيْنِ 1: 112-113؛ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ 5: 147-152؛ سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 21: 345-350؛ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ 12: 1121-1126؛ طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ لِلشُّبْكِيِّ 6: 178-183. (الْمُتْرَجِمُ)

٨٠ يَقْصِدُ بِهَا جَبَلَةً، وَاللَّادِقِيَّةَ، وَصَهْيُونَ، وَبَكَاسَ، وَالشُّغْرَ، وَسُرْمَانِيَّةَ، وَبُرْزِيَّةَ، وَدَرْبَسَاكَ، وَبَغْرَاسَ. يُنْظَرُ: الرَّوْضَتَيْنِ 4: 31، 35، 39، 41. (الْمُتْرَجِمُ)

٨١ سَأَلْتُ الْمُؤَلِّفَ عَنِ التَّوْثِيقِ الدَّقِيقِ، فَأَمَدَّنِي بِهِ:

Hackett, J.W., *Saladin's Campaign of 1188 in Northern Syria* (MS.B. Litt. thesis, University of Oxford 1937), p. 24 (quoting Imad al-Din "Deux Jardins", p. 376).

قَلْتُ: وَنُظِرَ الْفَتْحُ الْقُسَيْيَّ، ص 259؛ الرَّوْضَتَيْنِ 4: 39-40. (الْمُتْرَجِمُ)

Hackett, *Saladin's Campaign*, pp. 28-30. ٨٢

٨٣ رَاجِعُ: "الْإِسْتِرَاتِيجِيَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ لِصِلَاحِ الدِّينِ" لِرَاجِيَةِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، سَلْسَلَةٌ دِرَاسَاتٍ عَنِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، مَرْكَزُ بَحُوثِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، جَامِعَةُ عَيْنِ شَمْسٍ، 1986م. (الْمُتْرَجِمُ)

٨٤ كَانَ لَطَرطُوسَ بُرْجَانٌ عَظِيمَانِ كَالْقَلْعَتَيْنِ، فَحَاصَرَ مُظْفَرَ الدِّينِ كُوكُبَرِي أَحَدَهُمَا وَمَلِكُهُ بِالْأَمَانِ، ثُمَّ أَخْرَبَهُ، بَيْنَمَا امْتَنَعَ الْبُرْجُ الْآخَرُ، وَكَانَ فِيهِ الدَّوَابَّةُ. (الْفَتْحُ الْقُسَيْيَّ، ص 230؛ النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ،

ص 142-143؛ الرَّوْضَتَيْنِ 4: 15). (الْمُتْرَجِمُ)

بعد إعادة إعمار ضخم. أراد صلاح الدين أيضًا أن ينتظر وصول قُوَّة كبيرة قادمة من حلب، بها عساكر مَهْرَة في أعمال الحِصار<sup>٨٥</sup>، قبل توسيع نطاق حملته في إقليم أكثر خطورة. وأبَت الطَّبِيعَةُ الْمُتَنَوِّعَةُ الْمُشْكِلَاتِ التي كان لِزَامًا على صلاح الدين التَّغَلُّبُ عليها إِلَّا أَنْ تُخْرَجَ أعناقُهَا عبر الشَّوَانِي الصَّلِيبِيَّةِ، التي استطاعت أن تقترب من السَّاحِلِ، وأخذ رُمَاتُهَا في رَشَقِ عساكر المسلمين؛ لِأَنَّهَا كانت تسيِّرُ على امتدادٍ واحدٍ بِمُوازاة الطَّرِيقِ السَّاحِلِيَّةِ.. فوق ذلك، كانت التَّلَالُ المُجَاوِرَةُ شَاهِقَةً وَلَا تُرْتَقَى؛ حَتَّى إِنَّ جيش صلاح الدين لم يستطع أن يتحرَّكَ إلى المناطق الدَّاخِلِيَّةِ. فكان الرَّدُّ الوحيد قيام طلائع صلاح الدين بإقامة مِتْرَاسٍ مُؤَقَّتٍ<sup>٨٦</sup> على مُوازاة الجانب المُوَاجِه للبحر من الطَّرِيقِ، وتولَّى الذُّودُ عنه رُمَاةٌ يُصَوِّبُونَ سِهَامَهُمْ نحو سُفْنِ العَدُوِّ.<sup>٨٧</sup> [36] انطوت هذه الحملة على عددٍ من الحِصَارَاتِ، وكان من أَكثَرِهَا إثارة للاهتمام حِصَارُ حِصْنِ صِهْيُونِ<sup>٨٨</sup> الصَّلِيبِيِّ في جُمَادَى الأُولَى 584هـ = يوليو 1188م. وحدَّد هَاكِيت - بتَجْوَالِهِ فِي الأَرْضِ، وبِاسْتِخْدَامِهِ عَيْنِ عَسْكَرِيَّةٍ مُدْرَبَةٍ - مِنطَقَةً مَحْجُوبَةً فِي الجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ أَحَدِ الأَبْرَاجِ الرَّئِيسَةِ؛ إِذِ اسْتَطَاعَ العَسْكَرُ أَنْ يَتَجَمَّعُوا فِيهَا وَهُمْ آمِنُونَ نَسْبِيًّا قَبْلَ شَنْ هَجُومِهِمْ.<sup>٨٩</sup> فِي الوَاقِعِ، أَشَارَ المُؤَرِّخُ عِمَادُ الدِّينِ إِلَى: "قُرْتَةُ<sup>٩٠</sup> خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ<sup>٩١</sup> مِنَ الخَنْدَقِ، لَمْ تُحْكَمْ عِمَارَتُهَا" بِحِصْنِ صِهْيُونِ. على صعيدٍ آخَرَ،

٨٥ كانوا بقيادة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وكان قد استصحب معه المنجنيقية والجرخية والجاندارية والخراسانية والحدادين والحجارين والتجارين. (الروضتين 4: 27). (المترجم)

٨٦ أمر صلاح الدين بنقل الجفاتي، وتصنيفها، وتكثير ستاتها، وأجلس الرُماة من ورائها. (الروضتين 4: 18). (المترجم)

٨٧ الروضتين 4: 18. (المترجم)

٨٨ حصن لإسبنازية من أعمال سواحل بحر الشام (= البحر المتوسط)، من أعمال جنص، لكنّه ليس بمُشْرِفٍ على البحر، وهو مكينٌ في طرف جبلٍ، خنادقه أودية واسعة هائلة عميقة، ليس له خندقٌ محفورٌ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَسْوَارٍ: سوران دُون مَرِبِضِهِ، وَسُورٌ دُون قَلْعَتِهِ. (معجم البلدان 3: 436-437؛ الكامل 12: 9؛ النوادر السلطانية، ص 146؛ مرآة الزمان 21: 354؛ مفرج الكروب 2: 261). (المترجم)

Hackett, *Saladin's Campaign*, p. 50. ٨٩

٩٠ القُرْتَةُ: الراوية. يُنظَرُ: "القاموس المحيط"، (قرن). (المترجم)

٩١ أي الفُرْنَجِ. (المترجم)



شكل 32 سلطانية مصرية مصنوعة من الخزف المتألي، ترجع إلى القرن الثاني عشر. (متحف فكتوريا وألبرت، لندن)

كان مؤرِّخون مسلمون في بعض الأحيان يُبالغون في وعورة الطرق المُوصَّلة إلى هذه القلاع الصَّليبيَّة؛ كي يُبرزوا مُعجزة فتحها المُحتمَل. ٩٢ [36]  
سقط حصنُ صِهْيُونُ بأخْرة في الثاني من جُمادى الآخرة 584هـ = التاسع والعشرين من يوليو 1188م. ثُمَّ في الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة = الحادي والعشرين

من أغسطس أقام صلاح الدين مُعسكرَه على أرضٍ مرتفعةٍ غربي قلعة حصن بَرزِيَه (Barziya) <sup>٩٣</sup> التي أطلق عليها الصليبيون "بُورزاي" (Bourzay). <sup>٩٤</sup> فشل قصفُها؛ لأنَّ تضاريس الأرض حَبَّتْها مَزِيَّةٌ كبيرةٌ جعلت أحجارَ المجانيق لا تُؤثِّر فيها؛ لذا قرَّر صلاح الدين أن يستفيد من تفوُّقه العدديّ لإزهاق العدوِّ واستغلال طول أسوار حصن بَرزِيَه. وهذا نتج عنه سِلْسِلَةٌ من الهجمات الصغيرة نسبياً في أماكن مُختلفةٍ طول حرارة النَّهار. <sup>٩٥</sup> وبعد اللَّتيا والتي جعلت صبحات النَّصر التي صدَّح بها الأشرى المسلمون المُحتجرون داخل سجن القلعة، المُدافعين الصليبيين المُنهكين يعتقدون أنَّ العدوَّ قد دخل عَنوةً؛ لذلك استسلموا. <sup>٩٦</sup> وهذا الحصار الاستثنائي يمكن عَدُّه مثلاً واضحاً على الحرب النَّفسية النَّاجحة. [36]

كانت هناك حصاراتٌ كثيرةٌ - وقاسيةٌ للغاية في بعض الأحيان - قبل أن يصل جيشُ صلاح الدين في الثاني من سَعْبان = السابع عشر من سبتمبر أمام أسوار قلعة بَغْرَاس (Baghras) <sup>٩٧</sup> الضخمة المُشيَّدة من حجارةٍ سُودٍ. وهنا اتَّبَع الطَّرِيقَةَ المُحدَّدة في الكُتَيْبات الحربيَّة الإسلاميَّة الأصيلَّة في ذلك الوقت، وهو إرساله عساكر مُسلَّحة تسليحاً خفيفاً أمامه لتطويق المكان قبل وصول جيشه الرَّئيس. لذا كانت تسعة أيَّامٍ من الحصار كافيةً لإقناع المُدافعين بالاستسلام، لكن وبدلاً من البقاء في مُهاجمة أنطاكية، ومن ثَمَّ القضاء على الإمارة التي تحمل اسمها، عقَّد [36] صلاح الدين

٩٣ أو بَرزُوِيَه أو بَرزِيَه - وبَرزِيَه عند العامَّة - حصنٌ قُرب السَّوَاجل الشَّاميَّة على سِنِّ جبلٍ شاهقٍ، شرقي نهر العاصي، يُضربُ به المثلُ في جميع بلاد الفِرْنج بالحصانة، تحيط به أوديةٌ من جميع جوانبه. (معجم البلدان 1: 383؛ النوادر السلطانية، ص 148؛ الروضتين 4: 32؛ مفرج الكروب 2: 265). (المترجم)

Hackett, *Saladin's Campaign*, p. 63-65. ٩٤

٩٥ فرَّق صلاح الدين عساكره ثلاث فِرَقٍ، فتناوبوا على القتال زحفاً؛ ليُعيبوا مَنْ في القلعة. (الفتح القسِّي، ص 248-254؛ النوادر السلطانية، ص 148-149؛ الروضتين 4: 32-34؛ عقد الجمان 2: 102-103). (المترجم)

Hackett, *Saladin's Campaign*, p. 65. ٩٦

٩٧ مدينةٌ في لِحْفِ جَبَل اللُّكام، على يمين القاصِد إلى أنطاكية من حَلَب، وبها قلعةٌ منيعةٌ للدَّاويَّة، أقرب إلى أنطاكية من دَرَسَاك. (معجم البلدان 1: 467؛ النوادر السلطانية، ص 150؛ الروضتين 4: 40-41؛ الأعلام الخطيرة 2/1: 411؛ مفرج الكروب 2: 268). (المترجم)

هُدْنَةٌ.<sup>٩٨</sup> كانت هذه الهُدْنَةُ حَبِيَّةَ أَمَلٍ للكثيرين في الشرق الأوسط الإسلامي، بَيَدَ أَنَّهَا أظهرت أَنَّ جيش صلاح الدين - ورُبَّمَا خِزَانَتَهُ أَيضًا - استُنزِفَ تقريبًا. كان النِّظَامُ المُتَّبَعُ هو التَّرَاجُعُ لِأَسَابِيحٍ؛ لِأَنَّ الجنودَ النِّظَامِيِّينَ أَرَادُوا العُودَةَ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَالاعْتِنَاءَ بِإِفْطَاعَاتِهِمْ. وَأَرَادَ المُتَطَوِّعَةُ - مِثْلَهُمْ مِثْلَ العَسَاكِرِ النِّظَامِيَّةِ - العُودَةَ إِلَى حَقُولِهِمْ أَوْ أَعْمَالِهِمْ. فَمِنَ الوَاضِحِ أَنَّ سُلْطَةَ صلاح الدين كان لها حَدُودٌ، وَسُوفَ يَتَجَلَّى ذَلِكَ أَيَّمَا تَجَلَّى فِي قَابِلِ السَّنِينَ. [37]

#### 4 عراقيلُ النَّصْرِ

أضحى وَضْعُ صلاح الدين الإستراتيجيُّ أَكْثَرَ صَعُوبَةً فِي العَامِ 585هـ = 1189م، مَعَ أَنَّ الأُمُورَ بَدَتْ فِي الأَوَّلِ وَكَأَنَّهَا سَتَبْقَى عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ. فِي رِيْعِ الأَوَّلِ = أَوَائِلِ مَايو وَصَلَتْ أَخْبَارٌ عَنِ أَخْذِ قَلْعَةِ الشَّوْبَكِ (Shawbak) فِي إِقْلِيمِ مَا وَرَاءَ نَهْرِ الأُرْدُنِّ<sup>٩٩</sup>، وَهَذَا كَانَ يَعْنِي أَنَّ صلاح الدين قَدِ اسْتَرَدَّ جَمِيعَ مَمْلَكَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ الصَّلِيبِيَّةِ، بِاسْتِثْنَاءِ مَدِينَةِ صُورِ السَّاحِلِيَّةِ وَحِصْنِ وَاحِدٍ مُجَاوِرٍ هُوَ شَقِيفُ أَرْنُونِ (Shaqif Arnun).<sup>١٠٠</sup> أَمَّا فِي الشَّمَالِ فَاسْتَعَادَ كُلَّ إِمَارَةِ أَنْطَاكِيَّةِ إِلاَّ مَدِينَةَ أَنْطَاكِيَّةِ نَفْسِهَا وَحِصْنَ القُصَيْرِ (al-Qusair).<sup>١٠١</sup> فِي المُقَابِلِ، فَقَدَتْ كُونْتِيَّةَ طَرَابُلُسِ مِنْطَقَةً

٩٨ كانت مُدَّةُ هذه الهُدْنَةِ ثمانية أَشْهُرٍ مِنْ تَشْرِينَ الأَوَّلِ إِلَى انْقِضَاءِ أَيَّارٍ. وَعِنَهَا، يُنْظَرُ: الفَتْحُ القُسِّيُّ، ص 260-261؛ النُودَارِ السُلْطَانِيَّةِ، ص 151؛ الرُوضَتَيْنِ 4: 43-44؛ عَقْدُ الجَمَانِ 2: 104-105. (المترجم)

٩٩ النُودَارِ السُلْطَانِيَّةِ، ص 155؛ الرُوضَتَيْنِ 4: 68. (المترجم)

١٠٠ يُعْرَفُ أَيضًا بِحِصْنِ الشَّقِيفِ (Belfort, Beaufort)، وَهُوَ حِصْنٌ مَنِيْعٌ جَدًّا فِي كَهْفٍ مِنَ الجَبَلِ، قَرِبَ بَانِيَّاسَ بِجَنُوبِ لُبْنَانَ. وَالشَّقِيفُ كَالكَهْفِ، كَلِمَةٌ أَرَامِيَّةٌ سُريَانِيَّةٌ تَعْنِي المَغَارَةَ وَالكَهْفَ وَالصَّخَرَ الشَّاهِقَ المُشْرِفَ، أَضِيفَ إِلَيْهِ أَرْنُونُ، وَهُوَ اسْمُ رَجُلٍ، إِمَّا رُومِيٌّ وَإِمَّا إِفْرَنْجِيٌّ. فَتَحَهُ صلاح الدين فِي العَامِ 585هـ = 1189م، ثُمَّ سَلَّمَهُ الصَّالِحَ إِسْمَاعِيلَ - ابْنَ أَخِيهِ العَادِلِ - هُوَ وَحِصْنَ صَفَدَ إِلَى الفَرَنْجِ سَنَةَ 638هـ = 1240م مُقَابِلَ أَنْ يَسَاعِدُوهُ ضِدَّ الصَّالِحِ أَيُّوبَ بْنِ الكَامِلِ. (مُعْجَمُ البُلْدَانِ 3: 356؛ مَرَاةُ الزَّمَانِ 22: 381؛ المُدَيْلِ عَلَى الرُوضَتَيْنِ 2: 54؛ مَفْرَجُ الكُرُوبِ 2: 289-290؛ 5: 301؛ كَنْزُ الدَّرَرِ 7: 347). (المترجم)

١٠١ تَصْغِيرُ قَصْرِ، وَهُوَ حِصْنٌ فِي جَبَلِ النُّصَيْرِيَّةِ جَنُوبِي أَنْطَاكِيَّةِ، كَانَ الفَرَنْجِ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ كُورْزَاتِ (Cursat)، فَتَحَهُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ فِي العَامِ 674هـ = 1275م. (رِحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ 1: 285). (المترجم)



شكل 33 تمثال برونزي صغير لأحد الفرسان عُثِرَ عليه في إيران، يعود إلى القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفن الإسلامي، القاهرة)

صغيرة؛ لهذا قرّر صلاح الدّين وقتئذٍ أن يُوليها اهتمامه. لم تتمّ الحملة المُقرّرة في تلكم الحال؛ لأنّ صلاح الدّين لم يستطع أن يُقاوم الفرصة السّانحة، المُتمثّلة في استرداد حصن شقيف أرّنون الإستراتيجيّ، وهو حصن رينالد صاحب صيدا، وكان الصّليبيون يُطلّقون عليه "بوفور: الحصن الجميل" (= Beaufort). [37]

كان رينالد صاحب صيدا قد فرّ من كسرة حطّين. فاستعمل حينئذٍ طلاقته في تحدّث اللّغة العربيّة ومعرفته بالإسلام<sup>١٠٢</sup>؛ ليُقيم علاقةً مع صلاح الدّين تُكلّلها الثّقّة. مع ذلك، تُوضّح هذه الواقعة أيضًا شيئًا من سداجة صلاح الدّين، وقد ألمع إليها بعد ذلك المؤرّخ العربيّ العمريّ<sup>١٠٣</sup>:

إنّ معرفته بالأدب العربيّ، واهتمامه بالإسلام جعلًا صلاح الدّين يستمع إليه. بل إنّ رينالد ألمح إلى أنّه قد يستقرّ في دمشق بعد اعتناقه الإسلام. وقال إنّهُ مُستعدٌّ لتسليم حصنه، لكنّه طلب ثلاثة أشهر؛ كي يفرغ من شؤونهِ.<sup>١٠٤</sup> ولمّا انقضت هذه المُدّة، أخذ رينالد تحت الحوطة [37] إلى الحصن، فأمر فائد الحامية بالتسليم باللّغة العربيّة، وبالمقاومة بالفرنسيّة.<sup>١٠٥</sup> فلم يأخذه العرب، وزجّ برينالد في سجنٍ بدمشق. وترك صلاح الدّين أمراءه يلازمون الحصار في الصّيف والشتاء، إلى أن استسلم الحصن بعد سنة. فسامح صلاح الدّين رينالد على خداعه، وأطلقه.<sup>١٠٦</sup> [38]

- ١٠٢ النوادر السلطانية، ص155؛ الروضتين 4: 67؛ مفرج الكروب 2: 282-283. (المترجم)
- ١٠٣ القاضي شهاب الدّين أحمد بن يحيى بن فضّل الله العمريّ؛ نسبة إلى عبد الله بن عمّار بن الخطّاب، المتوفّى سنة 749هـ = 1349م ولم يبلغ تُخوم الحَمَسين. ترجم له صديقه الصّفديّ ترجمةً ضافيةً في: الوافي بالوفيات 8: 252-270. (المترجم)
- ١٠٤ وهي تخلص أهله من مدينة صور الخاضعة آنئذٍ للمركيس. (النوادر السلطانية، ص155؛ نهاية الأرب 28: 413؛ عقد الجمان 2: 116). (المترجم)
- ١٠٥ طلب رينالد قسيّسا ذكره؛ ليحمّله رسالةً إلى مَنْ بالحصن ليُسَلِّموه، فأحضره عنده، فسارّه بما لم يعلموا، فمضى ذلك القسيّس إلى الحصن، فأظهر مَنْ فيه العصيان. (الكامل 12: 28؛ النوادر السلطانية، ص162؛ مفرج الكروب 2: 290). (المترجم)
- ١٠٦ Al-'Umari, Sihab al-Din (tr. E.R. Lundquist), *Saladin and the Crusaders* (Lund, 1992) p. 34. قلتُ: يُظنّ مسالك الأبصار لابن فضّل الله العمريّ 27: 100، (تحقيق أستاذي الدكتور محمد كمال الدّين عز الدّين). وحقّق بالذّكر أنّ الخبر قد ورد فيه مُختصرًا؛ فأعياني البحث، فطلبتُ



شكل 34 ذخيرة من الحجارة تُرمى من منجنيق، عُثِرَ عليها في قلعة صلاح الدين خارج عجلون. متحف قلعة عجلون، صورة التقطها المؤلف

شهد العام 584هـ = 1188م قيام ليفيف من كبار الملوك الأوربيين الغربيين "من أجل أخذ الصليب"<sup>١٠٧</sup>، وتعهّدوا بقيادة حملة صليبيّة جديدة ضخمة لاستعادة الأرض المقدّسة (يُنظر Campaign 161: *The Third Crusade 1191*). سرعان ما كان صلاح

من المؤلف مُساعدةً، فأرسل إليّ الكتاب مشكورًا، فتبيّن بعد السبر والتنقير أنّ ما أورده بالمتن هو تعليق الباحثة السويدية إيفا روده لوندكويست (ت. 2010م) - مُترجمة الحوادث الخاصّة بصلاح الدين والصليبيين استنادًا إلى كتاب العُمريّ 583-589هـ = 1187-1193م - اعتمدت فيه على أبي شامة (الروضتين 4: 66-70) الذي نقل روايتي العماد الكاتب (الفتح القسّي، ص 285-288)، وبهاء الدين (النوادر السلطانية، ص 155)؛ فظنّ المؤلف أنّ تعليقها من رواية العُمريّ فنسبه إليه. يُنظر تعليقها:

(المترجم). Al-Umari, *Saladin and the Crusaders*, p. 98, footnote (22).

١٠٧ تعبير شائع يعني الموافقة على القيام بحملة صليبيّة. (المترجم)



شكل 35 رُمانات خزفية صغيرة. متحف قلعة عجلون، صورة التقطها المؤلّف

الدِّين مُحِيطًا بهذا، وبأنَّ الوَحْدَةَ الأوَّلَى من هذه الحملة الصَّلِيبِيَّة الثالثة انطلقت تحت قيادة فِرْدْرِيك إِمْبْرَاطور أَلْمَانِيَا (Frederick of Germany) في ربيع الأوَّل 585هـ = مايو 1189م. وطول الأَسَابِيع الأوَّلَى من شهر يونيو (= ربيع الآخِر) من ذلك العام، حاولت قُوَّاتٌ من مدينة صُور - الجزء الأخير المُتَبَقِّي من مملكة بَيْت المَقْدِس - استرداد صَيْدَا، لكن في غير طائِلٍ. مع ذلك، شهدت بواكِبِر الصَّيْف أيضًا وصول أسطول من بيزا (Pisa) - الجمهورية الإِيطَالِيَّة الجامعة بين الأختين: التِّجَارَة والحرب - لدَعْم الجَيْب الصَّلِيبِيِّ بِصُور. [38]

لم يكُ صلاح الدِّين بالرُّجُل الذي يجلس مُنتظرًا ما تتمخَّضُ عنه الأحداثُ. فبرُغم أنَّه لم يكن في وضع يسمح له بشنِّ حصارٍ كاملٍ على صُور، انخرطت عساكرُه في مُناوِشاتٍ، وهو أمرٌ يُوضِّح كُلاً من تكتيكات جيش صلاح الدِّين وقِيوده التكتيكيَّة. ثُمَّ قاد الملكُ جِي على جِيْن غِرَّة قُوَّتَه الصَّغِيرَة من صُور؛ لِإِحْصَارِ الحامية التي وَضَعها صلاح الدِّين في عكَّا. فكان هذا بَدَأَةً لِأحد أطول وأعظم الحصارات في تاريخ الحروب الصَّلِيبِيَّة. وأصبحت هذه الحملة الاستثنائيَّة أكثر تعقيدًا عندما تحرَّك صلاح الدِّين ضدَّ جِي؛ إذ حاصرَ المُحاصِرِين في منتصف رَجَب = الخامس عشر من سبتمبر، ولم يبلغ هذا الحِصار المزدوج أَجَلَه إلَّا لَمَّا سقطت عكَّا بأيدي قُوَّات الحملة الصَّلِيبِيَّة الثالثة في السابع عشر من جُمادى الآخِرَة 587هـ = الثاني عشر من يوليو 1191م. لا رَيْبَ أَنَّهُ في غمرة هذا الحِصار اندلعت معاركُ مفتوحةٍ حامية الوطيس، إضافةً إلى بقاء "حرب الخنادق". وجرى أحد الاشتباكات الضَّارية في شَعْبَان 585هـ = سبتمبر 1189م عندما تقدَّمت قُوَّة صليبيَّة؛ فتولَّى المُسلمون صدَّها عن طريق "سلاح الفرسان الثقيل" المُدرَّع بالكامل، واستعر القتالُ عند المُناجزة بالسُّيوف. ١٠٨ [38]

وصَف العُمَرِيُّ اشتباكًا أشدَّ ضراوةً وَقَع في الحادي والعشرين من شَعْبَان = الرابع من أكتوبر، وأظهر كيف كان القتالُ على مَقْرِبَةٍ من صلاح الدِّين نفسه. بَيِّدَ أَنَّ ادِّعاء العُمَرِيِّ أَنَّ النَّصْر كان حليفًا للمُسلمين فيه مُعَالَطَةٌ<sup>١٠٩</sup>:

١٠٨ الروضتين 4: 79-80. (المترجم)

١٠٩ أقرَّ المؤرِّخون المسلمون أَنَّ هذه المعركة بدأت بانكسار المسلمين وانتَهت بنصرهم؛ فهذا أبو شامة - مثلاً - يصفها قائلاً: "بدأت بالسُّوأى وخُتِمَتْ بِالْحُسْنَى". (الروضتين 4: 86). (المترجم)

”فإنَّ الفِرْنَجَ اجتمعوا وحملوا على السُّلطان في القلب، فأزالوه عن موقفه. وأخذ الفِرْنَجُ يقتلون المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السُّلطان. فانحاز السُّلطان هو وخاصته إلى جانبٍ. وانقطع مددُ الفِرْنَجِ، واشتغلوا بقتال الميمنة. فحمل السُّلطان على الفِرْنَجِ الذين خرقوا الميمنة، وعطف الجيشُ عليهم، فأفهوم قتلاً، فقتلَ في ذلك الوقت من الفِرْنَجِ قريبُ الثلاثين ألفاً، ووصل المنهزمون من المسلمين، بعضهم إلى طَبْرِيَّةَ، وبعضهم إلى دِمَشقَ“.<sup>110</sup> [38]

ثمَّ وصف العُمَرِيُّ كيف أدَّتِ الرَّائِحَةُ المُنتِنَةُ للجِيفِ المُتَحَلِّلةِ إلى وقوع المرض، الذي أصاب صلاحَ الدِّينِ ذاته.<sup>111</sup> وتَبَعًا لذلك نُقِلَ المعسكرُ الإسلاميُّ إلى الخَرْوَبَةِ<sup>112</sup> على جبل الكرْمِل (Mount Carmel) في الرابع عشر من رَمَضانَ 585هـ = السادس والعشرين من أكتوبر 1189م؛ فتمكَّن الصَّليبيون من إحكام حصارهم على عكَّا والاقتراب منها.<sup>113</sup> [39]

كانت تصرُّفات صلاح الدِّينِ الحربيَّةُ السَّابِقَةُ تُجاه الحكَّام المسلمين المُجاورين تعني أنَّ مُساعدةً قليلةً ستصل إليه، بيِّنا كان ضعفه البحريُّ يعني أنَّ تعزيراتٍ صليبيَّةٍ تنهافت على مُعسكر الصَّليبيين عن طريق البحر. ربَّما كان يحدوه الأملُ أكثر من التَّوَقُّع، لَمَّا بعث رسالةً إلى أبي يُوسُفَ يَعقوبَ المَنصورِ المُوَحِّديِّ<sup>114</sup> - صاحب بلاد

110. Al-'Umari, *Saladin and the Crusaders*, p. 36.

قلْتُ: ويُظنُّ مسالك الأَبصار 27: 101. (المترجم)

111 من كثرة ما حمله صلاحُ الدِّينِ على قلبه وما عاناه من التَّعب بحمل السِّلاح والفكر في تلك

الأيام، عراه التياثُ مزاجيًّا. (النوادر السلطانية، ص 178؛ الروضتين 4: 94). (المترجم)

112 الخَرْوَبَةُ موقعٌ مُهمٌّ إبَّان حملة صلاح الدِّينِ على عكَّا، وهي غيرُ موجودةٍ على الخرائط. واسمُّها

يعني ”شَجَر الخَرْوَبِ“؛ فربَّما أُطلق اسمُه على عدَّةِ مواضعٍ نمت فيها هذه الأشجار. ومن

المُؤكَّد أنَّها كانت تلاء على الطَّرِيق بين صَفُورِيَّةَ وعكَّا في سلسلة الجبال التي تُتأخَّم السَّهْلُ من

جانبه الشرقيِّ. وكان يمكن رؤية المُعسكر عند عكَّا من هذا الموقعِ وفاق بهاء الدِّين. فيمكن

وضْعُها في مكانٍ ما شمالي قرية شَفْرَعَمَ، ليس ببعيدٍ من بلدة يُبْنَى الحاليَّة. (النوادر السلطانية،

ص 177؛ وفيات الأعيان 3: 498). (المترجم)

113. *Saladin and the Crusaders*, p. 38.

قلْتُ: ويُظنُّ مسالك الأَبصار 27: 101. (المترجم)

114 أبو يُوسُفَ المَنصورِ يَعقوبَ بن يُوسُفَ بن عبد المؤمن، المُتوفَّى سنة 595هـ = 1199م. له ترجمة

المَغْرِبِ والأَنْدَلُسِ - يطلب دَعْمَه، لا سِيَّما أَنَّ المُوَحِّدِينَ قد كان لديهم أُسْطُولٌ قوِيٌّ يَمَخَّرُ عُبَابَ البَحْرِ دونما تَوْقُفٍ: "فلا تَرْضَى هِمَّتُهُ أَنْ يُعِينَ الكُفْرَ الكُفْرَ [في الأَرْضِ المُقَدَّسَةَ]، ولا يُعِينِ الإسلامُ الإسلامَ... فيملأها [الحاكمُ المُوَحِّدِيُّ المَنْصُور] عليهم جَوَارِي كالأَعْلَامِ، ومُدْنَا في اللُّجَجِ سَوَائِرَ، كأنَّهَا اللَّيَالِي مُقْلَعَةٌ بالأَيَّامِ، تَطْلُعُ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الإسلامِ [في الشَّرْقِ] آمَالًا، وتَطْلُعُ عَلَى الكُفَّارِ آجَالًا، وَتَرِدُنَا إِمَّا جُمْلَةً وَإِمَّا أَرْسَالًا... وإِنَّمَا هِيَ مِنْهُ عَزْمَةٌ، كانت تَعِينُ أَصْحَابَ المِيمَنَةِ عَلَى أَصْحَابِ المَشَامَةِ [الْفَرَنْجِ]"<sup>115</sup> فتلقَى صلاح الدِّينَ رَدًّا بِرَفْضِ المُسَاعَدَةِ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ 588هـ = أكتوبر 1190م.<sup>116</sup> [39]

في: المُعْجَبُ لِلْمَرَّاكُشِيِّ، ص 368؛ مرآة الزمان 22: 72-79؛ المُذَبَّلُ عَلَى الرُّوضَتَيْنِ 1: 86-87؛ وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ 7: 3-19؛ سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 21: 311-319؛ الأستقصا للناصري 2: 158. (المترجم) 115 سألْتُ المُؤَلِّفَ عَن مَصْدَرِهِ، فَأَمَدَّنِي بِهِ:

H. Dajani-Shakeel, "A Reassessment of Some Medieval and Modern Perceptions of the Counter-Crusade", in R.A. Messier (ed.), *The Jihad and its Times: Dedicated to Andrew Stefan Ehrenkreutz* (Ann Arbor 1991) p. 67, quoting from Muhammad Hamada, *Al-Watha'iq al-Siyasiyya wa'l-Idariyya* (Beirut 1987).

قُلْتُ: يُنْظَرُ الوُثَائِقُ السِّيَاسِيَّةُ وَالإِدَارِيَّةُ لِلْعَهْدِ الفَاطِمِيَّةِ وَالأَتَاكِئِيَّةِ وَالأَبُوَيْبِيَّةِ (دراسة ونصوص) لمحمد ماهر حمادة 4: 353. وهو ينقل عن أبي شامة (الروضتين 4: 194، 202). ولمزيد تفاصيل عن هذه الرسالة، راجع: الروضتين 4: 190-211؛ تاريخ الإسلام 12: 700-704؛ سعد زغلول عبد الحميد: العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، ص 84-100؛

Gaufrey-Demombynes, Maurice, 'Une Lettre de Saladin au Calife Almohade.' Dans *Mélanges René Basset*, Paris 1925, t. 2, pp. 279-304. (المترجم)

116 عَزَّ عَلَيْهِ كونه لم يُخَاطَبَ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، عَلَى جَارِي عَادَتِهِمْ. (الروضتين 4: 205؛ وفیات الأعيان 7: 12؛ نَفْحُ الطَّيِّبِ 1: 444-445). وَيُلْحِظُ أَنَّ كُلًّا مِنَ العِمَادِ الكَاتِبِ وَابْنِ شَدَّادٍ لَمْ يَتَعَرَّضَ إِلَى هَذِهِ السَّفَارَةِ، عَلَى حِينِ نَقْلِ أَبُو شَامَةَ الرِّسَالَةَ عَنِ بَعْضِ النُّفَاةِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِخَطِّ القَاضِي الفَاضِلِ أَوْ مُوَاظَفَتِهِ. (الروضتين 4: 190-205). وَمِمَّا يُوجِبُ الأَلْتِنَاتِ هُنَا أَنَّ الأَمِيرَ أبا الحَارِثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَ مُنْقِذٍ (ت. 600هـ = 1203م) - الرِّسُولَ الصَّلَاحِيَّ لَدَى البَلَاطِ المَرَّاكُشِيِّ - مَدَّحَ ابْنَ عَبْدِ المُؤْمِنِ بِقَصِيدَةٍ مِنْ أَرْبَعِينَ بَيْتًا، وَخَاطَبَهُ فِيهَا بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ "المسلمين". فَأَعْطَاهُ بِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفًا مِنَ الدَّنَانِيرِ، قَائِلًا لَهُ: "إِنَّمَا أُعْطِينَاكَ؛ لِفَضْلِكَ وَلِبَيْتِكَ". عَلَى حِينِ بَعَثَ مَعَهُ هَدِيَّةً صَغِيرَةً حَقِيرَةً لِصَلَاحِ الدِّينِ. (الروضتين 4: 206؛ نَفْحُ الطَّيِّبِ 1: 445). (المترجم)



شكل 36 سلطانية من الخزف المتلألئ مصنوعة في إيران أو مصر في القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. متحف الفن الإسلامي، رقم 13279، القاهرة، صورة التقطها المؤلف

في وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة تلقى صلاحُ الدِّين - على الأُغلب - رسالةً أُخرى، وكانت هذه المرّة من الإمبراطور البيزنطيّ - حليفه غير الرّسميِّ - يُخبره فيها أنّ الصّلوات تُقام باسمه في جامعٍ ١١٧ في القسطنطينية، ويعتذر أيضاً عن السّماح للوحدّة الألمانيّة الضخمة من الحملة الصّليبيّة الثالثة بالمرور عبر الأقاليم البيزنطيّة. كان صلاح الدِّين في ميسس الحاجة إلى أكثر من كلماتٍ رقيقةٍ في هذه المرحلة. وعلى مدار العام 586هـ = 1190م دام حصار عكاّ المزروح القاسي، ووفاق رواية بهاء الدِّين ١١٨ - صديق صلاح الدِّين وكاتب سيرته - استخدم السُّلطان كُلاًّ حيلةٍ يعرفها ليوهي ويُضعف قبضة الصّليبيين المُحكّمة على المدينة: "كُلّما سار العدوُّ يطلب رأس النهر، سار هو يستدير إلى ورائهم؛ حتّى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسيرُ

١١٧ ذكر بهاء الدِّين ابن شدّاد (النّوادر السُّلطانيّة، ص 202-204) أنّ صلاح الدِّين أرسل سفارةً إلى الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس (581-592هـ = 1185-1195م) في رَجَب 585هـ = 1189م، ومعها خطيبٌ ومنبرٌ وعددٌ من المؤدّنين والقُرّاء. فاستقبلت هذه السفارة بحفاوةٍ بالغةٍ، ورَفَى الخطيبُ المنبرَ، وأقام الدّعوة للخلافة العبّاسيّة بالقسطنطينيّة. غيّرَ أنّ أمبروز (Ambrose, *The Crusade of Richard Lion-Heart*, p. 93) بيّن أنّ الجنويّة قد استولوا على المنبر الذي أرسله صلاح الدِّين قبل وصوله القسطنطينيّة، ثمّ أحضروه معهم إلى صور، وأنّ الفرنج استغلّوا هذه الحادثة للشهير بالإمبراطور البيزنطي، فكتبوا إلى البابا في روما بأنّ هذا المنبر خير دليل على خيانة الإمبراطور للفرنج في الشرق. يُنظر أيضاً: الرّوضتين 4: 149-150؛ ستيفن رنسيان: الحضارة البيزنطيّة، ص 31؛ هويدا محمد نبيرة: علاقات المودّة والمراسلات بين صلاح الدِّين الأيوبيّ والأباطرة البيزنطيين، ص 251. تبيّن أنّ ابن واصل ذكر أنّ صلاح الدِّين لمّا صالح الإمبراطور البيزنطي، أراد أن يُجدّد عمارة هذا الجامع، ويُخطب له فيه، وسير ابن البزار في هذا السّبب، فما أجابه الرُّوم إلى ذلك ولا مكّنوه منه، ولم يسمحوا بذلك إلّا في عهد الظاهر بيبرس. (مفرج الكروب 6: 467). وعن السبب في بناية هذا الجامع، راجع: الطبقات الكبرى 3: 449-450؛ مفرج الكروب 6: 466-467. (المترجم)

١١٨ القاضي بهاء الدِّين أبو المحاسن يوسُف بن رافع بن تميم بن عثبة بن مُحمّد بن عتاب الأسدّي، الحلبّي الأصل والدار، المؤصّلِي المولد والمنشأ، الفقيه الشافعيّ (539-632هـ = 1145-1234م)، وقد عُرفَ بابن شدّاد نسبةً إلى جدّه لأُمّه. له ترجمة في: التّكملة لوفيات الثّقلة 3: 384-385؛ المُدبّل على الرّوضتين 2: 32؛ وفيات الأعيان 7: 84-100؛ مُفرج الكروب 5: 89-91؛ سير أعلام النّبلاء 22: 383-387؛ تاريخ الإسلام 14: 95-98؛ طبقات الشافعيّة للسبكيّ 8: 360-362. راجع أيضاً: "بهاء الدِّين ابن شدّاد وكتابه النّوادر السُّلطانية والمحاسن اليوسفيّة (539-632هـ = 1144-1234م)" لسفانة جاسم محمد الجبوري، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2000م. (المترجم)

ساعةٌ ثُمَّ ينزل يستريح، ويتظلل بمنديلٍ<sup>١١٩</sup> على رأسه من شِدَّةِ وقعِ الشمسِ عليه، ولا يَنْصُبُ له خيمةٌ؛ حتَّى لا يُرَى العدوُّ ضعفاً<sup>١٢٠</sup>. وفي وَقْعَةٍ أُخرى في الثالث والعشرين من شَوَّالِ 586هـ = الثالث والعشرين من نوفمبر 1190م، كمنَّتْ عساكرُ صلاحِ الدِّينِ لجماعةٍ كبيرةٍ من الفرسانِ الصَّلبيينِ المُدرَّعينِ بالكامل، ويبدو أنَّها هاجمتِ العدوَّ في الجَنَاحِ، فطُرِحَ كثيرٌ من الفرسانِ عن صَهْوَةٍ جيادهم<sup>١٢١</sup>. وهذا يبدو إجراءً ناجحاً بصورةٍ خاصَّةٍ من المُناوَرَةِ الموصوفةِ بِإِسْهابٍ في عديدٍ من كُتُبِياتِ الفروسيةِ في باكرِ العصورِ الوسطى. [39]

في ذُرورِ العامِ 587هـ = 1191م، ومع بقاءِ حصارِ عكَّا والحصارِ المُضادِّ له، اضطرَّ صلاحِ الدِّينِ إلى استخدامِ كُلِّ مهاراته القياديَّةِ من أجلِ رُفْعِ المعنوياتِ الخائِرةِ لدى عساكره المُنهكينِ. ويُقدِّمُ بهاءُ الدِّينِ تارةً أُخرى وَصفاً مُفصَّلاً للقائدِ الذي أعجَبَ به أيُّما إعجابٍ: [39]

”وكان لا بُدَّ له من أن يطوف حول العدوِّ [الصَّلبيينِ وقتِ حِصارِ عكَّا] <sup>١٢٢</sup> في كُلِّ يومٍ مرَّةً أو مرَّتين، إذا كُنَّا قريباً منهم. وكان إذا اشتدَّ الحربُ يطوفُ بين الصَّفَّينِ ومعه صبيٌّ واحدٌ وعلى يده جَنِيْبٌ<sup>١٢٣</sup>، ويخرقُ العساكرَ من الميمنةِ إلى الميسرةِ، ويُرْتَبُ الأُطْلابُ ويأمرهم بالتَّقَدُّمِ والوقوفِ في مواضعٍ يراها، وكان يُشارِفُ العدوَّ ويُجاوره<sup>١٢٤</sup>.” [41]

١١٩ يُجْعَلُ المُنْدِيلُ في المِنْطَقَةِ المَشْدُودَةِ في الوَسَطِ مع الصَّوْلُقِ وغيره، ثُمَّ جرى اصطلاحُ الملوِكِ على البعثِ به في الأمانات. وهو آلةٌ قديمةٌ للملوِكِ؛ إذ حُكِيَ أنَّه كان للوزيرِ الأفضَلِ شاهنشاهِ ابنِ بدرِ الجَمالِيِّ مئةٌ بَدْلَةٌ مُعلَّقةٌ على أوتادٍ من ذهبٍ، على كُلِّ بَدْلَةٍ مُنْدِيلٌ من لونها. (صبح الأعيشى 2: 126؛ الخِطَطُ المَقْرِيْبَةُ 2: 468). (المترجم)

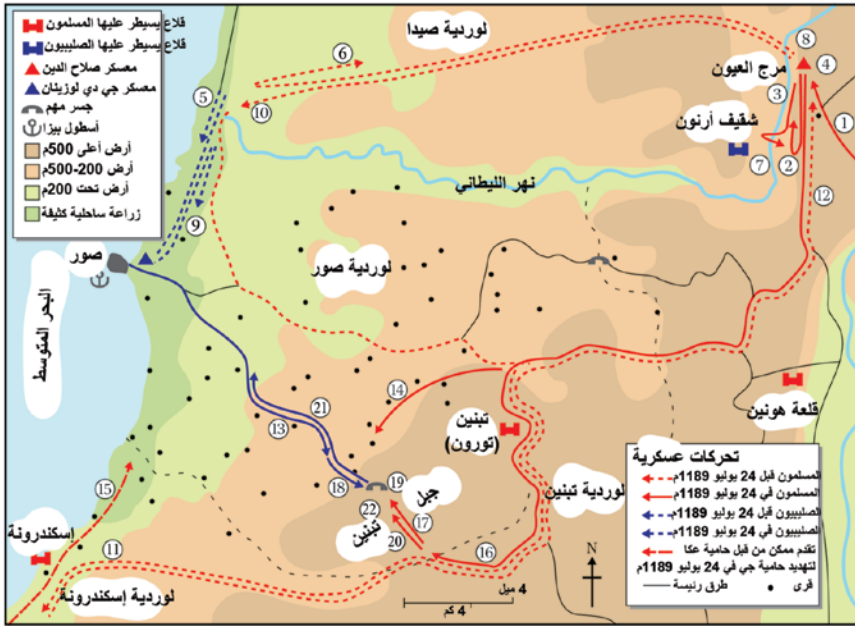
١٢٠ النوادر السلطانية، ص 58. (المترجم)

١٢١ النوادر السلطانية، ص 228-229. (المترجم)

١٢٢ قلتُ: وهناك نصٌّ آخرٌ لِبِهَاءِ الدِّينِ يذكر فيه أنَّ مثل ذلك وَقِعَ أثناءَ مُطازرةِ جيشِ صلاحِ الدِّينِ لجيشِ رَتَشَارْدِ السَّائِرِ بِمُحاذاةِ السَّاجِلِ في شَعْبَانَ 587هـ. (النوادر السلطانية، ص 271؛ الروضتين 4: 273؛ مفرج الكروب 2: 366). (المترجم)

١٢٣ الجَنِيْبُ (Spare Mount) - جمعها الجَنَائِبُ - هو الحصان الذي كان يُسَيَّرُ خلفَ السُّلْطَانِ في الحروبِ لاحتمالِ الحاجةِ إليها؛ فإذا فَتَرَ المَرْكُوبُ تحوَّلَ إلى المَجْنُوبِ. (الروضتين 1: 312؛ 3هـ؛ 4: 273). (المترجم)

١٢٤ النوادر السلطانية، ص 51، 242، 252. (المترجم)



شكل 37 معركة تبنين

أطلق صلاح الدين سراخ جي دي لوزيان (Guy of Lusignan) - ملك بيت المقدس الأسير - في صيف 584هـ = 1188م. وأقسم ألا يُقاتل المسلمين، بيد أنه سرعان ما حنث بهذه اليمين. وبعد أن رفض كونراد دي مونتفرات تسليمه صور، أوى جي إلى طرأئلس؛ إذ وصل إليها ممثا فارس من صقلية، وأنقذوا المدينة من صلاح الدين. وعاد جي إلى صور في صفر 585هـ = إبريل 1189م، إلا أن كونراد كان لا يزال يرفض تسليمها إليه؛ لذلك عسكر جي وجيشه خارج تحصيناتها.<sup>١٢٥</sup> وكان وصول أسطول مكوّن من اثنتين وخمسين سفينة من جمهورية بيزا الإيطالية البحرية بقيادة رئيس الأساقفة أوبالدو (Ubaldo) في الحادي عشر من صفر = السادس من إبريل، إيذاناً بالبداة العسكرية للحملة الصليبية الثالثة. وبعد ذلك بقليل، اختلف أوبالدو مع كونراد؛ فعرض دعمه لجي، الذي حصل - وعلى نحو مماثل - على دعم قوات صقلية من طرأئلس. في هذي الأثناء كانت المملكة الصليبية لا تزال تسيطر على حصن شقيف أرنون (Beaufort) القوي، الذي حرس الطرف العلوي من وادي نهر الليطاني.<sup>١٢٧</sup>

١٢٥ ذيل وليم الصوري، ص 103-105. (المترجم)

١٢٦ النوادر السلطانية، ص 155-156؛ الروضتين 4: 71. (المترجم)

١٢٧ الشائع لفظه - عند اللبانيين - بفتح اللام وتسكين الباء: "الليطاني" من دون تشديد الباء الأخيرة؛

وكانت الحصون الأخرى في هذه المنطقة - بما فيها تينين (تورون: Toron) ١١٨ - ما تزال تحت قبضة حاميات صلاح الدين. [40]

## 5 الحوادث

1. يُغادر صلاح الدين دِمَشقَ (في 26 صَفَر ١٢٩ = 21 إبريل) ليُهَاجِمَ حِصْنَ شَقِيفِ أَرْثُونِ، وسار عبر مَرَجِ بُرْعُوثِ قُرْبِ بَانِيَّاسِ، وهناك تَجَمَّعَ مُخْتَلِفُ عُنَاصِرِ قُوَّاتِهِ، قبل أن يُقيمَ مُعَسَكَرَهُ على مَرَجِ عُيُونِ المُخَضُّوضِ (في 17 ربيع الأول = 5 مايو). ١٣٠
2. تنضمُّ وحداتٌ إضافيَّةٌ إلى مُعَسَكَرِ صلاح الدين، بينما يُراقبُ السُّلْطَانُ الحِصْنَ كُلَّ يَوْمٍ. ١٣١
3. يذهب رينالد صاحب صيدا - سيّد حِصْنَ شَقِيفِ أَرْثُونِ - إلى مُعَسَكَرِ صلاح الدين للتفاوض، ويُلمِّحُ إلى أنَّه قد يعتنق الإسلامَ. ويُحَسَبُ له أيضًا النداءُ في حاميته للاستسلام باللُّغة العربيَّة، وللمقاومة باللُّغة الفرنسيَّة.

أي جعلها ياء نِسْبَةٍ، فإذا كان الاسمُ عربيًّا فِيرَجَّحُ أن تكون ياؤه تلك مُشَدَّدَةً. وليس في العربيَّة كلمة "لَيْطَان" إلَّا في عبارة: "شَيْطَان لَيْطَان"، وقد رأى ابنُ بَرِّي المِصْرِيُّ - في ما نَسَبَهُ "اللِّسَانُ" إليه - أنَّ "لَيْطَان" هنا من لَاطَ بقلبه، أي لرق به، وهذا يعني أنَّها صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ. واحتمل "اللِّسَانُ" أن تكون الكلمة سُريانيَّةً، أو أن يكون في العبارة إِتباعٌ. والحقيقة أنَّ كثيرًا من النَّاسِ يجعلون لفظَ هذا الاسمِ بكسر اللام أيضًا: "اللِّيطاني"، وهو كذلك في الفرنسيَّة والإنكليزيَّة: "Litani"، والظَّاهِرُ أنَّ هذا اللفظ مأخوذٌ من الاسمِ اليُونانيِّ لهذا النهر: ليونتس (Λέοντες) أي الليوث، وهذا ينفي الضَّرورةَ إلى تشديد اللام، ويُرجَّحُ أنَّ الاسمَ مُعَرَّبٌ. ينبع اللِّيطاني من بعض الجبال المحيطة بسَهْلِ البِقاع، وَيَسِيرُ في ذلك السَّهْلِ حتَّى يبلغ جنوبيه؛ حيث يلتفُ غربًا مسافة غير قصيرة ليصبَّ في البحر المتوسط شمال مدينة صُور. (المترجم)

١٢٨ بلدةٌ في جبال بني عامر، تطلُّ على بَانِيَّاسِ بين دِمَشقَ وُصُور. (معجم البلدان 2: 14). وتقع حاليًّا في لُبْنان. (المترجم)

١٢٩ خرج صلاح الدين من دِمَشقَ مُيَمِّمًا شَطْرَ شَقِيفِ أَرْثُونِ بعد صلاة الجُمُعة في الثالث من ربيع الأول. (النوادر السلطانية، ص154). (المترجم)

١٣٠ النوادر السلطانية، ص154. (المترجم)

١٣١ المصدر نفسه. (المترجم)

4. يتلقَى صلاح الدِّين رسالةً من القاضي الفاضل<sup>١٣٢</sup> يُبلِّغه بموَلِد حفيدِه<sup>١٣٣</sup> (في 10 جُمادى الأولى = 17 يونيو).
5. تعبر فُؤاتٌ إفْرِنجيَّةٌ جِسْرَ نهر اللِّيطاني الفاصِلِ بين لورديتي صور وصَيْدا.
6. يحشد صلاح الدِّين قُوَّةً (في 17 جُمادى الأولى = 3 يوليو)، ويُسرِع إلى الموقع، لكنَّه يجد العدوَّ قد ارتدَّ على عَقْبَيْهِ.
7. يقوم صلاح الدِّين باستطلاعِه اليوميِّ لحِصْنِ شَقِيفِ أَرْزُون (في 19 جُمادى الأولى = 5 يوليو)، لكن تبعه خَلْقٌ عَظِيمٌ مَمَّنْ وُصِفوا بأنَّهم ”مُتَطَوِّعَةٌ وَسُوقَةٌ وبدوٌّ“ معتقدين أنَّه يعتزم الانقِضاضَ. ولمَّا رفضوا التَّفَرُّقَ، عبروا الجِسْرَ فحمل عليهم فرسان الفِرْنَجِ حملةً واحدةً، فقتل كثيرٌ منهم<sup>١٣٤</sup>.
8. بسببٍ من الكارثة التي وقعت في التاسع عشر من جُمادى الأولى = الخامس من يوليو، يتخذ صلاح الدِّين قرارًا بالهجوم.
9. يسير الملك جي نحو مَعْبَرِ نهر اللِّيطاني، ويُقيم مُعسكراً على مَقْرَبَةٍ منه، ولكنَّه يتراجِعُ.
10. يخرج صلاحُ الدِّين من مَرَجِ عُيون (في 27 جُمادى الأولى = 13 يوليو)، لكنَّ يَزَكَه<sup>١٣٥</sup> يخبره أنَّ العدوَّ قد تراجع مرَّةً أُخرى. وتُقَطِّعُ الاتِّصالات البرِّيَّةَ نهائيًّا بين صور الواقعة تحت سيطرة الصَّليبيين وبين طرابُلس<sup>١٣٦</sup>.

١٣٢ وُلِدَ بمدينة عَسْقلان، وتولَّى أبوه القضاء بمدينة نَيْسان؛ فلهذا نُسِبَ إليها. ثُمَّ جاء إلى الدِّيار المِصْرِيَّةَ مع أبيه في أَيَّام الخليفة الفاطميِّ الظَّافِرِ بن الحافظ، والتحق بخدمة قاضي الإسكندرية، ثُمَّ استخدمه العادلُ رُزَيْك في دِيوان الجيش، ثُمَّ الكاملُ بن شاورٍ واعتُقِلَ معه بدار مُلْهم أخِي ضِرْغام، ثُمَّ لَمَّا استقلَّ أسدُ الدين بالوزارة طلب من القَصْرِ كاتِبَ إنْشاء فُرْسِلٍ إليه بالقاضي الفاضل. (الثُّكَّتُ العَصْرِيَّة، ص 53-54؛ الروضتين 1: 407؛ 2: 65، 89؛ وفيات الأعيان 3: 161؛ 7: 220-221؛ أتعاط الخُنفا 3: 272). وكان بينه وبين الوزير صَفِيِّ الدِّين ابن شُكْر - وزير العادل - مُجاافةً ومُقاَرَصَةً؛ فكان ابن شُكْر يقول: ”أتحسَّرُ أن ابن البَيْسانيِّ ما تمرَّغ على عتبتِي“. (سير أعلام النبلاء 22: 295). (المترجم)

١٣٣ هو ناصر الدِّين محمد بن الملك العزيز بن صلاح الدِّين. (الروضين 4: 110). (المترجم)

١٣٤ النوادر السلطانية، ص 157. (المترجم)

١٣٥ يَزَكَه: لفظٌ فارسيٌّ، معناه ”طلائع الجيش“. (الألْفاظ الفارسية المُعرَّبة لأدي شير، ص 160).

(المترجم)

١٣٦ النوادر السلطانية، ص 158. (المترجم)

11. يعتقد صلاح الدّين أنّ جي من المتوقَّع أن يُهاجم تَبْنينَ أو عكّا؛ لذلك قام بمُعَاينة دفاعاتهما. ١٣٧
12. يعود صلاح الدّين إلى مَرْج عُيون (في 6 جُمادى الآخرة = 22 يوليو)؛ لينتظر انتهاء الهدنة التي قد عقدها مع رينالد صاحب صيدا. يعلم صلاح الدّين أيضًا أنّ حطّابة العدو وصلوا إلى جَبَل تَبْنين لجمع الحطب، فيقرّر نصب كمين لهم. ١٣٨ [40]
13. بلغه أنّ حطّابة الفرنج ومرافقيهم من الفرسان بقيادة الملك جي غادروا معسكرهم خارج صور.
14. أمرت حامية صلاح الدّين في تَبْنين بالتبريز مع نفرٍ يسيرٍ لمضايقة حطّابة العدو في صبيحة يوم 8 جُمادى الآخرة = 24 يوليو، ثمّ يرتدون إلى تَبْنين مرّةً أُخرى إن طاردهم فرسان العدو. ١٣٩
15. أمرت حامية صلاح الدّين في عكّا بتهديد المُعسكر الفرنجيّ الرّئيس في حال إن تحرك جيش العدو الرّئيس لدعم الحطّابة<sup>١٤٠</sup>، بيّد أنّه لا يوجد دليلٌ على وقوع ذلك.
16. يغادر صلاح الدّين وقوّته الرّئيسة المُعسكر سُخرة (يوم 8 جُمادى الآخرة = 24 يوليو)، ويصل إلى جهةٍ قريبةٍ من المكان الذي سوف تُضايق فيه حامية تَبْنين حطّابة الفرنج. ١٤١
17. يُرتب صلاح الدّين عسكره إلى ثمانية أطلاب<sup>١٤٢</sup>، ويستخرج من كلّ طُلبٍ

١٣٧ النوادر السلطانية، ص 158. (المترجم)

١٣٨ النوادر السلطانية، ص 158-159. (المترجم)

١٣٩ النوادر السلطانية، ص 159. (المترجم)

١٤٠ المصدر نفسه. (المترجم)

١٤١ المصدر نفسه. (المترجم)

١٤٢ أطلاب (Battalions) - جمع طُلب - لفظٌ كُرديٌّ، معناه الأمير المُقدّم الذي له علمٌ معقودٌ وبوقٌ مضروبٌ وعدّةٌ من الجُنْد ما بين مئتي فارسٍ إلى مئة فارسٍ إلى سَبْعين فارسًا، وكان أكثر ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشّام في عصر صلاح الدّين، ثمّ عدّل مدلوله، فأصبح يُطلق على الكتبية من الجيوش. (مفرج الكروب 2: 59هـ3؛ 4: 27هـ6؛ 5: 13؛ السُّلوك 1: 248هـ2؛ اتعاظ الحُنفا 3: 327). ويُظنّ: "التاريخ الحربي المصريّ في عهد صلاح الدّين الأيوبيّ" لنظير حسان سَعداوي، ص 62هـ7 (بتحقيقي)؛ "مُصر في عصر الأيوبيين" للسّيّد الباز القريني، ص 154؛

عشرين فارسًا من الشُّجعانِ، الجِيادِ النَّخِيلِ. ويأمرهم أن يتراءوا للعدوِّ حتَّى يظهر إليهم ويناشوه، ثمَّ ينهزموا بين أيدي مُطارِدِيهم حتَّى يصلوا إلى كمين صلاح الدِّين الحقيقيِّ.<sup>١٤٣</sup>

18. يعرف الملك جي خبَر الكمين الوشيك؛ فبعبًا فرسانه تعبئة القتال.
19. يجري قتالٌ بين الفرنج والكمين التَّمويهِيَّ، ووفاق رواية بهاء الدِّين "أنفوا - أي كمين المسلمين - عن الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مُخالفة السُّلطان ولقائهم العدوِّ الكثير بذلك الجمع اليسير".<sup>١٤٤</sup> فضل القتال حتَّى أواخر النَّهار، لكن الكمين التَّمويهِيَّ لم يُحذَر صلاح الدِّين، أو لم يستطع أن يخبره بتأخرهم في الارتداد المُخطَّط له.
20. يعلم صلاح الدِّين بالوضع، فيبعثُ بعونًا كثيرةً لدعم الكمين التَّمويهِيَّ، لكن بسبب فوات الأوان لخوض معركة كبرى، أقرَّ بأن حُطَّته قد فشلت.
21. لمَّا أبصر الفرنج مَدَدَ صلاح الدِّين، أدركوا خطورة موقفهم ووضعهم الحرج؛ فقتلوا أسراهم، وانسحبوا إلى صُور.
22. في اليوم التالي (أي 9 جمادى الآخرة = 25 يوليو) يعرف صلاح الدِّين أنَّ مملوكًا من صفوة مماليكه - اسمه أَيْبِك - مفقودٌ. فعُثِرَ على الرَّجُل الجريح بين القتلى، إذ يذكر بهاء الدِّين: "فوجدوه بين القتلى على مثل هذه الحالة، فحملوه ونقلوه إلى المُخَيِّم على تلك الحال، وعافاه اللهُ".<sup>١٤٥</sup> [41]

وفي وَقْعَةٍ أُخرى "انهزم المسلمون في يوم المَصافِّ الأكبر بِمَرَجِ عَكَّا حتَّى القلب ورجاله، ووقع الكؤوسُ<sup>١٤٦</sup> والعَلَمُ، وهو - رضي اللهُ عنه - ثابتُ القَدَمِ في نفرٍ يسيرٍ، قد انحاز إلى الجبل يجمعُ النَّاسَ ويردُّهم، ويُخجِّلهم حتَّى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتَّى

(المترجم) Gibb, The Armies of Saladin in "Studies on the Civilization of Islam", pp. 76, 84.

١٤٣ النوادر السلطانية، ص 159. (المترجم)

١٤٤ المصدر نفسه. (المترجم)

١٤٥ النوادر السلطانية، ص 160. (المترجم)

١٤٦ أو الكؤوسات، صنوجاتٌ من نحاس شبه الترس الصغير، يُدقُّ بأحدها على الآخر بإيقاعٍ مخصوصٍ، ومن يتولَّى ذلك يُسمَّى الكؤوسِيَّ، ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو "الطبلخاناه" كما كانت تُسمَّى في مصطلح العصور الوسطى. (صبح الأعشى 4: 9، 43).

(المترجم)



شكل 38 تمثالٌ خزفيٌّ كبيرٌ لفارسٍ يقتل حَيَّةً، عُثِرَ عليه في أنقاض مدينة الرَّقَّة، يرجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر أو فواتح القرن الثالث عشر. المتحف الوطني السوري، دمشق، صورة التقطها المؤلف

نُصِرَ عسكرُ المسلمين على العدوِّ في ذلك اليوم“.<sup>١٤٧</sup> وبعدها بلغتِ الحربُ التَّراقي لم يستطع صلاح الدِّين أن ينقذ عكًّا من القُوَّاتِ الهائلة للحملة الصَّليبيَّة الثالثة، التي كانت تحت قيادةٍ مُلهمةٍ مُشابهةٍ مُتمثلة في رتشارد ملك إنكلترا (King Richard of England)، وفيليب أغسطس ملك فرنسا (King Philip Augustus of France).<sup>١٤٨</sup> فاستسلمتِ الحاميةُ المُنهكةُ في السابع عشر من جُمادى الآخرة 587هـ = الثاني عشر من يوليو 1191م من دُون إذن صلاح الدِّين. [41]

كانت بقيةُ الحملة - عند صلاح الدِّين - عمليةً دفاعيةً عمًّا فتحه. كانت المعركة الوحيدة المُهمَّة - تلکم التي وقعت خارج مدينة أرسوف<sup>١٤٩</sup> السَّاحليَّة في السادس عشر من شَعْبَانَ ١٥٠ = السابع من سبتمبر 1191م - هزيمةً تكتيكيةً، لكن من المُؤكَّد أنَّها لم تكُ بالكارثة التي وصفها المؤرِّخون الصَّليبيون وأولئك المؤرِّخون الذين يعتمدون عليهم كُلاًّ الاعتماد. في الحقِّ، جرَّب صلاح الدِّين تارةً أُخرى أحد التَّحرُّكات القياسیَّة المُوصَّی بها في الكُتب الإسلاميَّة التقليديَّة المُصنَّفة في العصور الوسطى عن القيادة العسكريَّة. لقد كان هذا هجومًا على جيشٍ مُتحرِّكٍ في آخر النَّهار، أي في الوقت الذي يُؤمِّل فيه أن يصير غيرَ مُنظَّمٍ؛ إذ كانت مُقدِّمته قاب قوسين أو أدنى من المكان الذي يعتزم الجيشُ أن يُخيِّم فيه. [42]

كان هذا بنَجوةٍ من الانقضاظ غير المُنسَّق. فرواية الجانِب الصَّليبيِّ تذكر أنَّ جيشَ صلاح الدِّين كان مُرتَّبًا بشكلٍ تامٍّ ومُدْهِشٍ للغاية؛ إذ وصفه المُؤلف المجهول لكتاب ”تاريخ الحملة الصَّليبيَّة الثالثة“، قائلًا: [42]

١٤٧ النوادِر السلطانية، ص 51-52. (المترجم)

١٤٨ الملك فيليب الثاني أغسطس (576-620هـ = 1180-1223م)، ابن الملك لويس السابع. يُنظر:

Bruno Galland, *Philippe Auguste: Le Bâtitseur du Royaume*, Paris, Belin, coll. "Portraits", 2014, p. 211. (المترجم)

١٤٩ أوردها المُؤلف: "Arsuf"، وهو يُوافقُ صَبْطُ ياقوت، الذي صَبْطها صَبْطَ حروفٍ بفتح الألف. (معجم البلدان 1: 151). يَبْنا صَبْطها ابنُ خَلْكان صَبْطَ حروفٍ بضمِّ الألف. (وفيات الأعيان 4:

154 ترجمة القاضي مجلي ابن نجا). (المترجم)

١٥٠ في (النوادِر، ص 275): "في يوم السبت رابع عشر شعبان". (المترجم)

”نُظِّمُوا تَنْظِيمًا جَيِّدًا، وَحُلُّوا بِشَارَاتٍ عَدِيدَةٍ مُثَبَّتَةً عَلَى رِمَاحِهِمْ، وَبِرَايَاتٍ وَشَعَارَاتٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَفَاصِيلُهَا، وَفُسِّمَتْ صَفُوفُهُم الكَثِيرَةَ تَقْسِيمًا دَقِيقًا إِلَى فِرْقٍ، وَنُظِّمَتْ الفِرْقَ كَبْنِيَانٍ مَرصُوصٍ؛ فَبَدَأَ عَدَدُهُمْ يَرَبُو عَلَى عَشْرِينَ أَلْفَ تُرْكِيِّ مُسَلَّحٍ، يَتَقَدَّمُونَ فِي نِظَامٍ... وَقَبْلَ الأَمْرَاءِ كَانَ يَسِيرُ رَجَالٌ يَنْفَخُونَ فِي زَمَارَاتٍ وَبُوقَاتٍ، وَآخَرُونَ يَحْمِلُونَ طُبُولًا، وَمَعَ آخَرِينَ مَزَامِيرُ القَرْبَةِ وَدُفُوفٌ وَأُجْرَاسٌ وَصُنُوجَاتٌ، وَآخَرُونَ يَحْمِلُونَ أَلَاتٍ أُخْرَى؛ كَمَا تُحَدِّثُ جَلْبَةً. وَعَهْدًا إِلَيْهِمْ بِمَهْمَّةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الصِّيَاحُ وَالصَّرَاخُ المُرُوعُ.“<sup>١٥١</sup> [42]

في الحقيقة، ربّما يكون أولاء ضُمُّوا بينهم قُرَاءَ القُرْآنِ، الَّذِينَ كَانُوا يُرَافِقُونَ الجيوشَ الإِسْلَامِيَّةَ مُذْ أَيْامِهِ الأُولَى، بَيْنَمَا صَاحَ آخَرُونَ صِيحَاتِ الحَرْبِ الَّتِي يَسْتَعْمِدُهَا المُسْلِمُونَ مِنْ أَجْلِ إِثَارَةِ الحَمَاسِ الدِّينِيِّ فِي نَفُوسِ الأَجْنَادِ. وَمَعَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ صِلَاحِ الدِّينِ لِمَنْعِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ دُخُولِ أَرَسُوفَ قَدْ بَاءَتْ بِالفِشَلِ، تَبَنَّى إِسْتِرَاطِيَّةً دِفَاعِيَّةً صَارِمَةً. [42]

بَعَثَ فِشَلُ صِلَاحِ الدِّينِ فِي إِبْقَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ خَارِجَ أَرَسُوفَ، تَبَنَّى إِسْتِرَاطِيَّةً دِفَاعِيَّةً صَارِمَةً. فَكَانَ أَحَدُ أَكْثَرِ قَرَارَاتِهِ المُفْجِعَةِ جَعَلَ عَسْكَلَانَ غَيْرَ قَابِلَةَ لِلدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا<sup>١٥٢</sup>؛ وَمِنْ ثَمَّ إِعَاقَةُ اسْتِعْمَالِ الصَّلِيبِيِّينَ لَهَا كَقَاعِدَةٍ يَنْطَلِقُونَ مِنْهَا لِعِزْوِ شِمَالِ مِصْرَ. لِذَلِكَ، أُخْلِيَتِ المَدِينَةُ، بَيْنَمَا دُمِّرَتْ أَجْزَاءٌ مِنْ تَحْصِينَاتِهَا عَلَى أَيْدِي وَحَدَاتٍ مُتَخَصِّصَةٍ مِنَ النِّقَّايِيِّينَ وَالبَنَّايِيِّينَ. فَوْقَ ذَلِكَ، أَمَرَ صِلَاحُ الدِّينِ أَخَاهُ العَادِلَ فِي الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ<sup>١٥٣</sup> بِتَوَلِّيِّ قِيَادَةِ الأَسْطُولِ وَتَقْوِيَةِ تَحْصِينَاتِ دِمْيَاطَ، وَإِجْلَاءِ جَمِيعِ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ مِنَ البَلَدَةِ. وَأُفْرِغَتْ تَنْبِسُ - المَدِينَةُ الوَاقِعَةُ فِي جَزِيرَةِ قَرِيَّةٍ - تَمَامًا مِنْ

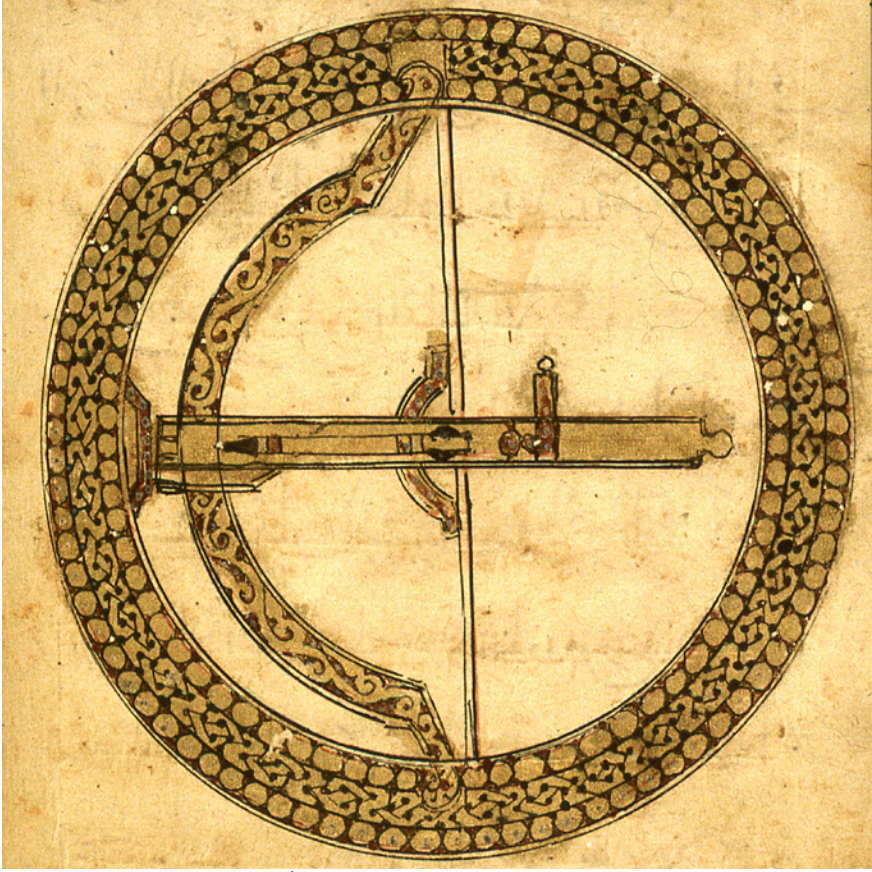
١٥١ Anon. (tr. H.J. Nicholson), *Chronicle of the Third Crusade* (Aldershot, 2001) p. 248.

١٥٢ تَرَدَّدَ صِلَاحُ الدِّينِ كَثِيرًا قَبْلَ اتِّخَاذِ هَذَا القَرَارِ الصَّعِيبِ؛ إِذْ قَالَ لِلقَاضِي بَهَاءِ الدِّينِ ابْنِ شَدَّادٍ: ”وَاللَّهِ، لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي كُلَّهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهْدِمَ مِنْهَا حِجْرًا وَاحِدًا، وَلَكِنْ إِذَا قَضَى اللَّهُ بِذَلِكَ وَعَيْنُهُ لِحَفِظِ مِصْلَحَةِ المَسْلَمِينَ طَرِيقًا فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟“ ثُمَّ اسْتَخَارَ اللَّهَ، فَأَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ المِصْلَحَةَ فِي خِرَابِهَا. (النَوَادِرُ السُلْطَانِيَّةُ، ص 280؛ الرُّوضَتَيْنِ 4: 279). وَكَانَ قَدْ قِيلَ لَهُ: ”تَدْخُلُهَا أَنْتَ أَوْ أَحَدُ أَوْلَادِكَ، فَتَدْخُلُهَا اتِّبَاعًا لِمُرَادِكَ.“ (الفَتْحُ القُسَيْبِيُّ، ص 551؛ الرُّوضَتَيْنِ 4: 281). (المُتَرَجِمُ)

١٥٣ كَانَ العَادِلُ وَقْتَهُ فِي الشَّامِ يُرَاقِبُ تَحَرُّكَاتِ رَنْشَارْدَ، وَيَنْوِبُ عَنْ صِلَاحِ الدِّينِ فِي التَّفَاوُضِ مَعَ الفِرَنْجِ. (النَوَادِرُ السُلْطَانِيَّةُ، ص 281؛ الرُّوضَتَيْنِ 4: 283). (المُتَرَجِمُ)



شكل 39 صورة عسكري في ترجمة عربية لعمل يوناني قديم عن الخصائص الطبّية للنباتات تمّت في العراق في العام 621هـ = 1224م. معرض فريز، رقم 53.91، واشنطن، صورة التقطها المؤلف



شكل 40 زنبورك مُوضَّح في كتابٍ عن الآلات الحربية، صنَّفه الطَّرشوسِّي لصلاح الدِّين. (المكتبة البودليانية، مخطوطة صيد رقم 261، ورقة 117، أكسفورد)

سُكَّانها العُرْل، فكان هذا آخر العهد بذلكم المركز التِّجاريِّ، الذي كان مُزدهراً في الأيَّام الخوالي. [42]

هُدِّمَتْ دفاعاتُ بلدة الرَّملة بالطَّريقة نفسها، كما هُدِّمَت البيعة الضَّخمة في بلدة لُدَّ، التي كان من الممكن تحويلها إلى معقلٍ. أقام صلاح الدِّين في هذه العُضون مُخيَّمه بالنَّظرون في الثالث عشر من رمضان = التاسع والعشرين من سبتمبر، ثمَّ شرع في عملية مُفاوضاتٍ مديدةٍ - وإن كانت مُتقطَّعةً - مع العدوِّ. وهذا لم يوقف القتالَ؛ إذ بقيت عساكرُ المسلمين تُضايقُ العُزاةَ وتقطعُ خطوطَ اتِّصالاتهم وإمداداتهم، ريثما أمكنهم ذلك. أدرك حينئذٍ صلاح الدِّين - وتكاد تذهبُ نفسه حَسراتٍ - أنَّ جيشه

المُرْهَقَ طَفَحَتْ كَأْسُ صَبْرِهِ، وَيَتُوقُ أَجْنَاذَهُ إِلَى الْعَوْدِ لِدِيَارِهِمْ. فِي الْوَاقِعِ، سُرِّحَتْ الْكَثْرَةُ الْكَاتِرَةُ مِنْهُ فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ 587هـ = الثَّانِي عَشَرَ مِنْ دَيْسَمْبَرٍ، وَفِي إِثْرِ ذَلِكَ تَرَاجَعَ السُّلْطَانُ هُوَ وَكُتَاتِبُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. [43]

إِنَّ الْغَزْوَ الصَّلِيبِيَّ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ وَقَادَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَقْوَى الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ الْغَرْبِيِّ، قَدْ وَصَلَ الْآنَ إِلَى طَرِيقِ مَسْدُودَةٍ. فَلِمَ يَسْتَعِدُّ الْجِهْدَ الْمَسِيحِيَّ النَّاصِبَ إِلَّا شَطْرًا صَغِيرًا مِنْ مَمْلَكَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْأَوْلَى، بَلْ لَمْ يَصِلْ قَرِيبًا مِنْ مَدِينَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْمُقَدَّسَةِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ. فِي حِينِ أَنَّ مَمْلَكَةَ صِلَاحِ الدِّينِ كَانَتْ مُسْتَنْزَفَةً عَسْكَرِيًّا وَمَالِيًّا، بَلْ وَرُوحِيًّا. [43]

بعد أن فشل صلاح الدين في الحصول على كبير دعم من جيرانه المسلمين، قرّر البحث عن سلام، يحفظ له مكاسبه المتبقية. فقدّم معظم كتّابي سيرة صلاح الدين من المتعاطفين هذا القرارَ الإستراتيجيَّ في صورةٍ إيجابيةٍ، بينا صوّب إليه بعضُ مُنتقديه السّهامَ بلا هَوَادَةٍ. وَكَانَ بَهَاءُ الدِّينِ مِنْ أَشَدِّ الْمُعْجِبِينَ بِالسُّلْطَانِ؛ فَوْفَاقَ قَوْلِهِ: "وَلَمْ يَزَلْ... مُصَابِرًا لَهُمْ، وَهُمْ فِي الْعُدَّةِ الْوَافِرَةِ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ لَهُ ضَعْفُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَصَالِحٌ وَهُوَ مَسْئُولٌ مِنْ جَانِبِهِمْ<sup>١٥٤</sup>، فَإِنَّ الضَّعْفَ وَالْهَلَاقَ كَانَ فِيهِمْ أَكْثَرَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ التُّجْدَ، وَنَحْنُ لَا نَتَوَقَّعُهَا".<sup>١٥٥</sup> [43]

أُبرِمَتِ الْمُعَاهَدَةُ بِأَخْرَةِ مَا بَيْنَ يَوْمِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ وَالرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ 588هـ = الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثِ مِنْ سَبْتَمْبَرِ 1192م. وَفِي الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ = التَّاسِعِ مِنْ أَكْتُوبَرِ فَفَلَّ الْمَلِكُ رِثْشَارْدَ عَائِدًا إِلَى مَوْطَنِهِ، وَفِي سَادِسِ عِشْرِي شَوَّالٍ = رَابِعِ نَوْفَمْبَرِ آبِ صِلَاحِ الدِّينِ إِلَى دِمَشْقَ. وَكَذَلِكَ طُوِيَتْ صَفْحَةُ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الثَّلَاثَةِ. [43]

١٥٤ أي بناءً على طلب الصليبيين. (المترجم)

١٥٥ النوادر السلطانية، ص 52. (المترجم)

لم يَرَفُقِ التاريخُ بشاوَرُ بنِ مُجِيرِ. لقد كان واحداً من الوُزراء العسكريين الذين سيطروا على جيش الفاطميين ودولتهم، حتى وصل بهم الأمر إلى الحَجْر على الخليفة نفسه، وذلك بدءاً من ثلاثينيات القرن الحادي عشر فصاعداً. وجرت العادة على عدّهم رموز انحلال الدّولة الفاطميّة. ووافق المؤرّخ الإسرائيلي ياكوف ليف (Yaacov Lev) نَجَمَ ضعفُ الإمام أو الخليفة الشيعيّ الإسماعيليّ في مواجهة هؤلاء الوُزراء عن تغيّرات في هيكل الجيش الفاطميّ.<sup>1</sup> هذا، بالإضافة إلى إدخال نظام الإقطاع العسكريّ - الذي أتبعه صلاحُ الدّين وطبّقه - والتغيّرات في طرائق تجنيد العبيد، الذين كانت جمّهرتهم من فِرَق المُشاة السُودان المُنضويين في حرس الخليفة. [44]

بزغ نجمُ شاوَرِ كَوَالِ عَرَبِيٍّ على الصّعيد<sup>2</sup>، وهي منطقة من مَصْر العليا، ومنها اشتقَّ اسمُ الصّعيديّ. كانت قاعدة دَعْمه الأساسيّة من بين سُكّان هذه المنطقة المحليّين، وبخاصّة القبائل العربيّة البدويّة التي ظلّت قُوّة لا يُستهان بها في الدّيار المِصريّة، لا سيّما في الجنوب؛ إذ شكّلوا فيه أرستقراطيّةً محليّةً. فبدعمٍ من هذا الجيش المِصريّ الجنوبيّ، ثار شاوَرُ على رُزّيك<sup>3</sup> - الوزير أيّامئذٍ - وأطاح به، ثمّ نصّب نفسه وزيراً للعاضد - الخليفة الفاطميّ الشّابّ، الذي لم يكُ له في الواقع لا حَوْلَ ولا قُوّة - في مُحَرَّم 558هـ = ديسمبر 1162م. وفي عمرة الأوضاع الفوضويّة التي كانت تشهدها ديارُ مِصرَ في تلك الآونة، اضطرَّ شاوَرُ إلى الاعتماد على وفرةٍ من الرّجال الأشداء

1 Yaacov Lev, "Infantry in Muslim Armies during the Crusades", in J.H. Pryor (ed.), *Logistics of Warfare in the Age of the Crusades* (Aldershot 2006) p. 193.

2 أيّ قُوص، والصّعيد الأعلى. يُنظر: الروضتين 2: 83؛ وفيات الأعيان 2: 439. ولفضل بيان، راجع: "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الصّعيد الأعلى في العصر الفاطمي" لعبد الحميد حسين

محمود حمودة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الرقازيق، 1988م. (المترجم)

3 الملك العادل الناصر أبو شجاع محيي الدّين رُزّيك بن الصّالح طلائع (556-558هـ = 1160-

1162م). له ترجمة مختصرة في: وفيات الأعيان 2: 529-530. (المترجم)



شكل 41 أطلال مدينة الفُسطاط

الآخرين، بما في ذلك ولداه القاسيان - طي، والكامل - وأكابر قاداته العسكريين - يحيى بن الخياط، وعبد الرحيم البيسانى من فلسطين - واعتمد أيضاً على شخصية سياسية قوية في البلاط الفاطمي، هو الخصي النوبي مؤتمن الخلافة. [44] برغم أن شاوراً لم يكُ وزيراً للدولة الفاطمية إلا لبضع سنين، فإنه حاول أن يُدير أوضاعاً مُشابهة للغاية. فكلُّ من مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين، حاكم بلاد الشام المتنامية قوته، أراد فرض سيادته - بل زبماً الاستيلاء التام - على الديار المصرية. ففي مُحرم 564هـ = أكتوبر 1168م هاجم الملك أمريك الديار المصرية من دون اتفاقٍ مُسبقٍ في تلکم المرة مع الوزير الفاطمي شاور، الذي يبدو أنه كان يسعى

٤ الملقب بالمُعظم، قتله ضرعام - هو وأخاه سُيمان - لما خلع أباهما. يُنظر: الروضتين 2: 84؛ وفيات الأعيان 2: 440. وكان طي قد تعدى طوره وتجاوز حدّه حتى تعاضم على أبيه، ونفذ أمره دون أمر أبيه، وأطلق لسانه في الأمراء، ومدّ يده إلى أموالهم ونساءهم، وبهتتهم في المجالس، وصاح عليهم في المواكب؛ حتى حقدوا عليه. (اتعاظ الخنفا 3: 280). (المترجم)

٥ خرج على شاور في العام 560هـ = 1164م، فكان من أعدائه. (الروضتين 2: 46؛ اتعاظ الخنفا 3: 279). (المترجم)

٦ هو القاضي الفاضل. (المترجم)



شكل 42 بلاطة كاشانية عليها "إيرانيون يُعادرون قلعمة فرود"، وهي إحدى الوقائع في قصيدة الشاهنامة الفارسية الملحمية، ترجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر. (متحف الفنون الجميلة، بوسطن، صورة التقطها المؤلف)

لتشكيل تحالفٍ مع الشّاميين. حتّى سرت شائعةٌ أنّ هناك مُفاوضاتٍ قائمةً لتزويج صلاح الدّين أخت الكامل بن شاورٍ، وتزويج الكامل أخت صلاح الدّين<sup>٧</sup>. وهذا - كما شاع - ربّما لتكوين تحالفٍ قويٍّ ضدّ الفرنج. [44]

سعى شاورٌ في أوقاتٍ مُختلفةٍ إلى التّحالف مع كلّ من الشّاميين المُسلمين السّنة والصّليبيين المسيحيين الكاثوليك تارةً، وإلى مُحاربتهم تارةً أُخرى. وبُرم بذله قُصارى جُهدِه، فشل؛ ومن ثمّ أُطيح به [44] بأخرةٍ في شهر رَمَضان 558هـ = أغسطس 1163م على يد وزيرٍ جديدٍ، هو ضِرغام<sup>٨</sup>. استعاد شاورٌ سلطتَه بعد فترةٍ وجيزةٍ، ومكث وزيراً حتّى اغتياله سنة 564هـ = 1169م. ومن أسفٍ لم يُتذكّر شاورٌ بسبب هزائمه الحربيّة المُتعدّدة - لا سيّما على يد شيركوه وصلاح الدّين بمعركة البابين - فحسب، وإنّما أيضاً بسبب تدمير مُعظم عاصمته سنة 564هـ = 1168م. في الحقّ - وهو الحقُّ الصّراح - ضَخّم هذا التدميرُ المؤرّخون الحريصون على تشويه سُمعة شاور النّحس<sup>٩</sup>. يُبيدُ أنّه قد ظهر من جانبه درجةٌ من قساوةٍ، أو ربّما فُتوط. [45]

William of Tyre, *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, Recueil des Historiens des Croisades: Historiens occidentaux*, vol. 1., Pt 1. trans. Babcock and Krey, Columbia University Press, 1943, p. 948; M.C. Lyons & D.E.P. Jackson, *Saladin: The Politics of the Holy War*, (Cambridge 1982), p. 20, footnotes: 130 & 131.

قلتُ: وأورد أبو شامة هذه الشّائعة العارية من الصّحّة، على لسان أمريك (= عموري) ملك يبت المقدّس، نقلاً عن ابن أبي طي. (الروضتين 2: 102؛ أتعاض الحُتفا 3: 292). ويجدر بالذّكر هنا أنّ الفقرة الواردة بالمتن مدّني بها المؤلّف بعدما تحصّل على هذه المعلومة، طالباً إليّ حذف فقرة كان قد ذكر فيها أنّ شاوراً سعى لتزويج ابنته من صلاح الدّين. (المترجم)

٨ الأمير أبو الأشبال ضِرغام بن عامر بن سوار، كان واجداً من أمراء البرقيّة الذين اصطفاهم الوزير طلائع بن زُرّيك، وترقى حتّى أصبح نائب الباب في القصر الفاطميّ. استطاع التّعلّب على شاورٍ بعد تسعة أشهرٍ من وزارته، وأخرجه من القاهرة وقتل ابنه طياً، ثمّ أصبح وزيراً للعاضد سنة 558هـ = 1163م وتلقّب بالملك المنصور. له ترجمة في: وفيات الأعيان 2: 440؛ أتعاض الحنفا 3: 260-261. (المترجم)

٩ كثر هجاء شاورٍ بغدره ومكره؛ فقال - مثلاً - عرّفة الكلبيّ (ت. 567هـ = 1171م): [من الطويل]

وشاورٌ كلّبٌ للرجال عَقُورٌ .....  
بغى وطغا حتّى لقد قال قائلٌ: على مِثلِها كان اللّعينُ يَدُورُ

يُنظر: الروضتين 2: 59. وعدّد عمارة اليمينيّ غدرات شاورٍ، راجعها في: النكت العصريّة، ص 78-81.

(المترجم)



شكل 43 سُلطانية مطلية بالمينا، عُثِرَ عليها في إيران، وترجع إلى القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفنون الجميلة، بوسطن، صورة التقطها المؤلف)

لقد استولى الصليبيون على بلدة بلبيس المحصنة في الطرف الشرقي من دلتا النيل، وقاموا بنهبها قبل مواصلة السير لمهاجمة القاهرة نفسها.<sup>١٠</sup> وهنا يُقال إنَّ الفُسطاط - العاصمة القديمة الواقعة في الطرف الجنوبي من القاهرة مقرَّ الخلافة الفاطمية - قد أُحرقت بأوامر شاورٍ لمنع وقوع ثروتها بأيدي العدو.<sup>١١</sup> ويميل المؤرخون إلى عدِّ تدمير الفُسطاط في صفر 564هـ = نوفمبر 1168م لحظة فارقة في تاريخ الحروب الصليبية. مع ذلك، تُشير دراساتٌ أثريةٌ حديثة إلى أنَّ الدمار لم يكن - بأية حالٍ من الأحوال - واسع النطاق كما كان يُعتقد فيما مضى.<sup>١٢</sup> كانت هناك عدَّة حرائق على

١٠ أشار ابن الأثير إلى أنَّ أهل الفُسطاط والقاهرة خافوا أن يفعل بهم الفرنج مثل ما فعلوا بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه. ثمَّ ذكر أنَّ الفرنج لو أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة. (التاريخ الباهر، ص 138؛ الكامل 11: 335). ويُظنُّ: الروضتين 2: 48؛ وفيات الأعيان 2: 446. (المترجم)

١١ الخطط المقرَّبية 2: 4، 145. (المترجم)

١٢ ويقول ابن جُبَيْر الذي زار الفُسطاط بعد العام 579هـ = 1184م: "وبمدينة مصر آثارٌ من الخراب

مدار عددٍ من السنين، فلربّما كانت المنطقة الحضريّة بأسرها تعاني حالة تدهورٍ منذ المجاعات والأوبئة المروعة التي تفشّت في الديار المصريّة ما بين سنتي 458 و464هـ = 1066 و1072م. وظلّت المنطقة الواقعة على طول ضفّة نهر النيل الشرقيّة مُزدهرةً، لكن يبدو أن أيّ تجديدٍ أو توسّع للمنطقة المسكونة كان يمتدُّ نحو الجنوب والغرب فوق الأرض، التي خلفها التَّنقُّلُ التَّدريجيُّ لنهر النيل ذاته. ويبقى مصير الأحياء الشرقيّة غير معلومٍ، وعلى الأرجح أن الأطلال، التي بنى خلالها صلاح الدّين سُوره الدّفاعيَّ بعد ذلك، قد هُجرت في هاتيك الأيّام. فضلاً عن ذلك، قد كان لحريق الفُسطاط الكامل [45] في القرن الثاني عشر تأثيرٌ اقتصاديٌّ واجتماعيٌّ كارثيٌّ، لا يوجد له دليلٌ حقيقيٌّ. [46]

## 2 عزّ الدّين مسعودُ بنُ مؤدودٍ<sup>١٣</sup>

بسببٍ من أن صلاح الدّين كان تلکم الشخصيّة المسيطرة على المناطق الإسلاميّة المُتماسّة مع الإمارات الصّليبيّة في أخريات القرن الثاني عشر، جنح مُعاصروه ومُنافسوه إلى تجاهله. وأضحّت ثلّة منهم أيضاً خلفاء صلاح الدّين، بعدما فشلوا في احتواء توسّع سلطته. وكان من أولئك القادة عزّ الدّين مسعود بنُ مؤدودٍ، المعروف أيضاً بمسعود الأوّل. وهو أحد أحفاد عماد الدّين زَنكي العظيم، الذين حكموا دولة زَنكيّة تبنّت أقدامها في الموصل – المدينة الواقعة في شمال العراق – في الفترة من 576 إلى 589هـ = 1180 إلى 1193م. سرعان ما ابتلع الفرعُ الموصلّي الفرعَ الشاميّ من الأسرة الزَنكيّة بُعيد وفاة نور الدّين<sup>١٤</sup>، بيّد أن هذا جعلهم يُواجهون قوّة صلاح الدّين

الذي أحدثه الإخراقُ الحادثُ بها وقت الفتنة عند انتساح دولة العُيُديين، وذلك في سنة أربع وسبّتين وخمّس مئة، وأكثرها الآن مُستجدّ والبيان بها مُتّصلٌ“. (رحلته، ص 29). (المترجم)

١٣ الملك عزّ الدّين مسعود الأوّل بنُ قُطب الدّين مؤدود بنِ عماد الدّين زَنكي الكبير (576-589هـ = 1180-1193م). كان يشغل منصب مُقَدّم الجيش إبّان حكم أخيه سيف الدّين غازي الثاني. ترجمته في: التاريخ الباهر، ص 181؛ وقِيّات الأعيان 5: 203؛ الأغلاق الخطيرة 1/3: 227-228. (المترجم)

١٤ أوصى الملك الصّالِح إسماعيل بنُ نور الدّين قُبيل موته في رَجَب 577هـ = ديسمبر 1181م بتسليم حَلب لابن عمّه عزّ الدّين مسعود صاحب الموصل، فكان آخر العهد بدولة نور الدّين في الشّام.

الصَّاعِدَةَ. وِبُرْغَمِ أَنَّ السُّلْطَانَ الْمِصْرِيَّ فَشَلَ مَرَّتَيْنِ فِي غَزْوِ الْمَوْصِلِ - مَرَّةً فِي سَنَةِ 578هـ = 1182م، وَأُخْرَى فِي 581هـ = 1185م - أَفْرَ مَسْعُودَ بْنَ مَوْدُودٍ بِسَيَادَتِهِ الْأَسْمِيَّةِ سَنَةَ 579هـ = 1183م. [46]

حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ عِزُّ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ مَوْدُودٍ أَتَابِكًا لِلْمَوْصِلِ وَاجِهَ صِلَاحَ الدِّينِ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ. وَقَدْ كَانَ هَذَا - فِي الْحَقِيقَةِ - اشْتِبَاكًا مُثِيرًا لِلْاهْتِمَامِ بِشَكْلِ خَاصٍّ بِمَعْرَكَةِ قُرُونِ حَمَاةَ، وَهُوَ الْأَسْمُ الَّذِي بَدَأَ وَكَانَتْ بُشَارَةً لِانْتِصَارِ صِلَاحِ الدِّينِ الْمُؤَزَّرِ بَقُرُونِ حَطِّينَ. وَقَعَتِ الْمَعْرَكَةُ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ 570هـ = الثَّلَاثَ عَشَرَ مِنْ إِبْرَيْلِ 1175م؛ إِذْ تَاهَبَ جَيْشُ صِلَاحِ الدِّينِ، الَّذِي كَانَتْ جَمَهْرَتُهُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَسَاكِرِ مَنْ دِمَشْقَ الْمَفْتُوحَةَ حَدِيثًا، ضَدَّ جَيْشِ الْمَوْصِلِ الزُّنْكِيِّ مِنْ شِمَالِ الْعِرَاقِ. جُمْلَةُ الْقَوْلِ، يَبْدُو أَنَّ الْعَسَاكِرَ الشَّامِيَّةَ - رُبَّمَا أَيْضًا الْمِصْرِيَّةَ - كَانَتْ لَدَيْهَا خَيْرَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ أَكْبَرَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْأَجْنَادِ الْقَادِمِينَ مِنَ الْمَنَاطِقِ الْوَاقِعَةِ تَحْتَ حُكْمِ الْمَوْصِلِ وَحُلْفَائِهَا. [46]

رَتَّبَ - وَفَاقَ بَعْضَ الْمَطَّانِّ - جَيْشَ الْمَوْصِلِ عِزُّ الدِّينِ، أَخُو سَيْفِ الدِّينِ غَازِي الثَّانِي<sup>١٥</sup>، الَّذِي كَانَ يَحْكُمُ الْمَوْصِلَ آنَ ذَاكَ. كَانَ لَسَيْفِ الدِّينِ أَيْضًا أَمِيرٌ كَبِيرٌ يَسْتَشِيرُهُ، اسْمُهُ زُلْفَنْدَارٌ. ١٦ بَدَأَ فِي أَوَّلِ الْمَعْرَكَةِ كَمَا لَوْ أَنَّ كِلَا الْجَمْعَيْنِ قَدْ تَعَبَّأَ وَفَقَّ الطَّرِيقَةَ الْمَأْلُوفَةَ فِي الْقِتَالِ دُونَمَا حَلَلٍ؛ فَلِكُلِّ مِنْهُمَا قَلْبٌ وَجَنَاحَانِ. مَعَ ذَلِكَ، وَبَيْنَا كَانَ صِلَاحُ الدِّينِ يَقُودُ الْقَلْبَ، كَانَ لَدَيْهِ أَيْضًا فُؤَاتٌ اِحْتِيَاطِيَّةٌ كَامِنَةٌ وَرَاءَ تَلٍّ قَرِيبٍ عَالٍ أَوْ مَخْرُوطِيٍّ صَغِيرٍ، كَانَتْ فِيهِ آتَارٌ لِمَوْجِعِ مُسْتَوْتِنَةٍ قَدِيمَةٍ. وَوَفَاقَ رَوَايَةَ ابْنِ الْأَثِيرِ الْمُؤَرِّخِ الْمُعَاصِرِ: [46]

”فَالْتَقُوا تَاسِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ [13 إِبْرَيْلِ 1175م]، بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ حَمَاةَ، بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ قُرُونِ حَمَاةَ. وَكَانَ زُلْفَنْدَارٌ جَاهِلًا بِالْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ، غَيْرَ عَالِمٍ بِتَنْدِيرِهَا، مَعَ جُنْبِنٍ فِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ رَزِقَ سَعَادَةً وَقَبُولًا مِنْ سَيْفِ الدِّينِ [أَتَابِكِ الْمَوْصِلِ].

(التاريخ الباهر، ص 182؛ الكامل 11: 472؛ مرآة الزمان 21: 278-279؛ الروضتين 3: 77؛ مفرج

الكروب 2: 107-108). (المترجم)

١٥ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي الثَّانِي بْنِ قُطْبِ الدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زُنْكِيِّ الْأَوَّلِ (565-576هـ = 1170-1180م)، صَاحِبِ الْمَوْصِلِ. لَهُ تَرْجُمَةٌ فِي: التَّارِيخِ الْبَاهِرِ، ص 180؛ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ 12: 588-589. (المترجم)

١٦ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ مُحَمَّدِ زُلْفَنْدَارِ. (الكامل 11: 421). (المترجم)

فلَمَّا التقى الجَمْعَانِ لم يَتَبَتِ العَسْكَرُ السَّيْفِيُّ، وانهمروا لا يلوي أخ على أخيه. وثبت عزُّ الدِّينِ - أخو سيفِ الدِّينِ - بعد انهزام أصحابه. فلَمَّا رأى صلاح الدِّينِ ثباته، قال: 'إِذَا أَن هَذَا أَشْجَعُ النَّاسِ، أو أَنَّهُ لا يعرف الحرب'. وأمر أصحابه [على الأرجح القُوَّات الاحتياطية الكامنة] بالحملة عليه، فحملوا فأزالوه عن موقفه، وتمَّت الهزيمة عليهم". ١٧ [46]

تذكر تفاصيلُ أخرى عن هذه المعركة أُحادية الجانب أنَّ عساكر صلاح الدِّينِ أُجبرتِ العدوُّ على الابتعاد عن "أثقالهم ودوابهم ومشاطهم"؛ ممَّا يبدو أنَّها إشارةٌ أخرى للهجوم الجانبي المفاجئ من قِبَل القُوَّات الاحتياطية الكامنة. فأخذت أعدادٌ كبيرةٌ من الأسرى، وامتلئ صلاح الدِّين لنصيحة جمع من الفقهاء العسكريين بالألَّا يُسَمَّح بتعرضهم لأذى. إنَّه كان مُدركًا تمامًا أنَّ هؤلاء الرجال قد يكونون حُلَفَاءَ مُستقبليين، أو حتَّى أفرادًا في جيشه. أُخذت أيضًا أعدادٌ غفيرةٌ من الخيول بمعركة قُرون حَمَاة، حتَّى قيلَ إنَّ جُنْد صلاح الدِّين من الرِّجَال صاروا مُشاةً فرسان. ١٨ [47]

### 3 رينالد دي شاتيون

هناك نَزْعَةٌ إلى عدِّ رينالد دي شاتيون - الذي يُعرف في بعض الأحيان بـ "فيل المسيح" ١٩ - (إِذَا كبطلٍ رومانتيكيٍّ قدَّم رؤيةً إستراتيجيةً عجيبةً، وإمَّا كقاطعٍ طريقٍ سفَّاكٍ للدماء أفسدته سنونَ قضاها كأسيرٍ حربٍ في زِنَانَةٍ تُرْكِيَّةٍ. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه كان شجاعًا، وسيماً. وعقيب مَقْدَم رينالد دي شاتيون إلى الإمارات الصَّلبيَّة من فرنسا بلا ثروةٍ وبلا كثيرٍ أتباعٍ سنة 548هـ = 1153م، ظفر بيد كونستانس أميرة أنطاكية

١٧ ابن الأثير: [الكامل]، ص 236.

١٨ خلط المؤلف بين معركة قُرون حَمَاة وبين معركة تلِّ السُلطان، التي وقعت قُرْب حَلَب في 10 شَوَّال 571هـ = 22 إبريل 1176م، فظنَّ أنَّهما معركةٌ واحدةٌ! (سنا البرق الشامي، ص 94-95؛ الروضتين 2: 398، 400-401). (المترجم)

١٩ B. Hamilton, "The Elephant of Christ: Reynald of Châtillon", in D. Baker (ed.), *Religious Motivation: Biographical and Sociological Problems for the Church Historian: Studies in Church History* xv (Oxford 1978) pp. 97-108.



شكل 44 إحدى خَوْدَتَيْنِ من العصور الوسطى مصنوعة من جلد التمساح، عُثِرَ عليهما في التُّوبَة قُرْب الحدود بين مِصْر والسُّودان. (متحف برلين الوطني، صورة ج. لورنتياس)

(Princess Constance of Antioch). ٢٠. يَبْدَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَسْرُوهُ؛ فَقَضَى السَّنِينَ مِنْ 557 إِلَى 570هـ = 1161 إِلَى 1175م سَجِينًا فِي حَلَب. وَهَذَا لَمْ يُخَلَّفْ فِيهِ بُعْضًا شَدِيدًا لِلْإِسْلَامِ فَحَسِبَ، وَإِنَّمَا مَعْرِفَةٌ دَقِيقَةٌ بِثِقَافَةِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْإِسْلَامِيِّ أَيْضًا. وَفِي قَابِلِ السَّنِينَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُحَقِّقِينَ فِي عَدِّ أَرْنَاطِ (Arnat) - وَهُوَ اسْمٌ أُطْلِقُوهُ عَلَى رَيْنَالْدِ - أَلَدَّ خُصُومَهُمْ وَأَنْكَاهُمْ. ٢١. [47]

لَمَّا آتَى أَوَانُ إِطْلَاقِ سَرَاحِ رَيْنَالْدِ دِي شَاتِيُونِ، كَانَتْ زَوْجَتُهُ كُونِسْتَانَسْ قَدْ مَاتَتْ؛ فَتَزَوَّجَ عَلَى الْفُورِ وَرِثَةِ لُورْدِيَّةِ صَلْبِيَّةِ بِأَقْلِيمِ مَا وَرَاءَ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ. ٢٢. وَهَنَّاكَ أَقَامَ دَوْلَةً قَوِيَّةً دَاخِلَ الدَّوْلَةِ، رُبَّمَا رَجَاءً أَنْ تَكُونَ يَوْمًا مَا مُسْتَقَلَّةً مِثْلَ كُونْتِيَّةِ طَرَابُلُوسَ، أَوْ حَتَّى إِمَارَةً أَنْطَاكِيَّةً. [47]

٢٠. كان رينالد دي شاتيون قد تزوجته كونستانس، أرملة ريموند بواتيه صاحب أنطاكية، سنة 548هـ = 1153م؛ إذ كان ابنها بوهيموند الثالث في الخامسة من عمره، غير أن أرناط أسرته نور الدين محمود بعد فترة قصيرة. (التاريخ الباهر، ص 99؛ طه الطراونة: "المرأة الصليبية دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام"، ص 94؛ أميرة مصطفى يوسف: "السياسة الداخلية والخارجية لأرناط حاكم الكرك خلال المرحلة من 1177-1187م"، ص 174). (المترجم)

٢١. راجع: "العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين 1187م" لمحمد رزق محمود، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1973م. (المترجم)

٢٢. لَمَّا حَرَّجَ أَرْنَاطُ مِنَ الْأَسْرِ تَزَوَّجَ سَنَةَ 571هـ = 1176م الْأَمِيرَةَ سَتِيفَانِيَا دِي مِيلَلِي (Stephania of Milly)، وَرِثَةَ عَرْشِ الْكُرْكِ وَالشُّوْبُكِ، وَكَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَهُ هَمْفَرِي الثَّلَاثِ (ت. 569هـ = 1173م)، ثُمَّ مِيلَزْ دِي بِلَانَسْ (Miles of Plancy)، لَكِنَّهُ سَرَّعَانَ مَا قُتِلَ فِي أَوَائِلِ 570هـ = أُخْرِيَاتِ 1174م. يُنظَرُ: "السياسة الداخلية والخارجية لأرناط حاكم الكرك"، ص 177. راجع أيضًا: "المرأة الصليبية في بلاد الشام 1098-1267م" لسهير ملبجي، رسالة دكتوراة، كلية البنات - جامعة عين شمس، 2002م؛ "الزيجات السياسية لدى الصليبيين في بلاد الشام وأطراف العراق وأثرها في الحركة الصليبية في الشرق" لهاني زحير، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2004م؛

Carole Hillenbrand, "Some Reflections on the Imprisonment of Reynald of Châtillon". In Robinson, Chase F. (ed.). *Texts, Documents and Artefacts: Islamic Studies in Honour of D.S. Richards*. Brill, 2003, pp. 79-102. (المترجم)

لم يكن هناك، من بين جميع حملاته العسكرية المذهلة، أهم من تلك الحملة التي شنّها - لكنه لم يقُدّها بنفسه - في شتاء 1182-1183م (= 578-579هـ). كان رينالد - وفاق المؤرّخ الصليبيّ إرنول (Ernoul)<sup>٢٣</sup> - يمتلك خمسَ شوانٍ<sup>٢٤</sup>، بينما تُشير مصادِرُ أُخرى إلى أسطولٍ صغيرٍ، مُكوّن من خمسٍ إلى عشرٍ سفنٍ، وعلى الأرجح أنه تكوّن من أنواعٍ مُتعدّدةٍ من سفنٍ قد أُخذت قِطعًا إلى البحر الأحمر.<sup>٢٥</sup> [47]

إنّ اختيار ميناء عيذاب<sup>٢٦</sup> - القريب الآن من الحدود بين مِصر والسُودان - كهدفٍ رئيسٍ لأسطول رينالد، أبان عن معرفةٍ مُفصّلةٍ بطرق التجارة والحجّ. هذا أيضًا أحد العوامل العديدة التي تثبت أنّ المهاجمين قد تلقوا دعمًا محليًا من بحارةٍ أو تجّارٍ حاذقين. لو نجحت هجمات رينالد لكانت شطرت العالم الإسلاميّ إلى شطرين. وقد كان لها - لا محالة - تأثيرٌ هائلٌ في تجارة المسلمين مع الهند، وربما أسست لعلائقٍ مُباشرةٍ بين أوربا المتوسطية والمحيط الهنديّ قبل ثلاثة قرونٍ من عصر الاستكشاف [47] العظيم. [48]

من المُحتَمَل أنّ صلاح الدّين كان لديه شواغلٌ أكثر إلحاحًا، مثل احتمالية تواصل رينالد مع العناصر المؤيِّدة للفاطميين الباقية في الصّعيد الأعلى والثّوبة واليمن، فضلًا عن التّهديد بإقامة تحالفٍ حقيقيّ (وليس وهميًا) بين الإمارات الصليبيّة المسيحية والممالك الإفريقيّة المسيحيّة في الثّوبة وإثيوبيا. في الحقّ، لقد فاقت رؤية رينالد دي شاتيون الإستراتيجيّة العجيبة قدراته العسكريّة. فباءت الهجمات بالفشل، ولم تؤدّ إلاّ لتقوية عزم صلاح الدّين على سحق الصليبيين مرّةً واحدةً، وإلى الأبد. أسهمت

٢٣ مولى الأمير باليان حاكم مدينة يَبْنَى، وسائسُه، وشاهدٌ عيَانٍ على سقوط مملكة بَيْت المقدّس، وُضِعَ ذبلاً على تاريخ وليم الصّوريّ. للمزيد عنه، يُنظَر:

Helen Nicholson (2006), "Ernoul". In Alan V. Murray (ed.). *The Crusades: An Encyclopedia*. 4 vols. ABC-CLIO. vol. 2, pp. 407-408. (المترجم)

Ernoul (tr. M.L. De Mas Latrie), *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier*, vol. II (Paris 1871) p. 69. ٢٤

G.L. Leiser, "The Crusader Raid in the Red Sea in 578/1182-3", *Journal of the American Research Center in Egypt*, 14 (1977) pp. 87-100. ٢٥

مدينة تقع على ساحل بحر القلزم (= الأحمر)، ومنها كان يُعبّر البحر إلى ثغر جدّة بأرض الحجاز. (مفرج الكروب 2: 1؛ صبح الأعشى 3: 468؛ الخطط المَقْرِيزيّة 1: 549هـ). ٢٦

(المترجم)

أيضًا في غضب السلطان شخصيًا من سيد إقليم ما وراء نهر الأزدن، ويُنسب إليه قتله - أو توجيهه أول ضربة له، على أقل تقدير - بعد معركة حطين. ٢٧ [48]

#### 4 أمريك ملك بيت المقدس

أمريك<sup>٢٨</sup> هو ابن فولك دي أنجو (Fulk of Anjou)<sup>٢٩</sup> وميليسندا (Melisende) ملكة بيت المقدس، والأخ الأصغر للملك بلدوين الثالث (Baldwin III). كان أول منصب له في السلطنة هو قومص يافا (Count of Jaff) الذي لم يتولّه إلا عامًا واحدًا؛ لأنه اختلف مع أخيه، الملك. فاسترجع بلدوين أعمال<sup>٣٠</sup> يافا، وأضاف إليه أعمال عسقلان نحو سنة 549هـ = 1154م. أمّا أمريك فاعتلى سدة الحكم بعد تسع من السنين، ففضى شطرًا كبيرًا من حكمه محاولًا - مع بعض النجاح - تقوية تاج بيت المقدس، مادّيًا وقانونيًا وسياسيًا وعسكريًا. ولعمري إنه يعدُّ أحد أكثر حكام المملكة الصليبيّة نجاحًا. [48]

وجّه جلّ اهتمامه للديار المصريّة؛ إذ تاح اضمحلال الخلافة الفاطميّة إمكانية التّحصّل على ثروة ضخمة، وفرضية التّوسّع الإقليمي. مع ذلك، كان نور الدّين صاحب بلاد الشّام على دراية مُمائلةٍ بإمكانيات مصر، وهذا أدّى إلى سلسلةٍ مهمّةٍ من الحملات من أجل السّيطرة على الدّيار المصريّة من قِبَل هذين الحاكمين

٢٧ نذر صلاح الدّين قتله مرّتين: الأولى لمّا أراد أنْزاع المسير إلى مكّة والمدينة، والأخرى لمّا غدر بالقافلة القادمة من مصر إلى الشّام، وقال لهم: "قولوا لمحمّدكم يُخلّصكم!"، فهنا قال له صلاح الدّين: "ها أنا أنْتَصِرُ لمحمّد!" (النوادر السلطانية، ص69؛ مفرج الكروب 2: 194-195؛ سير أعلام النبلاء 21: 285). فرحم الله صلاح الدّين المُتصّر للبيّ ﷺ. (المترجم)

٢٨ أو عموري الأول. (المترجم)

٢٩ أو فولك الأنجوي (525-537هـ = 1131-1143م)، ابن فولك الرابع كونت أنجو، وُلِدَ في العام 484هـ = 1091م، وقام بالحجّ إلى فلسطين سنة 515هـ = 1121م، ثمّ قَدِمَ إليها مرّةً أخرى سنة 523هـ = 1129م بناءً على دعوةٍ من الملك بلدوين الثاني ليُزوِّجه ابنته ميليسندا. وتولّى عرش مملكة بيت المقدس سنة 525هـ = 1131م وهو في الأربعين من عمره. لمزيد بيان، راجع: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ص652-656. (المترجم)

٣٠ أي قري. (المترجم)



شكل 45 ذخيرة موادّ من درج منسي في قلعة دِمَشق. (المتحف الوطني السوري، قسم الترميم، دمشق، صورة التقطها المؤلّف)

المُتَنافِسين<sup>٣١</sup> فأما الملك أمليّك فقام بهذه الحملات - في الغالب - بالتّحالّف مع الإمبراطورية البيزنطيّة، وتضمّنت عدداً من [48] الحصارات العنيفة. فعلى سبيل المثال، عقّيب انتصار شيركوه وصلاح الدّين على جيش الحُلفاء - الفاطميين ومملكة بيت المقدس - بمعركة البابين، انسحب شيركوه إلى الإسكندريّة، التي كانت قاعدته الأساسيّة في الدّيار المصريّة. [49]

ترك الملك أمليّك بعض السفن قبالة القاهرة قبل توجّهه إلى الإسكندريّة؛ خشية وصول إمدادات غذائيّة - وقتنذ - إلى جيش شيركوه من الصّعيد. ثمّ أقام مُعسكرًا بين كوم ترؤجة<sup>٣٢</sup> ودمنهور، أي على بُعد قرابة ستين كيلومتراً من الميناء المصريّ العظيم.

٣١ راجع: "الصّراع بين نور الدّين بن زنكي والملك الصّليبيّ عموري الأوّل للسيطرة على مصر في روايات المصادر العربيّة والصّليبيّة المعاصرة" لناصر عبد الرزاق الملا جاسم ومحمد عبيش سبّاك، ص 1-16. (المترجم)

٣٢ أو ترؤجة، قرية من كورة البحيرة من أعمال الإسكندريّة، وأكثر ما يُزرع بها الكمون. (معجم

رُبَّما كان ينتظرُ كَشَافَةً لِيُبلِغوه بالأوضاع في الإسكندريَّة، أو رُبَّما خشي أن يكون منسوب المياه في خليج الإسكندريَّة مُنخفِضًا؛ فلا تستطيع سفنُه العبور منه. لا شكَّ في أنَّ مستوى نهر النيل ظلَّ ينخفضُ حتَّى فيضان النيل السنويِّ. وأمَّا شيركوه فقَرَّر تقسيمَ قُوَّاته؛ إذ ترك صلاح الدين ليدافع عن الإسكندريَّة، بيَّنا عاد هو إلى الجنوب مع جُلِّ جيشه. [49]

حينما عرف الملك أمليرك أنَّ شيركوه قد تخطَّاه، ارتدَّ على آثاره قَصَصًا وانضمَّ إلى حليفه الوزير الفاطميِّ - شاورٍ - في القاهرة. ثمَّ راودتْ ملكَ بَيْت المقدس فكرةً ثانيةً، إذ لمَّا علم أنَّ هناك تخوُّفًا من حدوث مجاعة في الإسكندريَّة، كَرَّر راجعًا لِيشدِّد الحصارَ عليها. فدام الحصارُ من شهر رَجَب إلى نِصْف شَوَّال = مُستَهَلَّ مايو إلى الرابع من أغسطس، تخلَّله قَصْفٌ شديدٌ بالمجانيق، فضلًا عن إحكام الحصار. بيَّد أنَّ السكَّان المحليين ظلُّوا يُدعمون صلاح الدين وعساكره. ساعد أيضًا كثيرٌ من التُّجَّار الأجانب في الدِّفاع عن الإسكندريَّة، وفي الوقت نفسه شنَّ نورُ الدِّين هجماتٍ تضليليَّةً ضدَّ الإمارات الصليبيَّة في الشَّام. وواصلَ شيركوه حملته في صعيد مصر - أي خلف ساقه أمليرك - غير أنَّه اضطرَّ في النهاية إلى العودة إلى الشمال، ونَهَدَ إلى مُفاوِضاتٍ لعقد هُدْنَةٍ. لقد كانت الأوضاع الآن في الإسكندريَّة سيئةً، وتبعًا لذلك قدَّم شيركوه والشَّاميون أكبرَ قَدْرٍ من التنازلات. [49]

كان شغل صلاح الدين الشَّاعِل إعادة المرضى والمُصابين بِسلامٍ إلى الشَّام، فوافق دراسةً أعدَّها عُمران<sup>٣٣</sup>، المؤرِّخ والأستاذ الجامعيِّ المصريِّ: "طلب من أمليرك أن يَسْمَح له بأن يُخرَجوا في مراكب، لكن لمَّا وصلوا عكَّا أُجبر أولئك الذين تعافوا، على العمل في مزارع القصب، ولم يُسْمَح لهم بالمُغادرة إلى دِمَشق إلَّا بعد أن تدخل أمليرك شخصيًّا".<sup>٣٤</sup> [49]

البلدان 2: 27-28). وهي الآن "تروجي" إحدى قرى مركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة.

(المترجم)

٣٣ الأستاذ الدكتور محمود سعيد عُمران (1933-2015م)، أستاذ تاريخ وحضارة أوربا في العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية. (المترجم)

٣٤ Omran, M.S., 'King Amalric and the Siege of Alexandria, 1167', in Edbury, P.W. (ed.), *Crusade and Settlement* (Cardiff, 1985) p. 195.

قلتُ: اعتمد الدكتور عُمران على (الروضتين 2: 98-99؛ أتعاط الحُنفا 3: 286). ويُنظر بحثه:

"حصار الصليبيين والقوات الفاطميَّة لصلاح الدِّين في مدينة الإسكندرية ٥٦٢هـ = ١١٦٧م"،

في الواقع، أدّى فشل حُطَط أمريك الخاصّة بالديار المِصرّيّة<sup>٣٥</sup> أن صارت قاعدّة لِقوّة جديدة أكثر تهديداً، أعني قوّة صلاح الدّين. تُوفّي أمريك في ذي الحِجّة 569هـ = يوليو 1174م، بُعيد بضعة أسابيع من وفاة نور الدّين، وكان وريثه - الملك البائس بلدوين الرابع (Baldwin IV)<sup>٣٦</sup> - طفلاً يعاني من الجُدَام. [49]

## 5 رتشارد ملك إنكلترا

في الحقّ، كان رتشارد الأوّل ملك إنكلترا - المعروف بقلب الأسد (Coeur de Lion) - فرنسيّاً. وُلِدَ في العام 552هـ = 1157م، واكتسب مهارات الإدارة والحرب حينما كان ذوق إقطاعيّة أقطانية (أكيتاين = Aquitaine) الشّاسعة، نيابة عن والده الملك هنري الثاني (Henry II).<sup>٣٧</sup> يبيد أنّ رتشارد لمّا كان كُونت بيطو<sup>٣٨</sup> (Poitou = بواتو)، وقد سار اسمه مَسِيرَ الشمس في الأقطار، لم يُعدّ ذاك الابن البارّ. إذ تمرّد على والده في سنتي 568-569هـ = 1173-1174م، ومرةً أخرى في سنة 584-585هـ = 1189م، لكن تُوفّي الملك هنري الثاني في السنة نفسِها؛ فأمسى رتشارد حاكم إنكلترا والجزء الأكبر من جنوب غرب فرنسا. [49]

إنّ دافع رتشارد - مثله مثل جنسه - موضع نقاش أكاديمي ساخن. وسيراً على منوال مُنافسه العظيم - فيليب أغسطس ملك فرنسا (Philip Augustus of France) -

مؤتمر علمي محليّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، إبريل ١٩٩٨م، العدد ٢٠٠؛ سارة أحمد حسن: "الأسرار الإستراتيجية لمدينة الإسكندرية في عصر الحروب الصليبية"، ص 47-62. (المترجم)

٣٥ وعن النزاع على الديار المِصرّيّة بين نور الدّين والملك أمريك، يُنظر: "نور الدّين والصليبيون" لحسن حبشي، ص 101-144. (المترجم)

٣٦ الملك بلدوين الرابع المعروف بالأبْرَص (= المَجْدُوم)، حكم مملكة بيت المقدس في هذه الفترة (570-579هـ = 1174-1183م). ويُنظر عنه:

Campisi, Roberto; Mambretti, Renato, *Baldovino IV re di Gerusalemme: Il Ragazzo che Sfidò Saladino*. Art 2011. (المترجم)

٣٧ ملك إنكلترا في هذه الفترة (549-585هـ = 1154-1189م). يُنظر: ذيل وليم الصوري، ص 66. (المترجم)

٣٨ عربتها وفاق تعريب الإذريسيّ. (نزهة المُشتاق، ص 725). (المترجم)



شكل 46 فارس مُترجِّل. (مجموعة كير، لندن)

استخدم الملك رتشارد المشاركة في حملة صليبية وسيلة لتعزيز سمعته. في الواقع، قبيل وفاة والده هنري "أخذ الصليب" مُعلِّناً أمام الملأ عن نيته في شن حملة صليبية لاستعادة الأرض المقدسة من صلاح الدين. وبرغم أن هذا التصريح أضفى على الملك رتشارد احتراماً داخل مملكته، فمن المحتمل أن يكون من الخطأ عدّه خُدعةً سياسية أو مُغامرةً حرييةً لا غير. إذ كتَب المؤرِّخ ديفيد كاربنتر (D. Carpenter):<sup>٣٩</sup> "بالنسبة لشخصٍ كثيراً ما يفترسه إحساسٌ مرَضِيٌّ من جراء إثمه، كانت المنافعُ

٣٩ ديفيد أ. كاربنتر (1947م-)، مؤرِّخ وكاتب بريطاني. (المترجم)

الرُّوحِيَّةُ لِلحَمَلَةِ الصَّلِيْبِيَّةِ - مع الوَعْدِ بغفران كُلِّ الذنوب - آسِرَةً. وسنحتِ الفُرْصَةَ لمُمارَسةِ المواهبِ العسْكَرِيَّةِ... ليس ضد المسيحيين من بني جِلْدَتِهِ، ولكن ضدَّ الكُفَّارِ<sup>٤٠</sup>؛ لا جَرَمَ أَنْ كان رِثْشارْدَ ملك إنكلترا - وليس فيليب ملك فرنسا - هو مَنْ وَحَدَ القُوَّاتِ المُخْتَلِفَةَ لِلحَمَلَةِ الصَّلِيْبِيَّةِ الثالثةِ في قُوَّةٍ قِتالِيَّةٍ فَعَّالَةٍ تحت قيادته، وتأتى له ذلك عبر جاذبيَّته الفائقةِ وَجِدْقِهِ التامَّ بالحرب. [50]

من جانبٍ آخَرَ، أخذ رِثْشارْدَ القسوةَ التي قد تَعَلَّمَهَا في أُورْبَا معه إِبَّانَ حملته الصَّلِيْبِيَّةِ. فعندما استسلمتُ حاميةٌ عكًّا المُنْهَكَةُ في جُمادَى الآخِرَةِ 587هـ = يوليو 1191م، اتَّفَقَ على شروطٍ لافْتِدَاءِ المأسورين. مع ذلك، كانت هناك تأخيراتٌ في الدَّفْعِ<sup>٤١</sup>؛ لذلك ذبح الملك رِثْشارْدَ الكثرةَ الكثيرةَ من الأسرى وعائلاتهم على مرأى من يَزْكُ صلاحِ الدِّينِ. حاول اليَزْكُ تدارِكُ الأمرِ؛ لكنَّهم كانوا في قِلَّةٍ؛ فلم يستطيعوا إنقاذ رفاقهم، بيِّنا كان أغلبُ جيشِ صلاحِ الدِّينِ بعيداً؛ فلم يَسْطِيعَ نَجْدَتَهُمْ. [50]

بُعَيْدَ انتصارِ رِثْشارْدَ خارجِ أَرْمُوف، كان يأملُ - من الواضح - في التَّقَدُّمِ شَطْرَ بَيْتِ المَقْدِسِ. وهُنالك - مع ذلك - جَدَّدَ صلاحُ الدِّينِ التَّحْصِيْناتِ، وشحنها بالجُنْدِ، وجعلها في وُضْعِ الدَّفْعِ. سعى كِلا القائِدينِ إلى تحفيزِ جنودهما عبر خَلْقِ أُسوةٍ حَسَنَةٍ في شخصيهما. ففي الوقت الذي كان فيه رِثْشارْدُ يُحارِبُ - في أكثر الأحيان - في الخطوط الأمامية للمعركة، كان صلاحُ الدِّينِ يحملُ الصَّخْرَ على سَرَجِ حصانه - لبناءِ دِفاعاتِ بَيْتِ المَقْدِسِ<sup>٤٢</sup>. من البيِّنِ أَنَّ كليهما عانى أشدَّ المُعاناةِ من زمهريهِ الشِّتَاءِ، لكن يبدو أَنَّ الأمورَ كانت عند الصَّلِيْبِيِّينِ أسوأ، لا سيَّما لَمَّا حاول رِثْشارْدُ التَّقَدُّمَ قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ عبر الأمطارِ والأوحالِ. فبعدها ذاق رِثْشارْدُ الأَمْرَينِ من مُضايقاتِ المُسْلِمِينَ؛ ومن ثَمَّ وقف عاجزاً عن التَّقَدُّمِ أكثر، أمر - في نهاية المطاف - بالانسحابِ في منتصفِ ذِي الحِجَّةِ 587هـ = الثامن من يناير 1192م. [50]

٤٠ D. Carpenter, *The Struggle for Mastery, Britain 1066-1284* (London, 2003) p. 246.

٤١ لم يفرغ الفَرْنِجُ من تعيين المئة أسير المعْيِينِ؛ ومن ثَمَّ لم يحضرهم المُسْلِمُونَ، ولم يزالِ الفَرْنِجُ يطاولون ويُقَضُّون الرِّمَانَ حَتَّى انقضى موعِدُ الدَّفْعَةِ الأوَّلَى في الثامن عشر من رَجَبِ 587هـ =

الحادي عشر من أغسطس 1191م. (النوادر السلطانية، ص261). (المترجم)

٤٢ الإفادة والاعتبار، ص43-44؛ الفتح القُسِّي، ص343؛ الكامل 12: 74؛ الروضتين 4: 297؛ سير أعلام النبلاء 21: 282؛ تاريخ الإسلام 12: 892-893؛ طبقات الشافعية للشُّبْكِيّ 7: 347-348.

(المترجم)

شهدت الأشهر الأخيرة من الحملة الصليبية الثالثة بعض المناوشات والكمائن المثيرة تكتيكياً، غير أن العمليات العسكرية كانت تحدث وقتئذٍ على نطاقٍ ضيقٍ. فأمسّت الدبلوماسية والتفاوض أكثر أهمية، وقد كان صلاح الدين أبرع من ريتشارد في هذين الميدانين. [51]

## مُعْتَقَدَاتٌ، وَأَمَالٌ<sup>١</sup>

لا مِرَاءَ فِي أَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ اسْتِخْدَمَ الدِّينَ لِتَقْوِيَةِ وَضْعِهِ السِّيَاسِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ وَالِدِيلُومَاسِيِّ، لَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ سَبَبٌ لِافْتِرَاضِ أَنَّ تَقْوَاهُ الشَّخْصِيَّةَ لَمْ تَكُنْ صَادِقَةً. إِذْ لَمْ يُوجَدِ سَبَبٌ يَجْعَلُ إِيمَانَهُ وَطُمُوحَاتِهِ يَصْطَدَامَان. فَلَعَمْرِي إِنَّهُمَا سَارَا جَنِبًا إِلَى جَنِبٍ عَلَى الدَّوَامِ، فَعِنْدَمَا سَافَرَ صِلَاحُ الدِّينِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِلِاحْتِفَالِ بِ”عِيدِ الْأَضْحَى“ فِي الْعَامِ 584هـ = 1189م<sup>٢</sup>، أَكَّدَ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ الْأَهْمِيَّةَ الدِّيْنِيَّةَ لِلْمَدِينَةِ الَّتِي قَدْ أَعَادَهَا إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ. مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَإِنَّ وَعِي صِلَاحَ الدِّينِ بِأَنَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مُهَمٌّ بِشَكْلِ مُمَاتِلٍ عِنْدَ خُصُومِهِ الصَّلِيبِيِّينَ، رُبَّمَا جَعَلَ مَفَاوِضَاتِ الصُّلْحِ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا. لَمْ يَكُ صِلَاحُ الدِّينِ مُؤْمِنًا بِالْخُرَافَاتِ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي عَصْرِهِ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ 582هـ = سِبْتَمْبَرِ 1186م، صَدَّقَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ نُبُوءَةَ مُنْجِمِينَ يَقُولُ إِنَّ الْعَالَمَ سَوْفَ يَنْتَهِي عِبْرَ فَيْضَانٍ عَامٍّ وَرِيحٍ شَدِيدَةٍ، نَاتِجِينَ عَنِ اقْتِرَانِ سِتَّةِ كَوَاكِبَ فِي بُرْجِ الْمِيزَانِ<sup>٣</sup>. كَانَ مِنْ بَيْنِ الْمُصَدِّقِينَ قَلِجَ أَرْشَلَانَ – سُلْطَانَ سَلَاحِقَةِ الرُّومِ – الَّذِي أَنْفَقَ مَبَالِغَ طَوَائِلَ فِي بِنَاءِ سَرْدَابٍ تَحْتَ الْأَرْضِ؛ لِيَهْرَبَ مِنَ الْكَارِثَةِ الْوَشِيكَةِ. ° فَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ لَمْ يَكُ مِنْ بَيْنِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا هَذِهِ النُّبُوءَةَ الْمُخِيفَةَ. [51]

كَانَ الْجِهَادُ حَجَرَ الزَّوَايَةِ فِي حَرْبِ صِلَاحِ الدِّينِ الدَّعَائِيَّةِ ضِدَّ الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنَافِسِينَ، لَكِنَّهُ تَجَاوَزَ الْكَلَامَ فِي ذَاتِهِ، فَأَهْرَقَ كَثِيرًا مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَمْرَةِ

١ كان العنوان "داخل العقل"، فطلب إليَّ المؤلَّفُ تغييره كما بالمتن. (المترجم)

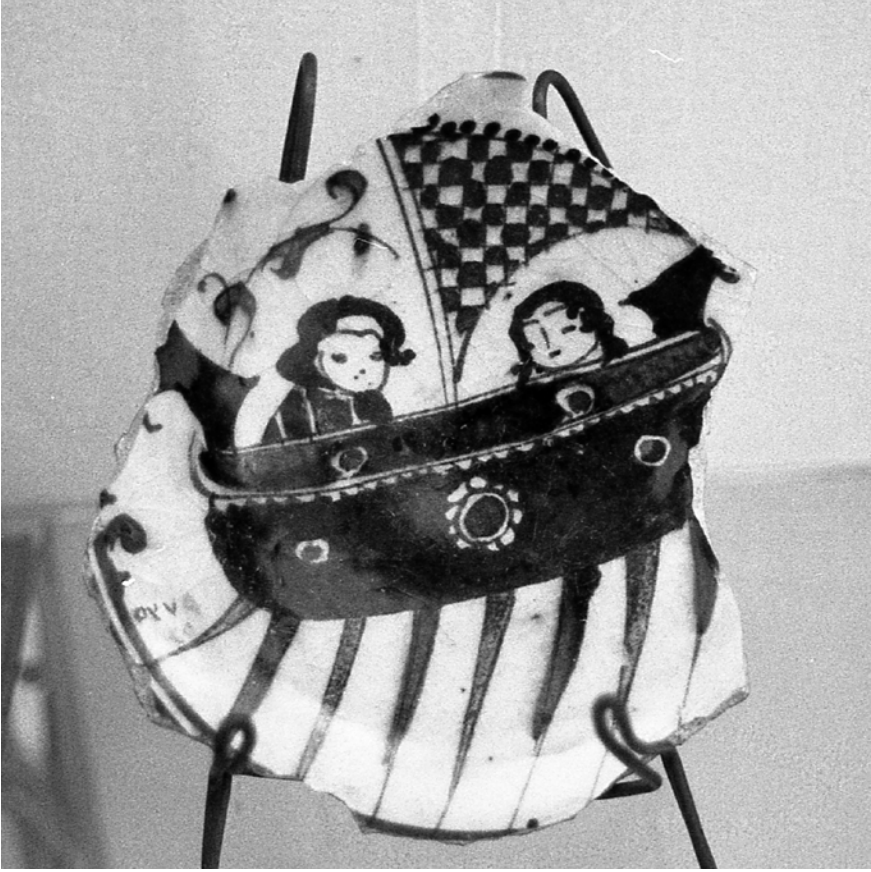
٢ النوادير السلطانية، ص 153؛ الكامل 12: 22؛ الروضتين 4: 58–59. (المترجم)

٣ الكامل 11: 527. (المترجم)

٤ السُّلْطَانُ السَّلْجُوقِيُّ عَزَّ الدِّينَ قَلِجَ أَرْشَلَانَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ قَلِجِ أَرْشَلَانَ، صَاحِبِ قُوْنِيَّةِ، الْمَعْرُوفِ بِقَلِجِ أَرْشَلَانَ الثَّانِي (551–588هـ = 1156–1192م)، وَمَعْنَى اسْمِهِ "السَّيْفُ الْأَسَدُ"؛ فَأَرْشَلَانَ اسْمٌ تُرْكِيٌّ مَعْنَاهُ الْأَسَدُ. (وفيات الأعيان 5: 71). (المترجم)

© Bar Hebraeus (trans. E.W. Budge), *The Chronology of Gregory Abu'l Farag, commonly known as Bar Hebraeus* (London 1932) p. 320.

قَلْتُ: وَيُنظَرُ تَارِيخُ الزَّمَانِ لِأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ، ص 205 طَبْعَةُ دَارِ الْمَشْرِقِ. (المترجم)



شكل 47 جزء من سلطانية مكسورة مصنوعة من الخزف في مصر، ترجع إلى خواتيم القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر. (متحف الفن الإسلامي، رقم 5335.65، القاهرة، صورة التقطها المؤلف)

حملاته من أجل توحيد الشرق الأوسط الإسلامي ضد التهديد الصليبي. كما ناضل صلاح الدين؛ ابتغاء توحيد مسلمي المنطقة على ولائهم الديني للخليفة السني في بغداد. برغم هذه الجهود، كثيراً ما وجد صلاح الدين الخلفاء العباسيين غير متعاونين؛ وذلك لأن الخلفاء أنفسهم أرادوا - في أغلب الأحيان - قيادة حملات الجهاد سياسياً وروحياً على سواء. فبينما كان الخليفة المستضيء<sup>٦</sup> (566-575هـ =

٦ الخليفة المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله. راجع سيرته في: "المصباح المضيء في

(1170-1180م) مُحايدًا بشكلٍ عامٍّ، كان خَلْفُهُ النَّاصِرُ<sup>٧</sup> (575-622هـ = 1180-1225م) أكثرَ ارتيابًا. ومِمَّا زاد الوَضْعَ سُوءًا أَنَّ النَّاصِرَ كانَ في مُنَافَسَةِ مُباشِرَةِ مع صلاح الدِّين من أجل امتلاك زمام الأمور في المَوْصِلِ الزَّنكِيَّةِ شمالي العِراقِ، فالخِلافة العَبَّاسِيَّة كانت - إِيَّان هذِي الفِترَةِ - قد عادتُ لِلظهورِ كقُوَّةٍ اِقْلِيمِيَّةٍ مُهمَّةٍ باسِطَةِ يَدِيها على مُنطَقَةٍ شاسِعَةٍ. [51]

إِنَّ مَثَلِ صلاح الدين مَثَلُ نور الدِّين - سَلَفِهِ في بلاد الشَّامِ - وَسَعِ الصَّرَاحُ بين الإسلامِ السُّنِّيِّ وَالشَّيعِيِّ إلى [51] مِجالَاتِ الفِنِّ وَالعِمارَةِ، بَرُعمُ أَنَّ مُعْظَمَ هذه الرِّعايَةِ التِّقافِيَّةِ جَاءتْ من قِبَلِ أَفرادٍ بارِزينَ في جيشِهِ وإِدارتِهِ وأُسْرَتِهِ، أَكْثَرَ من صلاح الدِّين نَفْسِهِ. وَبِنَاءٍ على تِلْكَمُ الرِّعايَةِ، كانتَ هُناكَ زيادَةٌ كَبيرَةٌ في عِدَدِ المَساجِدِ وَالمَدارسِ - في المَدنِ على نَحْوِ أَخَصِّ - في عَهْدِ صلاح الدِّينِ وَأَخْلافِهِ من بَعْدِهِ من بني أَيُّوب. وَكثيرًا ما اشْتَمَلَتِ المَدارسُ الشَّامِيَّةُ في هذه الفِترَةِ على مَقابِرِ مُؤسِّسِيها، فعَلِيَ سَبيلِ المِثالِ اسْتِخدامُ خُلَفاءِ صلاح الدِّينِ الأيُّوبيِّونَ المَدْرَسَةَ التي بَها تُرْبِتُهُ لأداء

- ٦ خِلافة المُسْتَضَيِّءِ، تحقيقُ ناجية عبد الله إبراهيم، بيروت، ط1، 2000م؛ مرآة الزمان 21: 265؛ مُختَصِرُ التاريخِ، ص 237-241؛ سِيرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 21: 68-72. (المترجم)
- ٧ الخليفة النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ بنِ المُسْتَضَيِّءِ. له ترجمة في: مرآة الزمان 22: 274؛ مُختَصِرُ التاريخِ، ص 245. ويُنظَرُ: "الحياة السياسية في العِراقِ في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَخِيرِ 512-656هـ" لمحمد صالح داود القُرَّازِ، ص 232-234؛ "تاريخ العِراقِ في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَخِيرِ 552-656هـ = 1157-1258م" لبدري محمد فهد، ص 42-43. (المترجم)
- ٨ أي المَدْرَسَةُ العَزِيزِيَّةُ، بُناها الملكُ العَزِيزُ عُثْمانُ بنُ صلاح الدِّينِ، قُرْبَ تُرْبَةِ أبيهِ بالكَلَّاسَةِ، الواقعة شمالي الجامِعِ الأُمويِّ، وقد كان مكانها دار الأمير الشاعر أسامة ابن مُنقِذٍ، وكانت تُقامُ بها صلاةُ الجُمُعَةِ زَمَنِ خُلَفاءِ صلاح الدِّينِ. (الروضتين 4: 433؛ المُدْبِلُ على الروضتين 1: 398؛ مفرج الكروب 3: 55؛ "بعد صلاح الدِّينِ" للزبيقي، ص 25، 31). وورد مُصَحِّحًا في (تاريخ الإسلام 12: 932) أَنَّها مكان دار الأمير سامة الجِيلِيِّ، التي حَلَّتْ محلَّها المَدْرَسَةُ البادِرائِيَّةُ. ولم يبقَ من المَدْرَسَةِ العَزِيزِيَّةِ الآنَ إلا أَطلالٌ بِجانِبِ ضريحِ صلاح الدِّينِ. (مُنادِمَةُ الأطلالِ، ص 129-131). وهنا أنتَهَرَ الفُرْصَةَ لِشُكْرِ المُحَقِّقِ السُّورِيِّ العَليمِ إبراهيم الزَّبيقي؛ فهو مَنْ هَداني لِلتَّفريقِ بينِ المَدْرَسَتَيْنِ: العَزِيزِيَّةِ مُصَلَّى الأيُّوبيِّينِ، وَالكَلاَسَةِ تُرْبَةِ صلاح الدِّينِ. وللمزيد عنها، راجع: الدَّارِسُ في تاريخِ المَدارسِ 1: 382-398. (المترجم)

٩ دُفِنَ صلاح الدِّينِ في مَدْرَسَةِ الكَلَّاسَةِ، التي بناها الملكُ العادِلُ نُورُ الدِّينِ مَحْمودُ بنُ زَنكِي في العامِ 555هـ = 1160م، وَسُمِّيَتْ بِهذا الاسمِ؛ لِأَنَّها كانتَ مَوْضِعَ عَمَلِ الكُلْسِ أَيَّامَ بِناءِ الجامِعِ الأُمويِّ. وكانتَ لَصِيْقَةً بِالجامِعِ من جِهةِ الشَّمالِ، ولِها بابٌ إِلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ صلاحُ الدِّينِ بِتَجديدها سنة 575هـ



شكل 48 أجزاء من درج مصنوعة من لولب من القصب مربوط بقطن، عُثِر عليها ضمن ذخيرة الموادِّ العسكريَّة من درج منسي في قلعة دِمَشق. (المتحف الوطني السوري، قسم الترميم، دمشق، صورة التقطها المؤلِّف)

### صلاة الجُمعة. [52]

كان التَّضامُن الأُشْرِي سِمَةً أساسِيَّةً في نظام صلاح الدِّين السُّبَيْسي والعسكريِّ. فكان المُوَرِّخ ابن الأزرُق الفارقيّ<sup>١٠</sup> - مثلاً - في دِمَشق إبَّان شتاء ١١70-١١71م (= 565-566هـ)، وهُنالك رأى قافلةً عظيمةً بدأت رحلتها، آخذةً شَمْس الدَّوْلَة تُوران شاه

= ١١79م. (الدَّارِس في تاريخ المَدَارِس 1: 447-451). وكان الملك الأفضَل عليّ قد اختار يوم السابع والعشرين من صَفَر - وهو يوم وفاة صلاح الدِّين - لينقل تابوت أبيه من قلعة دِمَشق حيث دُفِنَ، إلى هذه التُّربة، وقد مضى على وفاته ثلاث سنين. (مفرج الكروب 3: 55). وذكر أبو شامة، نقلاً عن العِماد الكاتب، أنَّ نقلَ صلاح الدِّين إلى تُرْبته كان بُكرةَ الخميس من يوم عاشوراء سنة 592هـ = ١١95م. (الروضتين 4: 368؛ وفيات الأعيان 7: 206). (المترجم)

١٠ أحمد بن يوسف بن عليّ بن الأزرُق الفارقيّ (ت. بعد 577هـ = ١١8١م). والفارقيّ التَّسْبَة إلى مَيَّافارِقين. (المترجم)

- شقيق صلاح الدين - وأسرته وأتباعه إلى الديار المصرية، التي كان صلاح الدين يبدأ فيها عملية بناء قاعدة لسلطة الأسرة. ويُقال إنها تكوّنت من نيفٍ وسبعين ألفَ جَمَلٍ، على كُلِّ جَمَلٍ يركبُ ثلاثُ نسوةٍ وخمسةُ أطفالٍ صغارٍ. ١١ غَيْرَ أَنَّ تَضَامُنَ أُسْرَةَ صلاح الدين الكبيرة كان في بعض الأحيان نظرياً أكثر من كونه حقيقياً؛ فكان السُّلطان في مُشكِلاتٍ خاصّةٍ مع ابن أخيه تقيّ الدين، الشُّجاع دائم النُّشاط، يَبْدُ أَنَّهُ كان طَمُوحاً يَتَمَتَّعُ بِفِكرٍ مُستَقِلٍّ. وقد كان الرَّجُلُ الأصغر مشهوداً له بالمهارة في فنِّ التَّحصينات وَفُق ابن الأثير<sup>١٢</sup>، ومن الواضح أَنَّ صلاح الدين كان مُعجَباً به. مع ذلك، تخلّى تقيّ الدين عملياً عن النُّضال ضدَّ الحملة الصليبيّة الثالثة من أجل مُتابعة طموحاته في شرق تركيا وشمال بلاد الشَّام. ١٣ [52]

كانت التَّحالُّفات عن طريق المُصاهرة بين الأُسَر الرّاقية مُهمّةً في العالم الإسلاميّ إبَّان العصور الوسطى مثلما كان في أوربا القروسطيّة؛ ومن ثَمَّ استخدمها صلاح الدين. فزواج صلاح الدين من عِصْمَةَ الدِّين خاتون<sup>١٤</sup> - ابنة مُعين الدِّين أنر أتابك دِمَشق، وأرملة نور الدِّين - في العام 572هـ = 1176م، زوّده بوشيجةٍ شخصيّةٍ مع اثنين من الحُكّام السّابقين. وسعى صلاح الدين - وبطريقةٍ مُماثلةٍ - إلى ترسيخ ولاء القادة العسكريين البارزين، مثل الأمير التُّركيّ مُظفّر الدِّين كوكبُري الذي حكم إربل في شمال العراق، وهو في سنِّ الرابعة عشر. ففي العام 582هـ = 1186م قام صلاح الدين بتزويج أخته الصُّغرى السّت ربيعة خاتون<sup>١٥</sup> من كوكبُري. وفي عُضون

Ibn al-Azraq, H.F. Amedroz, "Three Arabic MSS. on the History of the City of Mayyafariqin", ١١  
*Journal of the Royal Asiatic Society*, 34 (1902) p. 793.

قلْتُ: ويُنظر تاريخ الفارقيّ، ص 40. (المترجم)

١٢ الكامل 12: 9، حوادث سنة 584هـ. (المترجم)

١٣ أقطعه عُمهُ صلاحُ الدِّين البلادَ الجَزَريّة - حرّان والرُّها - فسار إليها في صَفَر 587هـ = 1191م، شريطة أَنَّهُ يُقَطِّع البلادَ للجُنْد، ويعود وهم معه إليه؛ ليتقوى بهم على الفرنج، لكنّه لَمَّا ذهب تجدّد له طمَعٌ في البلاد المُجاورة، فمات في السنة نفسها وهو يُحاصر مَلاز كِرْد، من أعمال خِلاط. (الكامل 12: 62-63؛ مرآة الزمان 21: 384؛ الروضتين 4: 240، 290). (المترجم)

١٤ تزوّجها نور الدِّين في العام 541هـ = 1147م، وبعد موته تزوّجها صلاحُ الدِّين في العام 572هـ = 1176م، وتُوِّيتُ بِدِمَشق سنة 581هـ = 1185م. (سنا البرق الشامي، ص 113؛ مرآة الزمان 21: 308؛

الروضتين 1: 180؛ 2: 431؛ 3: 243-244). (المترجم)

١٥ تزوّجتُ أوَّلًا بالأمير سَعْد الدِّين مسعود بن مُعين الدِّين أنر، فلمَّا مات تزوّجتُ بِمُظفّر الدِّين

أشهر كان ذلكم المَحَارِبُ التُّرْكِيَّ عَضُدًا لصلاح الدِّين بمَعْرَكَةِ حِطِّين. حَرِيٌّ بِالذِّكْرِ أَنَّ النَّسَاءَ فِي أُسْرَةِ صلاح الدِّين أَدَّينَ دَوْرًا فِي الأَزْدِهَارِ الثَّقَافِيِّ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ. فعلى سبيل المثال، بُعِدَ فِتْرَةٌ قَصِيرَةٌ مِنْ استِعَادَةِ صلاح الدِّين بَيْتِ المَقْدِسِ مِنْ المَمْلَكَةِ الصَّلْبِيَّةِ، أُسِّسَتْ رِبْعَةٌ خَاتُونِ مَدْرَسَةٍ هُنَاكَ، وَوَقَفَتْهَا عَلَى ناصِحِ الدِّينِ ابنِ الحَنْبَلِيِّ<sup>١٦</sup>، وَهُوَ أُسْتَاذٌ وَشَخْصٌ مُؤَثَّرٌ فِي حَاشِيَةِ صلاح الدِّين. ثُمَّ حَضَرَتْ رِبْعَةٌ خَاتُونِ دَرَسَهُ الأَفْتِيحِيَّ مِنْ وِراءِ حِجَابٍ<sup>١٧</sup>. [52]

كُوَيْبُرِي، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ قَدِمَتْ إِلَى دِمَشْقَ، وَحَدَمَتْهَا العَالِمَةُ أَمَةُ اللُّطِيفِ بِنْتِ النَّاصِحِ ابنِ الحَنْبَلِيِّ، فَأَحْبَبَتْهَا وَحَصَلَ لَهَا مِنْ جَهَّتِهَا أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهَا بِنَاءِ المَدْرَسَةِ بِسَفْحِ قَاسِيُونِ، فَبَنَيْتِهَا وَوَقَفَتْهَا عَلَى النَّاصِحِ وَالحَنَابِلَةِ. تُوفِّيتُ رِبْعَةَ خَاتُونِ عَن سَنِّ عَالِيَةٍ سَنَةِ 643هـ = 1245م. تَرَجَمَتْهَا فِي: مَرَاةُ الرِّمَانِ 22: 391؛ المُذَيَّلُ عَلَى الرُّوضَتَيْنِ 2: 76؛ تَارِيخُ الإِسْلَامِ 14: 441. (المترجم)

١٦ الواعظ عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهَّاب الدَّمَشْقِيُّ الأَنْصَارِيُّ (554-634هـ = 1159-1237م). له ترجمة في: مَرَاةُ الرِّمَانِ 22: 341-342؛ التَّكْمَلَةُ لوفيات النقلة 3: 429-430؛ المُذَيَّلُ عَلَى الرُّوضَتَيْنِ 2: 36-37؛ سِيرُ أَعْلَامِ النِّبَلَاءِ 19: 54؛ تَارِيخُ الإِسْلَامِ 14: 142-143. (المترجم)

١٧ D. Talmon-Heller, "Islamic Preaching in Syria during the Counter-Crusade (Twelfth-Thirteenth Centuries)", in I. Shagrir (et al. eds.), in *Laudem Hierosolymitani: Studies in Crusades and Medieval Culture in Honour of Benjamin Z. Kedar* (Aldershot 2007) p. 68-9.

## لَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

”وأهلُ الحربِ مُشتغِلون بحربهم، والنَّاسُ في عافيةٍ... ولا تُعْتَرِضُ الرِّعَايَا ولا التِّجَارُ“.<sup>٢</sup> بهذه الكليّات لخص ابنُ جُبَيْرٍ<sup>٣</sup> رؤيته للأوضاع في بلاد الشام قُبَيْلَ الحملة الصليبيّة الثالثة بوقتٍ قصيرٍ؛ أعقب تلك الحملة الملحميّة – لكنّها غيرُ حاسمةٍ – نصفُ قرنٍ من السَّلام النَّسبيِّ. إذ سوف يشنُّ العالمُ المسيحيُّ الأوربيُّ الغربيُّ كثيرًا من الحملات الصليبيّة – المُوجَّهة في العادة ضدَّ مِصرَ – لكن بغضِّ الطَّرْفِ عن إحباط هذه الاعتداءات وفشلها الذَّريع، فإنَّ معظم طاقات الأيوبيين العسكريّة كانت مُكرَّسةً لخصوماتٍ بسيطةٍ بين أفرادٍ مُنافسين من الأسرة الحاكمة. إنَّ الحملة الصليبيّة الثالثة علّمت صلاح الدِّين وخلفاءه وحكّام الإمارات الصليبيّة أنّ الصِّراعَ الطَّويلَ أذى كلا الطَّرَفينِ على سويةٍ واحدةٍ. مع ذلك، أدرك الجميعُ ضرورةَ التَّأهّبِ العسكريِّ أثناء فترة ”حرب العصور الوسطى الباردة“.<sup>[53]</sup>

إنَّ النِّضالَ الطَّويلَ ضد الصليبيين قد وُضِعَ أعباءٌ ثقلاً على كاهل مملكة صلاح الدِّين، لا سيّما في الدِّيار المصريّة؛ إذ أضعف نقصُ الذهبِ العُملة. كما أنّ مناجم الذهبِ الثَّويّبة التي كانت تعتمد عليها مِصرُ القديمة قد استنفدت من التَّاحية العمليّة. كان غرب السودان مصدرَ الذهبِ الرِّئيسِ لبلاد المَغْرِبِ ومعظم أوربا، إلّا أنّ هذا كان حجراً محجوراً على الموحّدين، مُنافسي صلاح الدِّين في بلاد المَغْرِبِ. فوق ذلك، سعى الصليبيون إلى إضعاف العُملة المصريّة عن طريق سكِّ عملات ذهبيّة تُحاكي الدِّينار بقيمةٍ مُخفّضة.<sup>٥</sup> حتّى إنّ إدارة صلاح الدِّين أصدرت قطعاً مصنوعةً

١ أي الحرب. (المترجم)

٢ رحلة ابن جُبَيْرٍ، ص 260–261. (المترجم)

٣ أبو الحُسَيْن محمد بن أحمد بن جُبَيْرِ الكِنَانِي البَلَنْسِي، (ت. 614هـ = 1217م). له ترجمة في: سير أعلام النبلاء 22: 45–47؛ تاريخ الإسلام 13: 417–418؛ النجوم الزاهرة 6: 214؛ نفح الطيب 1:

515–575. (المترجم)

٤ زارها في سنتي 579 و580هـ. (المترجم)

٥ A.H. Ehrenkretz, *Saladin* (New York 1972) p. 18



شكل 49 خان العُروس شمالي دِمَشق. (صورة التقطها المُؤلف)

من معجون الزجاج - كشكلٍ من أشكال العُملة المُؤقتة - في فترةٍ زمنيةٍ وجيزة. [53] وإن تعجّب فعجّب أنّ الاقتصاد المُصرّي رُبّما لم يتأثر بوجهٍ خاصٍّ بقرار صلاح الدّين في أنّ يحلّ نظام الإقطاعات الجديد الأكثر بساطة محلّ الأرسقراطية الفاطميّة القديمة المُكوّنة من مُلاك الأرض والإداريين. يُقال أيضًا الكثيرُ فيما يخصُّ سلاسة إصلاحات صلاح الدّين، منها أنّ نظام الحكم الجديد كان قادرًا على قمع أيّة مُقاومةٍ فاطميّةٍ عرَضيّةٍ من دُون إلحاق أيّ أضرارٍ كبيرةٍ بالنّسج الزراعيّ. كان هناك اهتمامٌ جديدٌ وضخمٌ بالتّحصين، بيّد أنّ طفرة البناء التي تمزّت بها مُدّة حكم صلاح الدّين، تخطّت عمارة البلدات والأحياء التي دمرتها عقودٌ من الحرب. [53] أحدثت حملات صلاح الدّين أيضًا إقبالًا هائلًا على الأسلحة والدُّروع والشُّروج والملابس والسُّفن. فعلى سبيل المثال، ازدادت قوّة الأسطول المُصرّي - الذي كاد يختفي في السنين الأخيرة من عُمر الخِلافة الفاطميّة<sup>6</sup> - حتّى وصل إلى ما يقرب من ستّين سينيّا

٦ كان شاوّرٌ قد حرق مراكبَ الأسطول لَمّا حرق مدينةَ الفُسْطاط سنة 564هـ = 1169م. (الخَطَط

المَقْرِيْزِيَّة 3: 614). (المترجم)

حربيَّةً، وُزِّهَاءَ عَشْرِينَ مَرْكَبًا لِلنَّقْلِ بِحُلُولِ سَنَةِ 575هـ = 1179م.<sup>٧</sup> [54]

قَلَمًا أَوْقَفَتِ الْحَرْبُ الطَّوِيلَةَ التِّجَارَةَ؛ إِذْ جَعَلَ صِلَاحُ الدِّينِ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْإِسْتِمَارِ فِي تَشْيِيدِ الطَّرِيقِ وَالْجَسُورِ وَالْخَانَاتِ الْمُحَصَّنَةِ. وَيُسَلِّطُ ابْنُ جُبَيْرٍ - الْيَقِظُ الْفِطْنِ - الضُّوْءَ تَارَةً أُخْرَى عَلَى هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ؛ فَيَصِفُ خَانًا بَنَاهُ صِلَاحُ الدِّينِ بَيْنَ دِمَشْقَ وَالنَّبْكَ<sup>٨</sup>، مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ خَانُ الْعَرُوسِ، قَائِلًا: "هُوَ فِي نَهَايَةِ الْوَثَاقَةِ وَالْحُسْنِ، بَبَابٍ حَدِيدٍ عَلَى سَبِيلِهِمْ فِي بِنَاءِ خَانَاتِ هَذِهِ الطَّرِيقِ كُلِّهَا وَاحْتِفَالِهِمْ فِي تَشْيِيدِهَا، وَفِي هَذَا الْخَانِ مَاءٌ جَارٍ يَتَسَرَّبُ إِلَى سَقَايَةِ فِي وَسْطِ الْخَانِ كَأَنَّهَا صَهْرِيحٌ"<sup>٩</sup>. [54]

حِينَمَا يَمِيلُ مُؤَرِّخُونَ أُورُيُونَ إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى التِّجَارَةِ فِي الْبَحْرِ الْمَتَوَسُّطِ، نَجِدُ أَنَّ التِّجَارَةَ الْبَحْرِيَّةَ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَالْمَحِيطِ الْهِنْدِيِّ كَانَتْ مُهْمَةً بِالْقَدْرِ ذَاتَهُ لَدَى صِلَاحِ الدِّينِ. وَبَعْقِبِ غَارَاتِ رِينَالْدِ دِي شَاتِيُونَ الْمُدْمَرَّةِ، أُغْلِقَ صِلَاحُ الدِّينِ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ أَمَامَ التُّجَّارِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَسْمَحْ بِتَنْقُلِهِمْ فِيهِ. وَبِنَاءً عَلَيْهِ، اتَّجَهَ التُّجَّارُ الْمُسْلِمُونَ الْمَعْرُوفُونَ بِالْكَارِمِيَّةِ<sup>١٠</sup> إِلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى طَرِيقِ التِّجَارَةِ إِلَى الْهِنْدِ، وَهَمَّشَ التُّجَّارُ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي مِصْرَ وَفِلَسْطِينَ وَالْيَمَنَ، الَّذِينَ قَدِ ادَّوَا دَوْرًا مُهِمًّا فِي السَّابِقِ. [54]

يُقَالُ الْكَثِيرُ عَنِ إِصْلَاحَاتِ صِلَاحِ الدِّينِ فِي نِظْمِ الْحُكْمِ فِي مِصْرَ<sup>١١</sup> وَالشَّامِ، لَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْمُبَالَغَةَ فِي ذَلِكَ. لَا تَزَالُ أَيْضًا مَسْأَلَةٌ مَا هُوَ أَفْضَلُ وَصْفٍ لِّصِلَاحِ الدِّينِ - أَهْوَاءُ قَائِدِ فِرْقَةِ حَرْبِيَّةِ، أَمْ حَاكِمِ إِقْلِيمِي حَقِيقِي - مَحَلَّ نِقَاشٍ. إِذْ أُشَارَ الْمُوَرِّخُ ب.م. هَوْلْتِ (P.M. Holt)<sup>١٢</sup> أَنَّهُ كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّوَاجِحِ مُمَاتِلًا تَمَامًا لِحُكَّامِ مُعَاصِرِينَ، أَمْثَالِ النُّورْمَانِ (Normans) فِي جَنُوبِ إِيطَالِيَا وَصِيقَلِّيَّةِ، أَوْ الْأَنْجُوِيْنَ (Angevins)<sup>١٣</sup> فِي

٧ راجع: "أسطول صلاح الدين الأيوبي" لفاروق جرّار، ص85-86. (المترجم)

٨ قرية بين حمص ودمشق. (معجم البلدان 5: 258). وتقع الآن في ريف دمشق. (المترجم)

٩ رحلة ابن جبير، ص233. (المترجم)

١٠ D. Abulafia, "The Role of Trade in Muslim-Christian Contact during the Middle Ages", in D.A. Agius & R. Hitchcock (eds.), *The Arab Influence in Medieval Europe* (Ithaca 1994) p. 7.

قلت: ويُنظَرُ "أضواء جديدة على تجارة الكارم" لعطية القوصي، ص17-33. (المترجم)

١١ راجع: "نظم الحكم والإدارة في مصر في العصر الأيوبي" لأحمد فؤاد سعيد، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1983م. (المترجم)

١٢ المؤرخ البريطاني بيتر مالكوم هولت (1918-2006م). (المترجم)

١٣ أسرة ملكية من أصول فرنسية، حكمت إنكلترا في القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر.



شكل 50 سلطانية مطلية بالمنيا، عُثِرَ عليها في غرب إيران، ترجع إلى القرن الثاني عشر أو فواتح القرن الثالث عشر. (متحف رضا عباسي، طهران، صورة التقطها المؤلف)

إنكلترا ومُعظّم فرنسا. فحكم - مثلهم - إقليمين مُستقلّين ومُختلفين كُلّ الاختلاف، وقام بذلك باستخدام "نواة إدارية مُتقلّبة".<sup>١٤</sup> ورث صلاح الدّين أيضًا بيروقراطيةً، واعتمد على نظام الإقطاع للإبقاء على ولاء أولئك الرّجال - لا سيّما العسكريين منهم - الذين اعتمد عليهم. زدّ على ذلك، من السّهّل تضخيم فعالية أقسام ديوان

(المترجم)

١٤ P.M. Holt, "Saladin and his Admirers: A bibliographical Reassessment", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 46 (1983) p. 23.



شكل 51 مقبرتان بقبَّتين ببسْنجار، ترجع جزئيًّا إلى بواكير القرن الثالث عشر. (صورة وزارة الآثار العراقية)

إدارة صلاح الدِّين وكفاءتها، بل تلك الدواوين الخاصَّة بمُنافسيه المسلمين. وقد مالَت هذه الإداراتُ إلى الاعتماد على الولاء الشَّخصيِّ والرفقة الوفية أكثر من أيَّة بيروقراطياتٍ مهنيَّة. [54]

هذا لا يعني بدهاءةً أنَّ البيروقراطيَّة المهنيَّة لم تُكن قائمةً في مملكة صلاح الدِّين. إنَّه ورث إحداها من الخِلافة الفاطميَّة، وإن لم تُكن فعَّالةً كما يُزعم أحيانًا. فمن بين أولئك الذين قد خدموا الفاطميين، ثُمَّ صلاح الدِّين كان المؤرِّخ القاضي الفاضل، الذي أشرف على ديوان الجيِّش الفاطميِّ حينًا من الدهر. وكان لعماد الدِّين الأصفهانيِّ خلفيَّةٌ مُختلفةٌ، وبيَّنت مسيرته كيف أنَّ التَّخبة ذات المهارات الإداريَّة تنقلت في جميع أرجاء الشرق الأوسط. أظهرت أيضًا كيف صادق الحُكَّام مثل أولئك البيروقراطيين البارزين. في الحقِّ، وصف عماد الدِّين علاقةً عمله مع صلاح الدِّين، بقوله: ”فإن كانت له حاجةٌ إلى إنشاءِ كتابٍ أو البُوْح بسِرِّ صوابٍ، أجلسني وأملى عليَّ مقاصده. وقمتُ وسهرتُ تلك اللَّيلة لتحريِّر الكُتب، ثُمَّ أُبكر إليه وأعرضها عليه. فإن رأى الرِّيادة فيها أو تبدلَ شيءٍ من معانيها، وصل بي إلى مقاطعها ووقفني على مواضعها، فما أبرح حتَّى أسوي قوامها وأروي أوامها، وإذا استصابها وقد أتممتُ نصابها توجَّها بتوقيعه، ويقول: ”توجَّهها ولا تُعوقها وتسدِّدها إلى الأغراض



شكل 52 "سيف صلاح الدين" عُثِرَ عليه في ضريحه بدمشق، نُقِشَ على نُصْلِهِ أَنَّهُ صُنِعَ لِأَيِّهِ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ. (المتحف العسكري، رقم 2355، إسطنبول)

وتفوقها“<sup>١٥</sup>. لا غَرَوَ أَنَّ رُؤْيَةَ عِمَادِ الدِّينِ لِدَوْرِهِ تَدُلُّ أَنَّهُ رَأَى قَلَمَهُ وَسَيْفَ صِلَاحِ الدِّينِ شَرِيكَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ تَقْرِيْبًا فِي النُّضَالِ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ. [55]

لم يُعْمَرْ صِلَاحُ الدِّينِ طَوِيلًا بَعْدَ اتِّفَاقِيَّةِ صُلْحِهِ مَعَ الْمَلِكِ رِثْشَارْدَ. فَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مُرْهَقًا مِنْ سِنِّيِّ الْحَمَلَاتِ الشَّاقَّةِ النَّاصِبَةِ. مَعَ ذَلِكَ، كَانَ وَقَعُ مَوْتِ صِلَاحِ الدِّينِ صَادِمًا؛ فَعَمَّ عَلَيْهِ التَّحْيِبُ. وَقَدْ اقْتَبَسَ أَبُو شَامَةَ<sup>١٦</sup> مَا كَتَبَهُ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْمَجْهُولِينَ<sup>١٧</sup>:

”وَأُعِمِدَ سَيْفُ اللَّهِ الَّذِي كَانَ عَلَى أَعْدَائِهِ دَائِمَ التَّجْرِيدِ... وَأَصْبَحَ الْإِسْلَامُ وَقْدَ فُقِدَ

Richards, D.S., 'Imad al-Din al-Isfahani; Administrator, Litterateur and Historian', in ١٥  
Shatzmiller, M. (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth Century Syria* (Leiden, 1993) p. 139.

قَلْتُ: وَيُنْظَرُ سِنَا الْبِرْقِ الشَّامِيِّ، ص ١١٥. (المترجم)

١٦ شَهَابُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْدِسِيِّ الشَّافِعِيِّ (599-665هـ = 1203-  
1268م). تَرَجَمَ لِنَفْسِهِ تَرْجَمَةً وَافِيَةً فِي: الْمُدَيْلِ عَلَى الرَّوْضَتَيْنِ 1: 136-153. وَلَهُ تَرْجَمَةٌ فِي: صَلَةُ  
التَّكْمَلَةِ 2: 550-551؛ ذَيْلُ مَرَاةِ الزَّمَانِ 2: 36768؛ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ 15: 114-115؛ عَيُونُ التَّوَارِيخِ 1:  
414-417؛ الْوَفَايَاتُ بِالْوَفَايَاتِ 18: 113-116؛ طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ لِلشُّبْكِيِّ 8: 165-168؛

Hilmy Ahmed: *EI*, art. "Abu Shama", vol. I, p. 150.

وَأَسْتَاذِي الْعَلَّامَةَ الزُّبَيْدِيَّ دَرَسَةَ نَفِيْسَةً بِعَنْوَانِ "أَبُو شَامَةَ مُؤَرِّخُ دِمَشْقَ فِي عَصْرِ الْأَيُّوبِيِّينَ: دَرَسَةُ  
تَحْلِيلِيَّةٌ فِي سِيرَتِهِ وَأَثَارِهِ التَّارِيخِيَّةِ"، دَارُ الرِّسَالَةِ، بَيْرُوتَ، 1997م. (المترجم)

١٧ نَصَّ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ الْعُمَرِيُّ عَلَى أَنَّهُ ضِيَاءُ الدِّينِ ابْنِ الْأَثِيرِ. (مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ 12: 228). (المترجم)

ناصره، فهو أعظمُ فاقدٍ لأعظمِ فقيدٍ“.<sup>١٨</sup> وكان عبد اللطيف البغدادي<sup>١٩</sup> - الرَّحالة والمؤرِّخ المعاصر - أكثر واقعيًّا، حين قال: ”وما رأيتُ ملكًا حزنَ النَّاسَ لموته سِواه“.<sup>٢٠</sup> [55]

١٨ الروضتين 4 : 370. (المترجم)

١٩ مُوفَّق الدِّين أبو محمَّد عبد اللطيف بن يُوسُف بن محمد بن عليِّ بن أبي سَعْد البغداديِّ الشَّافِعِيُّ (557-629هـ = 1161-1231م). له ترجمة في : إنباه الرُّواة 2 : 193-196؛ بُغية الوعاة 2 : 106-107؛ فوات الوفيات 2 : 385-388؛ طبقات الشَّافِعِيَّة للسُّبُكي 8 : 313؛ النجوم الزاهرة 6 : 279؛ حُسْن المُحاضرة 1 : 541. وله سيرة ذاتيَّة تكلم فيها عن نشأته وطلبه للعلم، وتجربته في الحياة ووصاياه، ساق منها صفحات ابن أبي أُصَيْبَةَ في كتابه النَّفيس ”عيون الأنباء“ 2 : 201-213. وترجم له من المُحدِّثين الجَهِيد محمد عبد الله عنان في كتابه: ”مُضِر الإسلامِيَّة“، ص 96-106. (المترجم)

٢٠ الإفادة والاعتبار، ص 44؛ سير أعلام النبلاء 21 : 283؛ تاريخ الإسلام 12 : 896. (المترجم)

## زُبْدَةُ الْقَوْلِ فِي السَّيْرَةِ

إِنَّ سَيْرَةَ صِلَاحِ الدِّينِ وَإِنْجَازَاتِهِ نُظِرَ إِلَيْهِمَا فِي الْعَالَمَيْنِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ مِنْ زَاوِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. بَرُغْمَ ذَلِكَ، مَا عَتَمَ أَنْ تَغَيَّرَتِ الآرَاءُ الْكَاثُولِيكِيَّةَ اللَّاتِينِيَّةَ الْأُورُوبِيَّةَ الْغَرِيبِيَّةَ عَنِ الْبَطْلِ الْمُسْلِمِ الْعَظِيمِ. فِكِتَابِ "تَارِيخِ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْثَالِثَةِ" لِمَجْهُولٍ، صُنِّفَ عَقِيبَ الْحَدِثِ مُبَاشَرَةً بِبِرَاعَةِ أَحَدِ الْمُشَارِكِينَ، الَّذِي عَايَنَ الرُّعْبَ الْمُتَفَشِّيَّ عِنْدَ سَقُوطِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِأَيْدِي "الْكَفَّارِ" الْمُسْلِمِينَ. فَالْقَى تَبَعِيَّةَ نَجَاحِ صِلَاحِ الدِّينِ عَلَى إِخْفَاقَاتِ الْإِمَارَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، فَائِلًا: "رَأَى الرَّبُّ أَنَّ أَرْضَ مِيلَادِهِ - مَكَانَ آلامِهِ - قَدْ سَقَطَتْ فِي الْهَاطِيَةِ الْقُدْرَةِ. وَمِنْ ثَمَّ، رَفَضَ بَازِدْرَاءَ مِيرَاتِهِ، وَسَمَحَ لِقَضِيْبِ غَضَبِهِ الشَّدِيدِ<sup>١</sup> - أَيِّ صِلَاحِ الدِّينِ - أَنْ يَحْنُقَ عَلَى الشَّعْبِ الْعَنِيدِ وَيُبِيدَهُ".<sup>٢</sup> [56]

إِنَّ طَبِيعَةَ الصَّرَاحِ الْمَلْحَمِيَّةِ، الَّذِي تَلَا سَقُوطَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، سَلَّمَ بِهَا جَمِيعُ الْأَطْرَافِ، وَمَعَ أَنَّ الْمَصَادِرَ لَيْسَتْ مُرَوِّعَةً كَتَلِكِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ الْحَمَلَةَ الصَّلِيبِيَّةَ الْأُولَى، إِلَّا أَنَّهَا مُتَشَبِّعَةٌ بِالْعَاطِفَةِ أَكْثَرَ مِمَّا رُوِيَ عَنِ مَعْظَمِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ اللَّاحِقَةِ. وَفِي هَذَا الصَّدَدِ، نَجَدُ أَنَّ النُّصُوصَ الْعَرَبِيَّةَ مَثِيرَةً لِلْإِهْتِمَامِ بِشَكْلِ خَاصٍّ؛ لِأَنَّهَا عَكَسَتْ تَغْيِيرًا مِنَ الْبَهْجَةِ بَعِيدَ مَعْرَكَةِ حِطِّينِ مُبَاشَرَةً إِلَى يَأْسٍ مُتَزَايِدٍ، لَا سِيَّمَا بِسَبَبِ مَنْ تَرَاوَجَعَ الْقُوَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ أَمَامَ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْثَالِثَةِ. فَأَوْصَلَ صِلَاحُ الدِّينِ الْمَلِكِ رِثْشَارْدَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَى طَرِيقِ مَسْدُودَةٍ، لَكِنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى أَنَّهُ كَانَ وَقْتِنْدُ فِي مَوْقِفٍ دِفَاعِيٍّ. وَاسْتَنْزَفَ صِلَاحُ الدِّينِ فِي غَمْرَةِ حِصَارِ عَكَّا الطَّوِيلِ مَوَارِدَهُ الْعَسْكَرِيَّةَ وَالْبَحْرِيَّةَ وَالْاِقْتِصَادِيَّةَ، بَلْ رُبَّمَا اسْتَنْفَدَ نَفْسَهُ أَيْضًا. [56]

لَيْسَ مُسْتَعْرَبًا أَنْ أُوْرِدَتْ تَوَارِيخُ غَرِيبِيَّةٌ إِشَارَاتٍ بِأَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ نَالَ إِعْجَابَ قَادَةِ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْثَالِثَةِ. فَعِنْدَمَا قَامَ هُوْبِيرْتُ أُسْقُفُ سَالزْبُرِي (Hubert of Salisbury) بِحَجِّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ لَهُ الْحَاكِمُ الْمُسْلِمُ: "إِنَّا نَعْرِفُ بِسَالَةِ الْمَلِكِ [رِثْشَارْدَ الْأَوَّلِ] مَلِكِ إِنْكَلْتْرَا[الْفَدَّةِ] وَشَجَاعَتِهِ الْبَدَّةَ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، لَكِنَّهُ - وَمِنْ غَيْرِ أَفْتِنَاتٍ - يُعْرِضُ نَفْسَهُ كَثِيرًا لِتَهْلُكَةِ لَا دَاعِيٍّ لَهَا، وَيُفْرِطُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّ إِفْرَاطٍ... أَمَّا أَنَا - وَمَعَ

١ مأخوذ من سفر الأمثال 8/22. (المترجم)

٢ Anon. (trans. K. Fenwick), *The Third Crusade* (London 1958) p. 21.



شكل 53 ضريح صلاح الدين بدمشق. (صورة التقطها المؤلف)



شكل 54 ضريح صلاح الدين تحت القبة الصغيرة المُحددة المطلية باللون الأحمر، يقع مباشرة أمام المئذنة الشمالية للجامع الأموي العظيم. (صورة التقطها المؤلف)

أني أمير عظيم في أي بلد أنا جلُّ به - فأوثر أن أرفل في بُحوحة عَيشٍ - ما دامت جَنبًا إلى جَنبٍ مع الحكمة والاعتدال - على الجُرأة والإفراط<sup>٣</sup>. في الحقيقة، يُعدُّ صلاح الدين في أعين الغربيين - وبلا بَخسٍ - قائدًا حكيمًا، بيدَ أنه مُخادِعٌ، ليس شجاعًا بالقدر الكافي. [56]

كانت آراء المسلمين مُتنوعةً أيضًا حول صلاح الدين؛ إذ قُسم المؤرِّخون إلى مُعسكرين اثنين: أحدهما مؤيِّد للأيوبيين، والآخر مؤيِّد للزنكيين. حاول جُلُّهم إخفاء ولاءاتهم السياسيَّة، لكنَّها ظهرت للعيان بين الحينة والحينة؛ فيقول عمادُ الدين الأصفهاني عن العام الهجري 583هـ (من 12 مارس 1187 إلى 2 مارس 1188م): "وهذه الهجرة [الثانية] هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس [كانت الهجرة الأولى لما انتقل النبي محمدٌ من مكة إلى المدينة]... وعلى عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسَقَ".<sup>٤</sup> [57] في الحقيقة، نافح المؤرِّخ ابن الأثير عن جهاد صلاح الدين للصليبيين، وأماط

٣ Anon. (tr. Nicholson, H.J.), *Chronicle of the Third Crusade* (Aldershot, 2001) p. 378.

٤ الفتح القسِّي، ص 37. (المترجم)



شكل 55 نُسخة عراقية أو شامية من مقامات الحريري، تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر. (معهد الدراسات الشرقية، رقم 23، ورقة 174، سانت بطرسبرغ)

اللثام عن أخطاء المسلمين دونما خجلٍ. وقد تضمّنت هذه الأخطاء فشل صلاح الدين في مهاجمة قوّة جي دي لوزنيان قبل أن تصل إلى عكاّ في شهر رجب 585هـ = أغسطس 1189م، إذ يقول: "فلو أنّ العساكر اتّبعت رأي صلاح الدين في مسيرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكاّ، لكان بلغ غرضه، وصدّهم [أي العدو] عنها".<sup>57</sup>

٥ الكامل 12: 34. بعد وقعة عكاّ الكبرى في 21 شعبان 585هـ = 4 أكتوبر 1189م استحضر صلاح الدين الأمراء وأصحاب المشورة في سلخ شعبان، وقال لهم: "اعلموا أنّ هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا، وقد وطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النضرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في

لَمَّا تَطَرَّقَ بِهِاءُ الدِّينِ إِلَى إِقْبَالِ صِلَاحِ الدِّينِ عَلَى حَرْبِ الصَّلَيبِيِّينَ، كَانَ أَكْثَرَ دَعْمًا وَتأيِيدًا؛ إِذْ قَالَ: "وَلَقَدْ هَجَرَ فِي مَحَبَّةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ وَوَطَنَهُ وَسَكَنَهُ وَسَائِرَ مَلَادِهِ، وَقَنَّعَ مِنَ الدُّنْيَا بِالشُّكُونِ فِي ظِلِّ خِيْمَةٍ تَهْتُبُ بِهَا الرِّيحُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً"<sup>٦</sup>. وَأَعْجَبَ بِهِاءُ الدِّينِ - وَبِالْقَدْرِ نَفْسَهُ - بِصِلَاحِ الدِّينِ [57] كَقَائِدِ عَسْكَرِيٍّ، قَائِلًا: "وَمَا رَأَيْتُهُ اسْتَكْثَرَ الْعَدُوَّ أَصْلًا، وَلَا اسْتَعْظَمَ أَمْرَهُمْ قَطُّ. وَكَانَ - مَعَ ذَلِكَ - فِي حَالِ الْفِكْرِ وَالتَّدْيِيرِ، يُذَكِّرُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَفْسَامُ كُلُّهَا، وَيُرْتَّبُ عَلَى كُلِّ قِسْمٍ مُقْتَضَاهُ مِنْ غَيْرِ حِدَّةٍ وَلَا غَضَبٍ يَعْتَرِيهِ"<sup>٧</sup>. [58]

غَيْرَ أَنَّ الاسْتِيَاءَ كَانَ يَطْفُو عَلَى السَّطْحِ مِنْ أَنْ لآخَرَ فِي تَوَارِيخٍ لِاحِقَةٍ، فَنَرَى ذَلِكَ فِي كَلِمَاتِ قَائِدٍ<sup>٨</sup> لِاحْدَى ثَوْرَاتِ الْعُرْبَانِ ضِدَّ اسْتِيَاءِ الْمَمَالِكِ عَلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي الْعَامِ 648هـ = 1250م؛ إِذْ قَالَ: "نَحْنُ أَصْحَابُ الْبِلَادِ. أَنَا أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنَ الْمَمَالِكِ. وَقَدْ كَفَى أَنَا خَدْمَنَا بَنِي أَيُّوبَ [الْأُسْرَةَ الْحَاكِمَةَ الَّتِي أَسَّسَهَا صِلَاحُ الدِّينِ]، وَهُمْ خَوَارِجُ خَرَجُوا عَلَى الْبِلَادِ... إِنَّمَا هُمْ [أَيُّ الْمَمَالِكِ] عِبِيدٌ لِلْخَوَارِجِ"<sup>٩</sup>. [58]

إِنَّ شِدَّةَ الْجَهْلِ وَسُوءَ الْفَهْمِ الْأَوْرَبِيِّ الْغَرْبِيِّ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي وَقْتِ الْحَمَلَةِ الصَّلَيبِيَّةِ الثَّلَاثَةِ بَادٍ فِي كِتَابِ "تَارِيخِ الْحَمَلَةِ الصَّلَيبِيَّةِ الثَّلَاثَةِ" لِمَجْهُولٍ، الَّذِي ادَّعَى

---

هَذَا الْجَمْعَ الْبَاسِرِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِقَلْبِهِ، وَاللَّهُ قَدْ أَوْجَبَ عَلَيْنَا ذَلِكَ، وَأَتَمَّ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ عَسَاكِرُنَا، لَيْسَ وَرَاءَنَا نَجْدَةٌ نَنْتَظِرُهَا سِوَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ، وَهُوَ وَاصِلٌ. وَهَذَا الْعَدُوُّ إِنْ بَقِيَ وَطَالَ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ يَنْفَتِحَ الْبَحْرُ، جَاءَهُ مَدَدٌ عَظِيمٌ، وَالرَّأْيُ كُلُّ الرَّأْيِ عِنْدِي مُنَاجَزَتُهُ". لَكِنَّ الْجَمْعَ اخْتَلَفَتْ كَلِمَتُهُمْ، وَأَخْلَدُوا إِلَى الرَّاحَةِ وَانْتِظَارِ الْعَادِلِ. (النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ، ص 177؛ الرُّوضَتَيْنِ 4: 93-94). (المترجم)

٦ النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ، ص 53. (المترجم)

٧ النُّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ، ص 51. (المترجم)

٨ هُوَ الشَّرِيفُ جِصْنَ الدِّينِ ثَعْلَبُ بْنُ الْأَمِيرِ نَجْمِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ الْأَمِيرِ الشَّرِيفِ فَخْرِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ جِصْنَ الدَّوْلَةِ مَجْدِ الْعَرَبِ ثَعْلَبُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ أَبِي جَمِيلِ الْجَعْدِيِّ، مِنْ ذُرِّيَّةِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ثَارَ عَلَى الْمُعَزِّ أَيْبِكَ بِنَاحِيَةِ دَهْرُوطِ صَرْبَانَ (= مَدِينَةُ دِيرُوطِ بِمَحَافِظَةِ أَسْوَاطِ الْآنَ). يُنْظَرُ: السُّلُوكُ 2/1: 386؛ الْبَيَانُ وَالْإِعْرَابُ عَمَّا بَارَظَ مِصْرَ مِنَ الْأَعْرَابِ، ص 44. (المترجم)

٩ Holt, P.M., 'Saladin and his Admirers: A biographical reassessment' in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 46 (1983) p. 130.

قَلْتُ: وَيُنْظَرُ السُّلُوكُ 2/1: 386. (المترجم)

أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ :

”كان من أُمَّة ميرمونانوس (Mirmunaenus) [تحريف لكلمة أمير المؤمنين]. ولم يكن أبأوهم مُنحدرين من طبقة النبلاء، بَيِّدَ أَنَّهُمْ لم يكونوا من عَامَّةِ النَّاسِ، ولم يكونوا من أَصُولِ مَجْهُولَةٍ... حَصَّلَ صَلَاحَ الدِّينِ لِنَفْسِهِ مَكَاسِبَ غَيْرَ شَرَعِيَّةٍ عِبرَ فَرَضِ ضَرِيبةٍ عَلى بَغَايا دِمَشق. ولم يُسَمَحَ لَهُنَّ بِمَمارِسةِ الدَّعَاةِ ما لم يحصلن - بعد دَفْعِ مبلغٍ مُعَيَّن - عَلى تَرخِيصٍ مِنْهُ لِمَزاوِلَةِ الجِنسِ. مع ذلك، كُلُّ ما تَحَصَّلَ عَلَيْهِ عِبرَ هَذِهِ القِوَادَةِ، أُعاد دَفْعُهُ بِسِخَاءٍ عَلى تَمويلِ الأَلعابِ المُسَلِّيةِ. لذلك، وبالعطاء السَّخِيَّ لِتَلبيةِ جَميعِ رِغباتِهِم، كَسبَ التَّأييدَ الاِنْتِفاعيَّ مِنْ قِبَلِ عَامَّةِ النَّاسِ“.<sup>١٠</sup> [58]

وعلى نحو مُماثِلٍ صَوَّرَ أَمبروز (Ambroise) حَيَظَةَ صَلَاحِ الدِّينِ عَلى أَنَّها ضَرَبٌ مِنَ المَكْرِ أو الخِيانَةِ.<sup>١١</sup> لم يَتَجَلَّ الإِعْجابُ بِشِمالِ قَلَّةٍ قَليلَةٍ مِنَ الأَبطالِ المُسَلِّمينِ إلا في نِصوصِ خِواتيمِ القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ وَأَوائلِ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، وَقَد كان صَلَاحُ الدِّينِ مِخْورِيًّا في هَذِهِ الصُّورَةِ المُعَدَّلَةِ. حَظِي أَيْضًا صَلَاحُ الدِّينِ بِمِكانَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعةٍ في الكُومِيديا الإِلَهِيَّةِ (Divine Comedy) لِدانتي (Dante)، شاعِرِ إِيطالِيا في العِصْرِ الوَسْطِيِّ. فَلَأنَّهُ لم يَكُنْ مَسِيحِيًّا مُعَمِّدًا، لم يُوضَعِ في الجَنَّةِ، لَكن بِحُلُولِ العَامِ 700 هـ = 1300 م كانت شِهرَةُ صَلَاحِ الدِّينِ قَد ذاعَتْ، وجعلتُهُ يَقيمُ في لِيْمبو (Limbo) بَدَلًا مِنَ الجَحِيمِ: ”وَهناكَ عِبرَ ذاكِ اللُّونِ الأَخْضَرَ الفاقِعِ، ظَهرَ لي هَؤُلاءِ الأَبطالِ القُدَّامِي... فَرأيتُ جَميعَ هَؤُلاءِ، وَهناكَ في مِكانٍ ناءٍ رَأيتُ السُّلطانَ صَلَاحَ الدِّينِ يَقفُ وَحيدًا“.<sup>١٢</sup> [58]

١٠. Anon. (trans. H.J. Nicholson), *Chronicle of the Third Crusade: A Translation of Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi* (Aldershot 2001) pp. 26–27.

١١. M.J. Ailes, “The Admirable Enemy? Saladin and Saphadin in Ambroise’s *Estoire de la guerre sainte*”, in N. Housley (ed.), *Knighthoods of Christ: Essays in the History of the Crusades and the Knights Templar, presented to Malcolm Barber* (Aldershot 2007) pp. 51–64.

١٢. Dante (tr. Griffiths, E. & Reynolds, M.), *Dante in English* (London, 2005) Canto 4, Limbo, II. pp. 118–29.

قَلْتُ: تَأثَّرَ دانتي في ”الكُومِيديا الإِلَهِيَّة“ بِأبِي العِلاءِ المَعَرِّيِّ في كِتابِهِ ”رِسالَةُ الغُفْرانِ“، ولم

في أثناء القرن التاسع عشر صار ينظرُ الكثيرُ في أوربا إلى صلاح الدِّين على أنه شخصيَّةٌ بطوليَّةٌ، وأنه العدوُّ المسلمُ النَّبيلُ الأصيل. وتبعًا لذلك، أوضحتِ السِّيرُ الذاتية - مثل تلك التي صنَّها ستانلي لين-بول (Stanley Lane-Poole) ١٣ - غير نقدية. كما منعتُ مكانةُ صلاح الدِّين السَّامِقةُ كأحد أبرز الأبطالِ المُسلمين، الدِّراسةَ النَّقديةَ له في العالمِ العربيِّ الحديث، مع أنَّ ثلَّةً من المؤرِّخين العرب الجُدد ركَّزوا أكثرَ على أسلاف الدِّين؛ ومن ثمَّ قلَّلوا من قيمة إنجازاته. وبالطريقة نفسها، إنَّ تبني العالمِ العربيِّ لصلاح الدِّين كقدوةٍ يُحتذى بها في الصِّراع ضدَّ إسرائيل شجَّعَ لغيِّفًا من المؤرِّخين المؤيِّدين للصهيونيَّة على مُحاولة التَّيْل منه بطريقةٍ مُباشرةٍ أو غير مُباشرةٍ. [58]

على صعيدٍ آخر، من الشَّائق أن نجد مؤرِّخين غربيين - وليس مُسلمين - شدَّوا على شرعيَّة حُكم آل أيُّوب مُقارنةً بشرعيَّة خُلَفائهم من المماليك، المُفترض أنَّهم عبيدٌ. كانت الشرعيَّة [58] جائزةً يجب الظَّفر بها من قبيل آية دَوْلَةٍ داخل النِّظام السِّياسيِّ الإسلاميِّ، في مُعظم أرجاء العالمِ الإسلاميِّ القروسطيِّ، باستثناء بارزٍ للخلافة ذاتها. كان الغربيون أيضًا - سواء في العصور الوسطى أم الحديثة - يميلون إلى معرفة الظروف السِّياسية سريعة التَّغيُّر والمُعقَّدة في الشرق الأوسط إبان العصور الوسطى كدليلٍ على الاضطراب والفساد والتَّأمر. والحقيقة أنَّ هذا الجزء من عالم العصور الوسطى كان أكثرَ مرونة سياسيًا، وأكثرَ جدارة، وأكثرَ ديمقراطية إلى حدِّ ما من أوربا الغربيَّة في العصور الوسطى. [59]

كانت إحدى مساوئ هذه السُّلاسة أنه - برغم قيادة صلاح الدِّين غير العادية ومهاراته السِّياسية - لم ينجح قطُّ في ربط مصر والشَّام ضمن وحدةٍ دينيةٍ أو عسكريَّةٍ أو اقتصاديةٍ. وأمسى هذا الضَّعف واضحًا كُلِّ الوضوح غيب وفاته؛ إذ باتت المملكةُ أو الممالك الأيوبيَّة عبارة عن مجموعةٍ من الإقطاعات العائليَّة المُتنافسة. تطلَّب الأمرُ كاتبًا لسيرة صلاح الدِّين حديثًا، يكون غير متعاطفٍ البتَّة، وعلى قدرٍ كبيرٍ من المعرفة من طراز أندرو إهرنكروتز (Andrew Ehrenkretz) ١٤ من أجل إبراز

يُخفِّ دانتي جُفده على نبيِّنا ﷺ - بأبي هو وأمِّي - فساق أبياتًا في الأنشودة الثامنة والعشرين لا تليق به، وأحسن مُترجمها صنَّعًا في حذفها. (المترجم)

١٣ عُقابُ المُستشرقين الإنكليز، (1854-1931م). (المترجم)

١٤ هو المُستشرق اليهودي الأمريكي أندرو ستيفن إهرنكروتز (1921-2008م). (المترجم)

نُقِطَ الضَّعْفُ وَالْقُصُورُ فِي قِيَادَتِهِ: [59]

”بُرْغَمَ صُورَةَ صِلَاحِ الدِّينِ الذَّائِعَةِ الصَّيْتِ عَقِيبَ انْتِصَارِ حِطِّينِ الْعَظِيمِ وَالِاسْتِرْدَادِ الْمَجِيدِ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، لَمْ يَكُنْ وَضَعُهُ كَقَائِدِ الْقُوَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُقَاتِلُ الصَّلِيبِيِّينَ مُرِيحًا أَبَدًا. فَفِي أَوَائِلِ سَنَةِ 581هـ = 1186م قَدِ دَلَّتْ حَوَادِثُ مَعَ نَاصِرِ الدِّينِ<sup>١٥</sup> بِنِ شِيرْكَوهِ وَتَقِيِّ الدِّينِ عُمَرَ أَنَّ صِلَاحَ الدِّينِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثِقَ حَتَّى بِأَقْرَبَائِهِ<sup>١٦</sup>. وَكَشَفَتِ الْأَحْدَاثُ بِصُورِ فِي الْعَامِ 583هـ = 1187م أَنَّ الْجُنُودَ لَمْ تُثَرِّمَ - بَلْ لَمْ تَسْتَحِذْ عَلَيْهِمْ - مِثْلُ الْجِهَادِ الَّتِي اعْتَنَقَهَا صِلَاحُ الدِّينِ، وَنَادَى بِهَا، وَأَنَّ هَذَا التَّفْوِضَ الْمُؤَكَّدَ ذَاتِيًّا قَدْ تَبَرَّأَ مِنْهُ خَلِيفَةُ بَغْدَادِ<sup>١٧</sup> بِعِبَارَاتٍ لَا لَبْسَ فِيهَا“<sup>١٨</sup>. [59]

لا يزال مؤرِّخ أكثر تعاطفًا مثل ب.م. هولت قادرًا على دراسة الرسائل العديدة الصادرة من بلاط صلاح الدين؛ إذ توصل إلى أنه: ”لم يعد صلاح الدين الذي ينبعث من هذه الصفحات بطل الإسلام الواثق المتفاني، حتى إن لم يتحلل بصفات البطل ويجلب الكوارث إلى الديار المصرية كما صوره إهرنكروتز. وتظهر دائمًا طبيعته المترعزة لمنصبه ووضعه. فكان الجهاد وسيلة لشرعنة حكمه“<sup>١٩</sup>. [59]

١٥ الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الأول، المتوفى يوم عرفة 581هـ = 1185م. ترجمته في: الكامل 11: 517-518؛ مرآة الزمان 21: 308-309؛ مفرج الكروب 2: 174؛ سير أعلام النبلاء 21: 143-144؛ تاريخ الإسلام 12: 737. (المترجم)

١٦ فأما ناصر الدين فعندما مرض صلاح الدين مرضته الشهيرة بخران سنة 581هـ = 1185م، سعى لأيلولة الحكم إليه؛ ظنًا منه أن صلاح الدين ميتٌ منها لا محالة. وأما تقي الدين فحركته في بلاد الجزيرة الفراتية ومكنته بها برغم حاجة صلاح الدين إليه المسيسة وقت حصار عكا، غير خافية على كل أولي النهى. (المترجم)

١٧ كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله في نفسه إحترامًا وضعافًا على صلاح الدين؛ لعلو كعبه بعد تحرير بيت المقدس، ولإرساله إليه جندي مغمور ببشارة الفتح، ولرفع ركب الحاج الشامي علم صلاح الدين يوم عرفة، لذا كانت مساعدات الناصر شحيحة وقت حصار عكا. يُنظر: الروستين 3: 420-419؛ تاريخ الإسلام 12: 764-765؛ شفاء القلوب للحنبلي، ص161. (المترجم)

١٨ Ehrenkretz, A.S., *Saladin* (Albany, 1972) pp. 210-11.

١٩ Holt, P.M., 'Saladin and his Admirers: A biographical reassessment', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 46 (1983) p. 238.



شكل 56 منبر المسجد الأقصى الجديد من الخشب والعاج. (صورة التقطها المؤلف)



شكل 57 صورة لفارس. (المتحف البريطاني، رقم 1885، 11-13، لندن)

أشار ليونز (Lyons)<sup>٢٠</sup> وجاكسون (Jackson)<sup>٢١</sup> - وعلى نحوٍ مُماثلٍ - إلى وضع صلاح الدين العسكري المحضف بالمخاطر بقولهما: [59]

”إنَّ العامِلَ الذي يجب أن يُؤخَذَ بعَيْنِ الاعتبار هو هَيْكَلُ جيشه غير القَابِتِ. فلم يَكُنْ لدى حُلَفَائِهِ أَيُّ سَبَبٍ يَحْتُثُهُمْ عَلَى مَنْحِهِ دَعْمًا صَادِقًا. أمَّا أَمْرَاؤُهُ وَعَسَاكِرُهُ النَّظَامِيُّونَ فَكَانَ هُوَ وَعَائِلَتُهُ أَعْضَاءً نَاجِحِينَ مِنْ فَتْنِهِمْ، وَلَمْ يُدْعَمْ أَيُّ حَقِّ إِلَهِيٍّ لِلْمَلُوكِ أُسْرَتَهُ الْحَاكِمَةَ؛ فَالإِقْرَارُ وَالْمَرْسُومُ الدِّينِيَّ الَّذِي قَدِ اسْتَحَقَّتْهُ أَنْكَرْتَهُ بَغْدَادُ. [59] وَإِبَانُ فِتْرَةٍ تَوْشَعُهَا، كَانَ مِنَ الْمُفِيدِ الْإِنْضِمَامِ إِلَى أَكْنَافِهِ، يَبْدَأَنَّ الأَرْبَاحَ والأَعْدَادَ مُرْتَبِطَةً إِرْتِبَاطًا لَا انفِصَامَ لَهُ. فَعِنْدَمَا بَدَأَتْ أَرْبَاحُهُ العَسْكَرِيَّةُ تُظْهِرُ خَسَارَةً، كَانَ مِنَ المُتَوَقَّعِ أَنْ تَقَلَّ أَعْدَادُهُ؛ وَمِنْ ثَمَّ قَدْ يُهَدَّدُ تَوْشَعِيُونَ آخَرُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ أُسْرَتَهُ الْحَاكِمَةَ.“<sup>٢٢</sup> [60]

إِنَّ كَوْنَ صِلَاحِ الدِّينِ حَاكِمِ مَنْطِقَةٍ حَدُودِيَّةٍ تُوَاجِهُ إِمَارَاتٍ صِلِيبِيَّةً قَوِيَّةً، يُظْهِرُهُ - وَبِلا

٢٠ المؤرِّخ البريطاني ملكوم كامرون ليونز، (1929-2019م). (المترجم)

٢١ المؤرِّخ الهندي ديفيد إدوارد بريتشيت جاكسون، (1941م-). (المترجم)

٢٢ Lyons, M.C., & Jackson, D.E.P., *Saladin: The Politics of the Holy War* (Cambridge, 1982) p. 286.



شكل 58 نحتٌ تمثيليٌّ يُبين انتصارَ صلاح الدِّين بمعركة حطين، يقف الآن خارج قلعة دِمَشق، ويظهر على العُملة السُّوريَّة من فئة مئتي ليرة.

تحيز - واجدًا في سلسلة القادة الذين استخدموا هذا الوضع لبناء دولةٍ عبر كسب الدَّعم كمدافعٍ عن المِنطقة ضد أعدائها. إنَّها عمليةٌ قد حدثت في أجزاءٍ عديدةٍ من العالم على مدار التاريخ. مع ذلك، ليس هناك مَنْ يُنكر أنَّ صلاح الدِّين كان أكثرَ نجاحًا من مُعظم معاصريه في التَّغلب على الشُّقَّاق الذي قوَّض - ولقرونٍ - الأنظمة العسكريَّة التقليدية في الشرق الأوسط الإسلاميِّ، لا سيَّما أسلافه الفاطميين في ديار مصر. وهنا مرَّبط الفَرَس؛ إذ يكمن السُّرُّ الحقيقيُّ في نجاحه. [60]

صلاح الدّين ومُعجَبوه:

## إِعادة تقيّم ببلوغرافي<sup>١</sup>

”تُشكّل سيرة صلاح الدّين وإنجازاته إحدى العلامات الفارقة في تاريخ الحروب الصليبيّة. إذ تُظهره الأدبيات غالبًا في صورة البطل الفاتح، الذي حارب أعداءه وأجاءهم - بأخرة - إلى طريق مسدودة. يبيد أنّ النّظر المُتلبّث والدّرس المُستأنّي في تضاعيف سيرته يكشف لنا أنّه لم يكُ فاتحًا فحسب، إنّما كان أيضًا رجلًا خضد شوكة أعداء من بني جلدته، ولمّا بلغ السيلُ الزّبي انضمّوا إليه وجاهدوا تحت إمرته التي غدت وقتئذٍ مُتفرّدة. ومن تلكم الزّاوية نراه رجلًا ناضل في سبيل مُثله العُليا؛ فتجلّت بطولته في الخُطة التي اتّبعها - لكنّها عجزت - رجاء تحقيق آماله وتطلّعاته مثلما تجلّت في انتصاراته“<sup>٢</sup>.

إنّ هاته الكلمات التي استهلّ السير هاملتون جيّب (Sir Hamilton Gibb)<sup>٣</sup> بها كتابه عن سيرة صلاح الدّين هي أحدث - بل رُبّما آخر - تبيين وإفصاح عن سنن في التّاريخ الأوربيّ للحروب الصليبيّة قد كان مُتبعًا على أقلّ تقدّر منذ أن نشر ستانلي لين-بول (Stanley Lane-Poole) كتابه ”صلاح الدّين وسقوط مملكة بيت المقدس: *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*“ في العام 1898م.<sup>٤</sup> في الحقّ، إنّ أصل هذا السنن رُبّما يعود إلى السير ولتر سكّت (Sir Walter Scott)<sup>٥</sup> صاحب رواية

Holt, P. M., "Saladin and His Admirers: A Biographical Reassessment". In *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 46, No. 2 (1983), pp. 235-239.

واقترحت على المؤلّف إلحاق هذه المقالة بكتابه، فرحّب كلّ ترحيب، وأذن لي. وكان البحّثة هولت قد نشرها غيّب صدور كتاب ”صلاح الدّين“ لكُلّ من ليونز وجاكسون. (المترجم)

Hamilton [A. R.] Gibb, *The Life of Saladin*, Oxford, 1973, 1.

قلّت: ويُنظر ”حياة صلاح الدّين الأيوبيّ في الاستشراق البريطاني“ لهاملتون جيّب، ص 42. (المترجم)

<sup>٣</sup> مُستشرقٌ بريطانيّ قديرٌ، وُلِدَ بالإسكندرية في العام 1895م، وتوفّي سنة 1971م. (المترجم)

<sup>٤</sup> صدر الكتابُ بترجمتي عن الدار المصرية اللبنانية في العام 2023م. (المترجم)

<sup>٥</sup> روائيٌّ وشاعرٌ إسكتلنديّ (1771-1832م). (المترجم)

الطَّلَسَم (Talisman)<sup>٦</sup>، التي كان جِبَّ نفسه - وَفُق ما قِيلَ لنا - يُقَرِّرها على "طُلابه على أَنَّها تُحْفَةُ أَدَبِيَّةٌ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهَا كَثِيرًا عَنْ تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ"<sup>٧</sup>.  
تُوجَّه - مع ذلك - هذِي النَّظَرَةُ عَنْ صِلَاحِ الدِّينِ صَعُوبَةً أَنَّ صِلَاحِ الدِّينِ مُدَّ بَدَأَ حُكْمَهُ الْمُسْتَقْبَلُ فِي الْعَامِ 570هـ = 1174م حَتَّى وَفَاتِهِ سَنَةَ 589هـ = 1193م، قَضَى اثْنِي عَشَرَ عَامًا جُلَّهَا فِي مُحَارَبَةِ الزَّنْكَيِّينَ - أَيِ أُسْرَةِ سَيِّدِهِ الرَّاجِلِ نُورِ الدِّينِ وَأَتْبَاعِهِ - بَيْنَمَا لَمْ يَقْضِ سِوَى خَمْسِ سَنِينَ لَا غَيْرَ فِي الْجِهَادِ ضِدَّ الْمَمْلُوكَةِ اللَّاتِيْنِيَّةِ وَالْحَمْلَةَ الصَّلِيبِيَّةِ الثَّلَاثَةَ. فَأَيُّ حُكْمٍ عَلَى مَسِيرَتِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ عَلَى النَّظَرَةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ تِيكَ السَّنِينَ الْإِثْنِي عَشْرَةَ الْأُولَى. عَدَّ جِبَّ (Gibb) صِلَاحِ الدِّينِ مُلْهَمًا عَلَى الدَّوَامِ بِاتِّخَاذِهِ قَرَارَ جِهَادِ الْفَرَنْجِ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ لَهُ أَهْدَافٌ أَوْسَعُ "لِلْإِسْتِعَادَةِ وَإِحْيَاءِ اللَّحْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ كإِمْبْرَاطُورِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مُوَحَّدَةٍ، غَيْرِ خَاضِعَةٍ لِسُلْطَانِهِ الشَّخْصِيِّ، وَذَلِكَ عِبْرَ إِعَادَةِ تَحْكِيمِ الشَّرْعِ فِي أَكْنَافِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ"<sup>٨</sup>. يَرْتَكِزُ هَذَا التَّفْسِيرُ الْغَائِثِيُّ لِمَسِيرَةِ صِلَاحِ الدِّينِ عَلَى مَصَادِرَ عَرَبِيَّةٍ مُعَاَصِرَةٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ بَرَزَتْ - بِمُقْتَضَاهَا - إِلَى الْوُجُودِ أُسْطُورَةُ إِنْجَازَاتِهِ فِي عَقْبِ وَفَاتِهِ. وَأَنَّ هَذِهِ الْمَصَادِرَ لَمْ تُنَاقَشْ إِلَّا بِاخْتِصَارٍ فِي ثِنَايَا الْعَمَلِ الَّذِي نَحْنُ فِي رِحَابِهِ (ص 2-3)<sup>٩</sup>، رُبَّمَا يَكُونُ الْفَحْصُ الْمُسْتَأْنِي التَّامُّ عَلَى مُكْتَبِهِ مُبْرَّرُهُ.

إِنَّ كَاتِبِي سِيرَةِ صِلَاحِ الدِّينِ الْمُعَاَصِرِينَ، اثْنَانِ، هُمَا: بَهَاءُ الدِّينِ ابْنِ شَدَّادٍ، وَعِمَادُ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِيَّ. فَأَمَّا عَمَلُ ابْنِ شَدَّادٍ "النَّوَادِرُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالْمَحَاسِنُ الْيُوسُفِيَّةُ" فُنَشِرَ مُحَقِّقًا فِي أَوْرُبَا مَعَ تَرْجُمَةٍ لَاتِيْنِيَّةٍ عَلَى يَدِ الْمُسْتَشْرِقِ الْهَوْلَنْدِيِّ أَلْبِرْتِ شَوْلْتَنْزِ (Albert Schultens)<sup>١٠</sup> فِي فَاتِحَةِ الْعَامِ 1732م. فَعَدَا - مِنْ ثَمَّ - عُنْصُرًا رِئِيسًا فِي تَشْكِيلِ

٦ صدرت الرواية في العام 1835م، ثمَّ عَرَّبَهَا مُحَمَّدُ مُحَمَّدُ مُحَمَّدُ، وَنُشِرَتْ ضَمْنَ مَطْبُوعَاتِ لَجْنَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ بِالْقَاهِرَةِ فِي الْعَامِ 1938م. (المترجم)

٧ Albert Hourani, 'H.A.R. Gibb: The Vocation of an Orientalist', *Europe and the Middle East*, [London, 1980], at p. 106.

٨ H. A. R. Gibb, 'The Achievement of Saladin', *Studies on the Civilization of Islam*, Boston, [1962], at p. 100.

٩ يقصد كِتَابَ "صِلَاحِ الدِّينِ" لِكُلِّ مَنْ لِيُونِزِ وَجَاكْسُونِ، وَعَرَّبَهُ الدُّكْتُورُ عَلِيٌّ مَاضِيٌّ، وَصَدَرَ عَنِ الدَّارِ الْأَهْلِيَّةِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ بِبَيْرُوتِ فِي الْعَامِ 1988م. (المترجم)

١٠ تُوفِّيَ سَنَةَ 1750م. (المترجم)

نظرة المؤرّخين الأوربيين عن صلاح الدّين. فاستخدمه جيبون (Gibbon)<sup>١١</sup> الذي يُطلقُ على المؤلّف اسمَ (Bohadin)، ثمّ بُعيد ذلك بثمانين سنةً، حين كتّب وليم ستابس (William Stubbs)<sup>١٢</sup> مقدّمته لكتاب "صليبية الملك رتشارد: *Itinerarium Regis Ricardi*"، كان عمل بهاء الدّين لا يزال هو المصدّر العربيّ الأساسي - بل الوحيد تقريباً - المتوفّر بين يديه. وأمّا الأصفهانيّ فكُتّب تاريخه عن سيرة صلاح الدّين وعصره في سبعة مجلّدات، وسَمّاه "البرق الشّامي"<sup>١٣</sup>. لا يُوجد منه الآن إلاّ مجلّدان كاملان، لكنّ بقيت مقتطفاتٌ من المجلّدات الأخرى، ونُشر حديثاً مُختَصَرُ البُنْدَارِيّ<sup>١٤</sup> "سَنَا البرق الشّامي"<sup>١٥</sup> كاملاً. صنّف أيضاً تاريخاً عن المرحلة الأخيرة المَجدية من مسيرة صلاح الدّين، من العام 583 = 1187م حتّى وفاته، وسَمّاه "الفتح القُسيّ في الفتح القُدسيّ"<sup>١٦</sup>.

قد يبدو أنّ ذانك المصدّرين لا تشوّهُما شائبةٌ من خطأ؛ لأنّ كلا الرّجلين كان من موظّفي بلاط صلاح الدّين المُقرّبين: فأما ابن شدّاد فكان يتولّى منصبَ قاضي جيشه، وأمّا الأصفهانيّ فكان كاتبه. هذي في الواقع نظرةٌ جبّ. غير أنّ بعض

١١ مؤرّخ إنجليزيّ، تُوفّي سنة 1794م. (المترجم)

١٢ مؤرّخ إنجليزيّ، تُوفّي سنة 1901م. (المترجم)

١٣ تاريخٌ بدأ فيه بذكر نفسه ونشأته ورحلته من العراق إلى الشّام، وأخباره مع الملك العادل نُور الدّين والسُلطان صلاح الدّين وما جرى له في خدمتهما، بدءاً من العام 562هـ حتّى وفاة صلاح الدّين سنة 589هـ. وقد قيّد ما عدا المجلّدين الثالث والخامس، فحقّق المجلد الثالث الدكتور مصطفى الحيارى (عمّان 1987م)، أمّا المجلد الخامس فحقّقه الدكتور رمضان ششن (إسطنبول 1979م)، ثمّ أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسين (عمّان 1987م). (المترجم)

١٤ الأديب قوام الدّين الفتح بن عليّ بن محمّد، المتوفّي سنة 643هـ = 1245م، مكينٌ في العربية والفارسية. له ترجمة في: تاريخ الإسلام 14: 465. (المترجم)

١٥ الكتاب في مجلّدين، يحوي المجلّد الأوّل منه حوادث سنوات (563-583هـ)، وحقّق الدكتور رمضان ششن (بيروت 1971م) جزءاً منه حتّى حوادث سنة (576هـ)، ثمّ نشرته كاملاً الدكتور فحّية النبراوي (القاهرة 1979م)، لكنّها نشرةٌ سقيمةٌ تعوزها الأناة والدقّة. أمّا المجلد الثاني، الذي يحوي حوادث سنوات (584-597هـ)، فلم يصلنا بعد. (المترجم)

١٦ كان قد سمّاه "الفتح القُدسيّ" وعرضه على القاضي الفاضل، فقال له: سمّه "الفتح القُسيّ في الفتح القُدسيّ"؛ فقد فتح الله عليك فيه بفصاحةٍ فسّ وبلاغته. لكنّ الفيروز آبادي (ت. 817هـ = 1415م) الذي اختصره، سمّاه "الفتح القُسيّ في الفتح القُدسيّ". وظهر في طبعاّتٍ مُختلفة. (المترجم)

الخَيْطَة ضروريٌّ. فهذه في النِّهاية سِيرٌ ملكيَّةٌ، كَتَبَهَا رِجَالٌ بلاطٍ عن سيِّدهم. لا شكَّ في أنَّ كِتَابَ "الْفَتْحِ" فُرِّغَ من تصنيفه في غضون أشهرٍ قِلالٍ من وفاة صلاح الدِّين؛ إذ يرى د.س. رتشاردز (D.S. Richards) <sup>١٧</sup> أنَّ مُعْظَمَهُ "كان مُتَوَفِّراً حَقِيقَةً بصيغَةٍ ما في حياة صلاح الدِّين"؛ لأنَّ "العمل رُبَّمَا كان مُعَدًّا من أَجْلِ تقديمه إلى صلاح الدِّين". <sup>١٨</sup> أمَّا كِتَابُ "النُّوَادِر"، الذي يرى رتشاردز أَنَّهُ اعتمد اعتمادًا جزئيًّا على كِتَابِ "الْفَتْحِ"، فَرُبَّمَا فُرِّغَ من تَأْلِيفِهِ في مُفْتَتِحِ العام ١١98م (= 594هـ)، والمُؤَكَّدُ أَنَّ ذلك لم يتعدَّ العامَ ١216م (= 613هـ)، أَي في وَقْتٍ كان فيه أَلُ صلاح الدِّين من بني أَيُّوب حُكَّامًا مُهيمينين على الدِّيار المِصْرِيَّةِ وبلاد الشَّام الإسلاميَّة. ويلحظ بيريل سمولي (Beryl Smalley) <sup>١٩</sup> أَنَّ آيَةَ كِتَابَةِ عن أَيِّ تَأْرِخٍ أَوْرُبِّيِّ إِبَّانِ العصور الوسطى تَتَسَمُّ بِأَنَّ:

آيَةُ سِيرٍ ملكيَّةٍ تُهيمُنُ عليها في الغالب الأعمَّ سِمَةٌ وَاحِدَةٌ: إِنَّهَا قَطَعُ دَعَائِيَّةٍ. فالكِتَابُ تَشَابَهَتْ مَآرِبُهُمْ وطرائقُهُمْ، لكنَّهُم اضطرُّوا جميعًا إلى إيجادِ قَالِبٍ يَضُمُّ بين مَطَاوِيه الحَقَائِقَ التي يصعبُ لِيَّ أعناقها. وكان لِزَامًا أَنْ يُقدِّمَ الأميرُ وَفَقَ ما كان كَاتِبُ سِيرَتِهِ يرغِبُ في إظهاره أمامَ قُرَّائِهِ أو سامعيه. <sup>٢٠</sup>

وهذا قد كان صحيحًا أيضًا فيما يخصُّ ابن شدَّاد، والأصفهانيَّ. وثَمَّ مَلْحَظٌ إضافيٌّ، وهو أَنَّ كَلًّا منهما قد ترك خدمةَ الرُّنكيسين، والتحق بخدمة صلاح الدِّين. فأما الأصفهانيُّ الذي كان كَاتِبَ نور الدِّين، فانضمَّ إلى صلاح الدِّين بعد سنةٍ من وفاة سيِّده. وأمَّا ابن شدَّاد فكان مَسْقُطَ رأسه بالمُوصِلِ، وتفاوض مع صلاح الدِّين نيابةً عن أتابكها الرُّنكيِّ في العام 581هـ = 1186م. ثُمَّ لم يَمُرَّ عامانِ إلَّا وقد دخل في خدمة صلاح الدِّين. ففعلَ كِلا الرَّجُلَيْنِ سعى إلى تبرير تبدُّلِ ولاءه عبر تمجيد شخصيَّة صلاح الدِّين وإنجازاته. يجب أيضًا ألاَّ يُغيب عن ذهن المرء أنَّ ابن شدَّاد لم يستطع أن يكتب - وهو يستقي من مَعِينِ معلوماته الشخصيَّة - إلَّا عن السِّنِينِ الأخيرة لَمَّا خاض صلاح الدِّين القتالَ العَصِيبَ ضدَّ الفِرَنْجِ.

١٧ المؤرخ الإنكليزي دونالد سيدني رتشاردز (1935م-). (المترجم)

١٨ D. S. Richards, 'A Consideration of the Sources for the Life of Saladin', *Journal of Semitic Studies*, xxv, 1, 1980, p. 61.

١٩ مُؤرِّخٌ إنجليزيٌّ، تُوفِّي سنة 1984م. (المترجم)

٢٠ Beryl Smalley, *Historians in the Middle Ages*, London, [1974], 67.

في الوقت نفسه تقريباً الذي صنّف فيه مُناصِرو صلاح الدّين تَلَكُمُ الأعمالَ، ظهر عملٌ على يد المؤرّخ ابن الأثير (555-630هـ = 1160-1233م)، وهو الذي قضى جُلَّ حياته في المَوْصِلَ؛ ومن تَمَّ فهو مَنْ يُقدِّم وجهَةَ النَّظَرِ الزَّنكيَّةِ عن الحوادث. ويبدو كتابُه عن تاريخ أُسرة آل زَنكي الموسوم بـ "الباهر في تاريخ أتابكة المَوْصِل" <sup>٢١</sup>، الذي فرَغَ من تصنيفه في العام 607هـ = 1211م، أَنَّهُ أَلْفَه ليكون رَدًّا سَريعًا ولاذِعًا على كِتابات المُعجِبين بصلاح الدّين. فبرُغم أَنَّ العنوان يُشيرُ تحديدًا إلى أتابكة المَوْصِل - رُعاة ابن الأثير - إلا أَنَّ نصيبَ الأسدِ فيه خُصِّصَ لنور الدّين، الذي لم يحكُم إلا في الشَّام، لكنَّه كان - وبلا ريبٍ - أميرَ أفرادِ الأُسرةِ قاطبةً. يُركِّز ابن الأثير في كلماته التي استهلَّ بها الكِتابَ على دَوْرِ الزَّنكيين كأبطالٍ في الجهاد. ويُظهِرُ تَقريرُهُ المُطوَّلُ والمُفصَّلُ عن نور الدّين، أَنَّهُ يردُّ - في بعض الأحيان - على أقوالٍ أثبتتها ابن شدَّاد عن صلاح الدّين.

هكذا برزت إلى الوجود - وفي غضون عشرين سنةً تقريبًا من وفاة صلاح الدّين - فكرتان مُتناقضتان عن حاكمي بلاد الشَّام الإسلاميَّة في القرن الثاني عشر، تُمجِّدان مآثرَ الزَّنكيين وصلاح الدّين تَباعًا. وفَّق بين ذينك التَّاريخيين أبو شامة (559-665هـ = 1203-1268م)، الذي قضى تقريبًا معظمَ حياته في دِمَشق. ويُعلِنُ عنوانُ عمله "كِتاب الرُّوضتين في أخبار الدَّولتين النُّوريَّة والصَّلاحية" عن مآربه الباغية الحلَّ الوسط. فرَغَ من تصنيفه في العام 651هـ = 1253م في ظروفٍ مُختلفةٍ عن تلكم التي عايشها الكِتابُ السَّابقون. ففقد الأيوبيون الدِّيارَ المِصريَّةَ بعد سيطرة المماليك عليها، وكان القديس لويس (St. Louis)، الذي قد هُزِمَ في مِصر، بعكًا يُصلِحُ دِفاعاتِ المملكة اللاتينية. وكان حليفًا مرغوبًا لكلِّ من المماليك، وعدوهم صاحب حَلْبٍ ودِمَشق الأيوبيِّ؛ فكلاهما عرض عليه إرجاع البلاد التي أخذها صلاح الدّين. وبرُغم أَنَّ المُفاوضات انتهت بلا نتيجة حاسمة، لا بُدَّ أَنَّها بدتْ لأبي شامة - العالم المُتديِّن غير المُتمرس بالسياسة - كما لو كان عملُ صلاح الدّين كاد يذهب سُدىً على يد أخلافه من

٢١ وأورده ابن خلِّكان بعنوان "تاريخ دَوْلَة بني أتابك". (وفيات الأعيان 1: 365). ولابن الأثير عندي حُبٌّ واصلٌ؛ إذ كان كتابه هذا موضوع دراستي في رسالة الماجستير بعنوان "ابن الأثير مؤرِّخًا للدَّولة الزَّنكيَّة: دراسة في ثنايا كتابه التاريخ الباهر"، ورأت طبعته الثانية المُنتَحة الضِّياءَ بدار نور حوَّران في العام 2024م. (المترجم)

بعده. فلا عَجَبَ أن استخلص من التاريخ عِبْرَةً لِحُكَّامِ عصره، وسعى إلى توصيلها عبر هذا التاريخ المُشترَك عن نور الدِّين وصلاح الدِّين.

كُونت أسطورة صلاح الدِّين على هذا النَّحو، بعد سِتِّينَ سنةً من وفاته. فيصوِّر صلاح الدِّين - مُغتَصِبَ إرث الرُّنَكِيِّين - على أَنه خليفَتُهُم في أداء المَهْمَّةِ الإلهيَّةِ المُحدَّدة. ويُنظَرُ بِأثرٍ رجعيٍّ إلى الصِّراعات من أَجْلِ بسط السِّيادة في بلاد الشَّام، بين المسلمين بعضهم بعضاً وبين المسلمين والفرنج أيضاً، وكانَّ استعادة بيت المقدس في النهاية كانت نَبْية صلاح الدِّين مُدِ البَدْءِ. هذا هو تفسير أيِّ تاريخ شامِيٍّ في القرن الثاني عشر، وقد استحوذ بعد ذلك على الكِتابة، يَبْدَأُ أَنه في جوهره ليس إلا صورةً من صور تاريخ الخلاص (Heilsgeschichte)، فهو خلاصٌ ثانٍ لِأُمَّةِ الإسلام في تيك الأَيام، ومثْلُه مَثَل هِجْرَةِ النَّبِيِّ (ﷺ) التي أنقذتْها وهي في مَهْدِها، وذلك وفاق ما المَع إليه الأصفهانيُّ في "الفتح" ٢٢.

إنَّ إعادة تقييم صلاح الدِّين وإنجازاته على يد أندرو س. إهرنكروتز (Andrew S. Ehrenkretz) صدرتْ هي وَسيرة جِبِّ في آنٍ واحدٍ تقريباً. استعرض إهرنكروتز في مُقدِّمته أيَّ طُروحٍ سابقةٍ عن صلاح الدِّين، ثُمَّ اعتمد في صُلب العمل على معرفته المُتعمِّقة بتاريخ تلك الفترة الاقتصاديِّ؛ ليلفت النَّظْرَ إلى نواحٍ من الحُكْمِ قد تعمَّد المؤرِّخون السياسيون غَضَّ الطَّرْفِ عنها. إنَّ أَحكامَه النهائيَّةَ قاسيةٌ:

يجب أن تُنسَبَ مُعظَمُ إنجازات صلاح الدِّين التاريخيَّةِ البارزة إلى خبرته العسكريَّة والإداريَّة، وإلى اضطهاده البربريِّ وإعدامه لخصومه ومُعارضيهِ السياسيين، وإلى عدوانيَّته الانتقاميَّة وانتهازيَّته المُتعمَّدة، وإلى استعدادهِ للتوفيق بين المُثُلِ الدِّيَنِيَّةِ والنَّفْعِيَّةِ السِّياسيَّةِ. ... فبدلاً من الانجذاب الظاهريِّ لشخصيَّته العاطفيَّة، كان الافتتان الشَّدِيدِ

٢٢ "وأنا أُرْحَتُ بهِجْرَةَ ثانيةٍ تشهد للهجرة الأولى بأنَّ أمدَّها بالقيامة معدوبٌ، وبأنَّ موعدَها الموعد الصَّحيح غير المدفوع والصَّريح غير الممدوق، وهذه الهِجْرَةُ هي هِجْرَةُ الإسلام إلى البيت المقدس، وقائمها السُّلطان صلاح الدِّين أبو المُظفَّر يُوسُف بن أيُّوب".

'Imâd ad-Dîn al-Isfahânî, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Saladin*, tr. Henri Massé, Paris, 1972, 6.

قلْتُ: ويُنظَرُ الفَتْحُ القُسِّي، ص 37. (المترجم)

من قِبَل كُتَّاب سِيرَتِهِ الْمُعْرِضِينَ هُوَ الَّذِي يَطْعَى عَلَى تَصَوُّرَاتٍ مُعْظَمَ الْكُتَّابِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُعِيدُونَ رِوَايَةَ قِصَّةِ السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ.<sup>٢٣</sup>

إِنَّ مُرَاجَعَةَ دَوْرٍ صَلاَحِ الدِّينِ التَّارِيخِيِّ وَإِعَادَةَ تَقْيِيمِ صِفَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، انْطَوَتْ عَلَى مَرَحَلَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ عِبْرَ الْعَمَلِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ<sup>٢٤</sup>، وَالْمُسْتَعْرِضِ كُلِّ حَيَاتِهِ فِي إِطَارِ فِترته. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَقْتَبِسُ التَّصْدِيرَ:

إِنَّ الْهَدَفَ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ هُوَ إِعَادَةُ فَحْصِ مَسِيرَةِ صَلاَحِ الدِّينِ، وَإِضَافَةٌ - إِنْ أَمَكْنَ - أَدَلَّةٌ لَهَا؛ مِنْ أَجْلِ إِحْكَامِ بِنْيَةِ الْإِطَارِ الْمَرْجِعِيِّ، الَّذِي يَمَكُنُ بِمُوجِبِهِ أَنْ تُوَفَّقَ أَحْكَامُ كُتَّابِ سِيرَتِهِ الْمُحَدِّثِينَ وَاسْتِنْتِجَاتِهِمْ.

إِنَّهَا سِيرَةٌ مُهَمَّةٌ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ: فَأَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُولَى، فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ سَرْدًا مُفْصَّلًا غَايَةَ التَّفْصِيلِ عَنِ مَسِيرَةِ صَلاَحِ الدِّينِ، كَمَا أَنَّهَا مَنْهَلٌ غَنِيٌّ ثَرَّ بِالْمَعْلُومَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرِيَّةِ. وَأَمَّا النَّاحِيَةُ الْآخَرَى فَإِنَّهَا تَسْتَنْدُ إِلَى مَصْدَرَيْنِ لَمْ يَسْتَخْداهُمَا الْكُتَّابُ السَّابِقُونَ. أَحَدُهُمَا هُوَ اخْتِصَارُ الْبُنْدَارِيِّ لِكِتَابِ "الْبَرَقِ الشَّامِيِّ"، السَّالِفِ الذِّكْرِ. وَلَمْ تَكُ الطَّبَعَةُ الَّتِي نَشَرْتَهَا فَتْحِيَةَ النَّبْرَاوِيِّ<sup>٢٥</sup> مَتَاحَةً لِلْمُؤَلِّفِينَ، الَّذِينَ اسْتَخْدَمُوا أَطْرُوحَتَهَا لِلدُّكْتُورَةِ بِجَامِعَةِ كَامْبَرْدِج، وَطَبَعَةً جَزِيئَةً نَشَرَهَا رَمَضانُ شَشْنِ<sup>٢٦</sup> فِي الْعَامِ 1971م. بَيْنَمَا الْمَصْدَرُ الثَّانِي الْجَدِيدُ، الَّذِي يُؤَدِّي دَوْرًا كَبِيرًا فِي تَشْكِيلِ نَظَرَةِ الْمُؤَلِّفِ عَنِ صَلاَحِ الدِّينِ وَعَنِ سِيَاسَاتِهِ، فَهُوَ مَجْمُوعَةُ رِسَائِلِ صَادِرَاتٍ مِنْ بِلَاطِ صَلاَحِ الدِّينِ؛ إِذْ تَسُدُّ - إِلَى حَدِّ مَا - مَسَدَّ غِيَابِ أُرْشِيْفِ حَقِيقِيِّ. وَمِنْ ثَمَّ، تُوصَفُ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

بَادِيٌّ ذِي بَدَءٍ تُنْسَبُ هَذِهِ الرِّسَائِلُ إِلَى الْقَاضِي الْفَاضِلِ - رَجُلِ الْإِدَارَةِ فِي حُكُومَةِ صَلاَحِ الدِّينِ - وَتَتَكَوَّنُ مِنْ كُلِّ مِنَ الرِّسَائِلِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي بَعَثَهَا

٢٣ Andrew S. Ehrenkreutz, *Saladin*, Albany, N.Y., 1972, 238.

٢٤ أي كِتَاب "صَلاَحِ الدِّينِ" لِكُلِّ مِنْ لِيُونَرِ وَجَاكْسُونِ. (الْمُتْرَجِمُ)

٢٥ فَتْحِيَةُ النَّبْرَاوِيِّ، سَنَا الْبَرَقِ الشَّامِيِّ، الْقَاهِرَةَ، 1979م.

٢٦ رَمَضانُ شَشْنِ (1937م-)، مُحَقِّقٌ تَرْكِيٌّ. (الْمُتْرَجِمُ)

الفاضلُ نفسه، والرَّسائلُ الأخرى التي كتبها لصلاح الدِّين. بعضها يقتبسه المؤرِّخون الحوَّليون، أو يُوجد في أعمالٍ أُخرى، وتضمُّ طبعةُ القاهرة سنًا وعشرين رسالةً كاملةً أو جزءًا منها، بيدَ أنَّ عددًا كبيرًا منها لا يزال لم يُحقَّق بعدُ. ويلحق بهذه المجموعة مخطوطُ رسائلٍ منسوب خطأً إلى عماد الدِّين، كما يلحق بها كتاباتٌ لأحد مُعاصري صلاح الدِّين الآخرين، أي الوهْرانيِّ القادم من بلاد المغرب. إنَّ مجال موادِّهم - بلا ريبٍ - محدودٌ؛ فلا يمكنها أن تُعوِّض نُدرَةَ الوثائق الرِّسميَّة تعويضًا كاملًا، لكنَّ - وبالإضافة إلى التَّفصيل التي تُقدِّمها - يُظهر أكثرها التَّفسير الذي رغب صلاحُ الدِّين نفسه في صَبغ أفعاله به، بيِّنا يُوفِّر بعضها الآخرُ هذا عبر تعليقٍ غير رسميٍّ.<sup>٢٧</sup>

يستند المؤلِّفان أيضًا إلى مَصادرٍ غربيَّةٍ وبيزنطيَّةٍ عن تلكمُ الفترة، مثل: وليم الصُّوريِّ (William of Tyre)، ونيكيتاس تشونياتس (Nicetas Choniates). ومال كُتَّابٌ سابقون قد تناولوا الموضوعَ من مُنطلقٍ خلفيَّةٍ استشراقيةٍ إلى تجاهل هذه السُّلسلة القيِّمة من المَظانِّ. وقد يَلحظ المرءُ وهو يُلقي نظرةً عابرةً على الدِّراسة المُعتبرة، التي أعدَّها هانز موهرينغ (Hannes Mödhring)<sup>٢٨</sup> بعنوان "صلاح الدِّين والحملة الصَّليبيَّة الثالثة: *Saladin und der Dritte Kreuzzug*"، المنشورة بمدينة فيسبادن في العام 1980م، أنَّها تعتمد كُلاًّ الإعتماد على مَصادرٍ أُوربيَّةٍ وبيزنطيَّةٍ وعربيَّةٍ ترجع إلى العصور الوسطى، وبرغم أنَّها أُدرجت في قائمة المَراجع، نُشرت بعد إتمام هذا العمل.

لم يَعدُ صلاح الدِّين الذي ينبعثُ من هذه الصَّفحات بطلَ الإسلامِ الوثائقِ المُتفاني، حتَّى إنَّ لم يتحلَّ بصفات البطل ويجلب الكوارثَ إلى مِصر، كما صوَّره إهرنكروتز. وتظهر على الدَّوام الطَّبيعةُ المُتزعزعةُ لمنصبه ووضعه. فكان الجِهَادُ وسيلةً لشرعنة حُكمه (راجع ص 88-89، 97)، وكذلك زواجه من عِصمة الدِّين خاتون (ص 110)؛ فلكونها ابنة مُعين الدِّين أنر أتابك دِمَشق وأرملة نور الدِّين، زوَّده بوشيجةٍ شخصيَّةٍ مزدوجةٍ مع الحُكَّام الذين سبقوه. وإنَّ تعجَّب فعَجَّب أنَّه في وقت هذا

Lyons and Jackson, *Saladin*, 1-2. ٢٧

٢٨ مؤرِّخ ألمانيٍّ (1949م). (المترجم)

الرَّوَّاج في العام 1176م (= 572هـ) كان لا يزال الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ - ابنها<sup>٢٩</sup> من نور الدِّين - يحكم في حَلَب؛ إذ كان الرَّمَزَ الصُّورِيَّ لِلْمُقَاوَمَةِ الزَّنْكَيَّةِ ضِدَّ اغْتِصَابِ صِلَاحِ الدِّينِ لِلسُّلْطَةِ. وتثيرُ فِقرَةً شائِقةً (ص152-153) التَّفْكِيرَ حَوْلَ طَبِيعَةِ حَكْمِ صِلَاحِ الدِّينِ: "مسألة أكان صلاح الدين - أو قد أصبح - قائدَ فِرْقَةٍ حربيةٍ في المَقَامِ الأوَّلِ، أم ينبغي عدُّه حاكمًا إقليميًا؟" فلم يكُ وضْعُهُ مُخْتَلِفًا عن ملوك النورمان (Normans)، والرَّعِيلِ الأوَّلِ من الملوك الأنجويين (Angevins)؛ فَحَكَمَ - مثْلهم - إقليمين مُخْتَلِفَيْنِ عبر "نواة إدارية مُتَنَقِّلة". وتُلخِّصُ عَلاقته بالإدارة (ص366-367) على أنَّها "بيروقراطيةٌ موروثَةٌ، عَمِلَ في إطارها نظامُ المحسوبية، الذي تَرَبَّعَ صِلَاحُ الدِّينِ على ذِروتِهِ. لقد كانت إدارة محسوبيات، وليست إدارةً رسميّةً، ويبدو أنه ظلَّ معمولًا بها طول عصره". ويتجلى غموضُ سياسته بعدَّهُ بطل الإسلام المُتغَلَّبِ في عِدَّةِ نَوَاحٍ من مَسِيرَتِهِ: أي في العام 1182م (= 578هـ)<sup>٣٠</sup> بَعِيدِ مَوْتِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ. كانت سياسة التَّوَسُّعِ الأيوبيِّ التي اعترض سبيلها مُعَاهَدَةُ صُلْحِ العام 1176م (= 572هـ) على وَشْكَ أَنْ تَسْتَعْرِجَ جَذْوَتُهَا مُجَدِّدًا. فلم يُطَالِبْ صِلَاحُ الدِّينِ بِحَلَبِ فَقَطْ، أَنَّمَا بَأْيَةِ بِلْدَةٍ أُخْرَى قد يرى أن عَسَاكِرَهُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا من أَجْلِ الجِهَادِ. وهذا ما لا يمكن قَبُولَهُ من قِبَلِ كُلِّ من عَزَّ الدِّينِ في المَوْصِلِ، ولا زَنْكَي<sup>٣١</sup> في حَلَب؛ فكان من البدائهِ الارتِيَابِ في سلامة نِيَّةِ صِلَاحِ الدِّينِ لِمَا أَدَارَ ظَهْرَهُ لِلْفِرْنَجِ؛ كي يُحَارِبَ بني جِلْدَتِهِ من المُسْلِمِينَ.<sup>٣٢</sup>

٢٩ ليست عَضْمَةُ الدِّينِ خَاتُونُ أمِّ المَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ بن نُورِ الدِّينِ كما هو شائِعٌ؛ إذ ذكر بَهَاءُ الدِّينِ أَنَّهُ بعد مَوْتِ الصَّالِحِ، تزَوَّجَ المَلِكُ عَزُّ الدِّينِ مَسْعُودَ الأوَّلِ صَاحِبَ المَوْصِلِ أمَّهُ في خَامِسِ شَوَّالِ 577هـ = عَاشِرِ فَبْرَايِرِ 1182م. (النوادر السلطانية، ص100؛ الروضتين 3: 80؛ وفيات الأعيان 5: 204). ويُنظَرُ: "الخاتون عَضْمَةُ الدِّينِ بنت أُنْرَ والسَّتْ أمِّ المَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ زوجتا السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ محمود - دراسة مقارنة" لرعد إِسْمَاعِيلِ نَعْمَانِ، بحث منشور في كِتَابِ "الدولة التُّورِيَّةِ بين التكوِينِ والنهوض"، ص84-100. (المترجم)

٣٠ تُوفِّيَ المَلِكُ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلُ في رَجَبِ 577هـ = دِيسَمْبَرِ 1181م. (التاريخ الباهر، ص182؛ الكامل 11: 472؛ مرآة الزمان 21: 278-279؛ الروضتين 3: 77؛ مفرج الكروب 2: 107-108). (المترجم)

٣١ عماد الدِّينِ زَنْكَيِ الثَّانِي، الابن الأكبر لِقُطْبِ الدِّينِ مَوْدُودِ، ومُؤَسِّسِ أَتَابِكِيَّةِ سَنْجَارِ. صَاحِبُ صِلَاحِ الدِّينِ في غزواته مُجَاهِدًا، وتُوفِّيَ سنة 594هـ = 1197م، ومَلِكٌ بعده ابْنُهُ قُطْبُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ. له ترجمة في: تاريخ الإسلام 12: 1016-1017. وفيها غُنْيَةٌ. (المترجم)

في الحق، إن آفة سياسة صلاح الدين، هي:

فوافق ما تُظهره رسائله - مع ذلك - كان يُدرك أن النهاية المنطقية لدائرة التوسع - إذ تعتمد أئمة سلطنة على الفتوح، جاذبة مُجندين مُرتزقة لشن غزواتٍ أوسع - هي قيام احتكارٍ سلطويٍّ على مقربةٍ من تخوم الإسلام.<sup>٣٣</sup>

وتكشف فقرةٌ أخرى - تُشير إلى الوضع في العام 1188م (= 584هـ)، لكن يمكن أن تنطبق على حُكم صلاح الدين برُمته - سبباً آخرَ لوضعه المُتزعزع:

”إنَّ العامِل الذي يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار هو هيكل جيشه غير الثابت. فلم يكن لدى حلفائه أيُّ سببٍ يحثهم على منحه دعماً صادقاً. أمَّا أمراؤه وعسكره النظاميون، فكان هو وعائلته أعضاء ناجحين من فئتهم، ولم يُدعم أيُّ حقٍّ إلهيٍّ للملوك أسرته الحاكمة؛ فالإقرار والمرسوم الديني الذي قد استحقته، أنكرته بغداد. وإبان فترة توسعها، كان من المفيد الانضمام إلى أكتافه، بيد أن الأرباح والأعداد مُرتبطة ارتباطاً لا انفصامَ له. فعندما بدأت أرباحه العسكرية تُظهر خسارةً، كان من المتوقع أن تقلَّ أعداده؛ ومن ثمَّ قد يُهدد توسعيون آخرون من المسلمين أسرته الحاكمة“.<sup>٣٤</sup>

قدّم المؤلفان تاريخاً تفصيلياً ومُهمّاً ومفهوماً عن صلاح الدين، واضعّين أعماله وسياساته في سياقها المناسب تماماً؛ حيث الحالة السياسيّة والعسكريّة المُعقدة وغير المُستقرّة في الشرق الأدنى في خواتيم القرن الثاني عشر، وهي الحالة نفسها التي كانت عليها الإمارات الفرنجيّة، لكنّها ليست هي العامل الوحيد. إنَّ مقدار التفصيل وتعدّد الشخصيات التي سجّل المؤلفان ظهورها، لا يُفضي إلى سردٍ سهلٍ؛ ومن ثمَّ ساعد القارئ كثيراً في ناحيةٍ أو ناحيتين. وبرغم أن العادة جرت بذكر الشهر -

Lyons and Jackson, *Saladin*, 201 ٣٣

Lyons and Jackson, *Saladin*, 286. ٣٤

بل حتى اليوم - الذي وقعت فيه الحوادث، يكون من الضروريّ للغاية الترتيب على نطاق عددٍ كبيرٍ من الصفحات لتأكيد السنة. وقد يكون وضع تاريخ الحدث بأعلى الصفحة (كما في كتاب لين-بول) عادةً قديمةً، لكنّها تُقدّم مُساعدةً كبيرةً في تفهيم أثر الرواية التاريخية الكاملة، ولا يزال لها فائدةٌ نفاعَةٌ في أغراض التوثيق. وسهّل تقديم التواريخ الهجرية المُوافقة للميلادية الرجوعَ إلى أيّ مصادِرٍ عربيّةٍ. ومن ناحيةٍ أُخرى، فإنّ إعطاء ما هو مُطابقٌ بالكيلومترات لكلِّ مسافةٍ بالميل ليس بالأمر الضروريّ. ويوجد المراجعُ الحاليُّ أنّ نظامَ الاختصارات المُستخدمة في الملاحظ مُربكًا ومُملًا، بل من الغريب أنّ قائمة المراجع - عند إدراج المصادِر العربيّة الأُوليّة مُنفصلة - لا تميّز أيّ مصادِر أُوربيّة (أو بينظيّة) أصليّة عن أيّ أعمالٍ حديثةٍ. والخرائط الثماني المُتوفّرة بالكتاب مُفيدةٌ، مع أنّ دُنقلّة المُوضحة على خريطة رقم 6 هي دُنقلّة الجديدة (العرضي)، التي تطوّرت في القرن التاسع عشر، وهي ليست البلدة التي ترجع إلى العصور الوسطى (دُنقلّة العجوز)، التي تقع على ارتفاعٍ تسعين ميلًا تقريبًا من النيل، وعلى الضّفّة اليمنى منه. كما أنّ الخرائط المُتوفّرة بالكتاب عن موقع معركة حطين، وبيّت المقدّس، وعكّا في العصور الوسطى مُفيدةٌ. وهذه - مع ذلك - انتقاداتٌ لتفاصيل ثانويّة، ولا تُقلّل - بأيّة حالٍ من الأحوال - من قيمة وأهميّة هذا العمل الذي طال انتظاره.

\*\*\*

## أهمّ أعمال المؤلف

1979. "An Introduction to Arms and Warfare in Classical Islam," in R. Elgood (edit.), *Islamic Arms and Armour*, London 1979, 162.
1980. "Islam at War (Part One): The Age of the Caliphs," *Popular Archaeology*, V. 2, Sept 1980, 28.
1980. "Islam at War (Part Two): The Dominance of the Turks," *Popular Archaeology*, V. 2, Nov 1980, 30.
1981. "Arms and Armour in the Album Paintings," *Islamic Art* (special volume on the Fatih Album paintings in the Topkapi Lib.), V. 1, 1981, 145.
1982. *The Armies of Islam 7th-11th Centuries* (Osprey MAA 135, London 1982).
1983. "Arms Manufacture and the Arms Trade in South-Eastern Arabia in the Early Muslim Period," *Journal of Oman Studies*, V.6, n. 2, 1983, 231.
1989. "Shipping in Islamic Art: Seventh Through Sixteenth Century AD," *American Neptune*, XLIX/3, Summer 1989, 168–197.
1990. *The Mongol Warlords: Genghis Khan, Kublai Khan, Hulegu, Tamerlane*, Poole 1990.
1991. "Abu 'Abdullah Muhammad XI Boabdil of Granada," *Military Illustrated*, V. 43, Dec 1991, 48.
1992. "Arms and Armor Illustrated in the Art of the Latin East," in B.Z. Kedar (edit.), *The Horns of Hattin*, Jerusalem, 1992, 327; (reprinted in *Warriors and their Weapons around the Time of the Crusades*, Variorum Collected Studies Series, Aldershot 2002).
1993. "14th Century Cavalry: The Mamluk Art of Furusiyya," *Military Illustrated*, V. 60, May 1993, 30.
1993. "Wounds, Military Surgery and the Reality of Crusading Warfare: The Evidence of Usamah's Memoires," *Journal of Oriental and African Studies*, V. 5, 1993, 33; (reprinted in *Warriors and their Weapons around the Time of the Crusades*, Variorum Collected Studies Series, Aldershot 2002; and in J. France (ed.), *Medieval Warfare, 1000–1300*, Aldershot 2006).
1993. *The Mamluks 1250–1517* (Osprey MAA 259, London 1993).
1994. "Saljûq Arms and Armour in Art and Literature," in R. Hillenbrand (edit.), *The Arts of the Saljûqs in Iran and Anatolia*, Costa Mesa, 1994, 247.
1994. "The Reality of Mamluk Warfare: Weapons, Armour and Tactics," (translation of Chapter Two, Lesson Seven of the *Nihâyat al-Su'l*), *Al-Masâq*, V. 7, 1994, 77.
1994. *Saracen Faris 1050–1250 AD* (Osprey Warrior 10, London 1994).

1994. *Yarmuk 636 AD* (Osprey Campaign 31, London 1994).
1995. "Saracen Strongholds; Saracen Castles during the Crusades," *Military Illustrated*, V. 83, Apr 1995, 25.
1997. "Arms of the Umayyad Era: Military Technology in a Time of Change," in Y. Lev (edit.), *War and Society in the Eastern Mediterranean*, Leiden & New York, 1997, 9.
1997. "The Origins and Development of Cavalry Warfare in the Early Muslim Middle East," in D. Alexander (edit.), *Furusiyya*, Volume 1: *The Horse in the Art of the Near East*, Riyadh, 1997, 92.
1998. "Leather Armour in the Islamic World: A Classic Problem (resume)," in *Military Archaeology; Weaponry and Warfare in the Historical and Social Perspective*. Materials of the International Conference 2–5 September 1998 (St. Petersburg 1998) 320–323.
1998. *Armies of the Caliphates 862–1098* (Osprey MAA 320, London 1998).
2001. "The Manufacture and Importation of Military Equipment in the Islamic Eastern Mediterranean (10th–14th centuries)," in U. Vermeulen and J. Van Steenberghe (ed.), *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, 111 (Leuven 2001) 139–162.
2002. "New Introduction" & "Preface to the New Edition," in S. Lane-Poole, *Saladin and the Fall of Jerusalem* (London 2002) 9–12 & 13–20.
2003. *The First Crusade 1096–99* (Osprey Campaign 132, Oxford 2003).
2004. *Crusader Castles in the Holy Land 1097–1192* (Osprey Fortress 21, Oxford 2004).
2005. *Acre 1291* (Osprey Campaign 154, Oxford 2005).
2005. *God's Warriors: Crusaders, Saracens and the Battle for Jerusalem*, co-authored by Dr. Helen Nicholson, Oxford 2005.
2005. *The Third Crusade 1191* (Osprey Campaign 161, Oxford 2005).
2006. "Ayn Jalut, Battle of (1250)," in *The Crusades: An Encyclopedia*, A.V. Murray (ed.) (Santa Barbara 2006) 122–123.
2006. "Mansura," in *The Crusades: An Encyclopedia*, A.V. Murray (ed.) (Santa Barbara 2006) 794–795.
2007. *Crusader Warfare*, volume 1, *Byzantium, Western Europe and the Battle for the Holy Land* (London 2007).
2007. *Crusader Warfare*, volume 2, *Muslims, Mongols and the Struggle against the Crusades* (London 2007).
2007. *The Fall of Constantinople* (co-authored with J. Haldon & S. Turnbull) (Osprey Oxford 2007).
2008. "A Medieval Islamic Arms Cache from Syria," *Journal of the Arms & Armour Society*, 19 (2008) 152–163.
2008. *Knights of Jerusalem: The Crusading Order of Hospitallers 1100–1565* (Oxford 2008).
2008. *Saracen Strongholds AD 630–1050: The Middle East and Central Asia* (Osprey

- Fortress 76, Oxford 2008).
2008. *The Ottomans - Empire of Faith* (illustrated historical atlas), Ludlow 2008.
2008. *The Second Crusade: Disaster outside Damascus* (Osprey Campaign 204, Oxford 2008).
2009. "Two Crusaders and two Fursan" (Pagan Peverel, Othon de Grandson, Jum'ah al-Numayri, Muzaffar al-Din Gokbori), in R. O'Neill (ed.), *I am Soldier: War Stories from the Ancient World to the 20th century* (Osprey, Oxford 2009) 48–50.
2009. *Saracen Strongholds 1100–1500: The Central and Eastern Islamic Lands* (Osprey Fortress 87, Oxford 2009).
2009. *The Great Islamic Conquests AD 632–750* (Osprey Essential Histories 71, Oxford 2009).
2010. *Cross & Crescent in the Balkans: The Ottoman Conquest of Southeastern Europe* (Barnsley 2010).
2010. *Ottoman Fortifications 1300–1710* (Osprey Fortress 95, Oxford 2010).
2011. *Late Mamlūk Military Equipment. Collection Travaux et Études de la Mission Archéologique Syro-Française, Citadelle de Damas (1999–2006): Volume III* (IFPO, Damascus 2011, ISBN : 978–2–35159–045–4).
2011. *The Fourth Crusade 1202–04, The Betrayal of Byzantium* (Osprey Campaign 237, Oxford 2011).
2013. "Al-Rawandi, 'Ali Abu-Bakr Najm al-Din Muhammad Ibn", "Al-Shayzari, 'Abd al-Rahman", "Mubarakshah, Fakhr-i Mudabbir", "Usama Ibn Muqidh", & "Nizam al-Mulk, Abu 'Ali al-Hasan Ibn 'Ali", in D. Coetzee & L.E. Eysturliid (eds.), *Philosophers of War. The Evolution of History's Greatest Military Thinkers. Volume 1: The Ancient to Premodern World, 3000 BCE–1815 CE* (Santa Barbara & Oxford 2013) 5, 9–10, 128–129, 187–188 & 210–213.
2013. "The Zangid bridge of Ġazīrat ibn 'Umar ('Ayn Dīwār/Cizre): A New Look at the carved panel of an armoured horseman", *Bulletin d'Etudes Orientales*, 62 (2013) 223–264 (abstract 270).
2013. *Manzikert 1071. The Breaking of Byzantium* (Osprey Campaign 262, Oxford 2013).
2014. *Mamluk 'Askari 1250–1517* (Osprey Warrior 173; Oxford 2014).
2016. "Mamluk Saddles. Surviving fragments in their historical context", in U. Vermeulen, K. D'Hulster & J. Van Steenberghe (eds.), *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, VIII (Leuven 2016) 463–491.
2016. "Cresting on Arrows from the Citadel of Damascus", *Bulletin d'Etudes Orientales*, 65 (2016) 247–286.
2020. "The Mamluk Military Saddle in Archaeology and Art", *The Memory of Arabs* (Bibliotheca Alexandrina), 4 (Alexandria 2020) 25–34.
2022. *Medieval Indian Armies* (1), *Hindu, Buddhist and Jain* (Osprey MAA 545; Oxford 2022).

- Abulafia, D., "The Role of Trade in Muslim-Christian Contact during the Middle Ages", in D.A. Agius & R. Hitchcock (eds.), *The Arab Influence in Medieval Europe* (Ithaca Press, Reading, 1994) pp. 1–25.
- Ailes, M.J., "The Admirable Enemy? Saladin and Saphadin in Ambroise's *Estoire de la guerre sainte*" in N. Housley (ed.), *Knighthoods of Christ: Essays in the History of the Crusades and the Knights Templar, presented to Malcolm Barber* (Ashgate Aldershot, 2007) pp. 51–64.
- Krieger, Lund,)، شَهَابُ الدِّينِ (ترجمة E.R. Lundquist)، صلاح الدِّينِ والصَّلِيلِيِّينَ (1992).
- Anon. (ed. J. Stevenson), *De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum, Libellus, Rolls Series; vol. 66* (Longman, London, 1875).
- Anon. (tr. H.J. Nicholson), *Chronicle of the Third Crusade: A Translation of Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi* (Ashgate, Aldershot, 2001).
- Anon. (tr. K. Fenwick), *The Third Crusade* (Folio Society, London, 1958).
- Aubé, P., *Un croisé contre Saladin: Renaud de Châtillon* (Fayard, Paris, 2007).
- Baldwin, M.W., *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140–1187)* (Princeton University Press, Princeton, 1936).
- ابن العَبْرِيِّ (ترجمة E.W. Budge)، تاريخ غريغوريوس أبي الفَرَجِ، المعروف بابن العَبْرِيِّ (APA) (- Philo Press, Amsterdam, 1976).
- Barber, M., 'Frontier Warfare in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Campaign at Jacob's Ford, 1178–9' in J. France & W.G. Zajac (eds.), *The Crusades and their sources: Essays Presented to Bernard Hamilton* (Routledge, Abingdon, 2016) pp. 9–22.
- Brand, C.M., 'The Byzantines and Saladin, 1185–1192: Opponents of the Third Crusade', *Speculum*, 37 (1962) pp. 167–81. [60]
- Cahen, C., 'Une lettre d'un prisonnier musulman des Francs de Syrie', in (ed. anon.), *Études de civilisation médiévale (IXe-XIe siècle): Mélanges offerts à Edmond-René Labande* (C.E.S.C.M., Poitiers, 1975) pp. 83–87.
- Carpenter, D., *The Struggle for Mastery, Britain 1066–1284* (Penguin, London, 2003).
- Dajani-Shakeel, H., "A Reassessment of Some Medieval and Modern Perceptions of the Counter-Crusade", in R.A. Messier (ed.), *The Jihad and its Times: Dedicated to Andrew Stefan Ehrenkreutz* (Center for Near Eastern and North African Studies, University of Michigan, Ann Arbor 1991) pp. 41–70, quoting from Muhammad Hamada, *Al-Watha'iq al-Siyasiyya wa'l-Idariyya* (Beirut, 1987).

- Dante Alighieri (tr. E. Griffiths & M. Reynolds), *Dante in English* (Penguin, London, 2005).
- De Vries, K., 'Disaster at Hattin, 1187: beginning of the end' in *Medieval History*, 5 (Jan. 2004) pp. 24–31.
- Edbury, P.W., 'The Battle of Hattin (1187)' in *The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade: Sources in Translation* (Routledge, Aldershot, 1998).
- Eddé, A-M., 'Quelques Institutions Militaires Ayyoubides' in U. Vermeulen & D. De Smet (eds.), *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluks Eras* (Peeters, Leuven, 1995) pp. 163–74.
- Ehrenkreutz, A.S., 'The Place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages' in *Journal of the American Oriental Society*, 75 (1955) pp. 100–16.
- Ehrenkreutz *Saladin* (State University of New York Press, New York, 1972).
- Ehrlich, M., 'The Battle of Hattin: A Chronicle of a Defeat Foretold?' in *The Journal of Medieval Military History*, 5 (2007) pp. 16–32.
- Ellenblum, R., 'Frontier Activities: the Transformation of a Muslim Sacred Site into the Frankish Castle of Vadum Iacob' in *Crusades*, 2 (2003) pp. 83–97.
- Ernoul (tr. M.L. De Mas Latrie), *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, vol. 11* (Mme Ve J. Renouard, Paris, 1871).
- Facey, W., 'Crusaders in the Red Sea: Reinaud de Chatillon's Raids of AD 1182–1183', in J.C.M. Starkey (ed.), *People of the Red Sea: Proceedings of the Red Sea Project 11, BAR International Series 1395* (Archaeopress, Oxford, 2005) pp. 87–98.
- Gibb, H.A.R., 'The Armies of Saladin', *Cahiers d'Histoire Egyptienne*, 3 (1951) pp. 304–20.
- Gibb *The Life of Saladin, from the works of Imad ad-Din and Baha ad-Din* [٢٦] (Clarendon Press, Oxford, 1973).
- Grillo, P.R., 'The Saladin material in the continuations of the First Crusade Cycle', in H. Van Dijk (ed.), *Aspects de l'épopée romane: mentalités, idéologies, intertextualités (Acts of the 13th International Congress of the Société Rencesvals, Groningen, NL, Aug. 1994)* (Egbert Forsten, Groningen, 1995) pp. 159–66.
- Hackett, J.W., *Saladin's Campaign of 1188 in Northern Syria* (unpublished MS.B. Litt. thesis, University of Oxford, 1937).
- Hamblin, W. J., 'Saladin and Muslim Military Theory', in B.Z. Kedar (ed.), *The Horns of Hattin* (Israel Exploration Society, Jerusalem, 1992) pp. 228–38.
- Hamilton, B., 'The Elephant of Christ: Reynald of Châtillon', in D. Baker (ed.), *Religious Motivation: Biographical and Sociological Problems for the Church Historian: Studies in Church History xv* (Blackwell, Oxford 1978) pp. 97–108.
- Herde, P., 'Historische Wendepunkte: die Schlachten von Hattin (3./4. Juli 1187) und

٣٦ عرَّبه أستاذي الدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، وصدر عن دار رؤية بمصر في العام 2021م.

- 'Ain Galut (3. September 1260); in M. Piana (ed.), *Burgen und Städte der Kreuzzeit* (Michael Imhof Verlag, Petersberg, 2008) pp. 43–46.
- Holt, P. M., 'Saladin and his Admirers: a biographical reassessment', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 46 (1983) pp. 235–39.
- ابن الأثير (ترجمة D.S. Richards)، تاريخ ابن الأثير عن الفترة الصليبية، جزء 2: عصر نور الدين صلاح الدين (Ashgate, Aldershot, 2007).
- ابن الأزرق في دراسة H.F. Amedroz بعنوان "ثلاث مخطوطات عربيّة عن تاريخ مدينة ميّافارقين"، *Journal of the Royal Asiatic Society*, 34 (1902) pp. 785–813.
- Jackson, D.E.P., '1193–1993, an appreciation of the career of Saladin' in U. Vermeulen & D. De Smet (eds.), *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluks Eras* (Peeters, Leuven, 1995) pp. 219–28.
- Jubb, M., *The Legend of Saladin in Western Literature and Historiography* (Edwin Melton Press, Lewiston, 2000).
- Katzir, Y., 'The Conquest of Jerusalem, 1099 and 1187: Historical Memory and Religious Typology', in V.P. Goss (et al. eds.), *The Meeting of Two Worlds: Cultural Exchange between East and West during the Period of the Crusades* (Kalamazoo, 1986) pp. 103–13.
- Kedar, B. Z., 'A Western Survey of Saladin's Forces at the Siege of Acre', in B.Z. Kedar [61] (et al. eds.), *Montjoie: Studies in Crusade History in Honour of Hans Eberhard Mayer* (Variorum, Aldershot, 1997) pp. 113–22.
- Kedar, B. Z., 'The Battle of Hattin Revisited' in B.Z. Kedar (ed.), *The Horns of Hattin* (Israel Exploration Society, Jerusalem, 1992) pp. 190–207.
- Leiser, G.L., 'The Crusader Raid in the Red Sea in 578/1182–83' in *Journal of the American Research Center in Egypt*, 14 (1977) pp. 87–100.
- Lev, Y., 'Infantry in Muslim Armies during the Crusades', in J.H. Pryor (ed.), *Logistics of Warfare in the Age of the Crusades* (Ashgate, Aldershot, 2006) pp. 185–208.
- Lev, *Saladin in Egypt* (Brill, Leiden, 1988).
- Lewis, B., 'Saladin and the Assassins,' in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 15 (1952) pp. 239–245.
- Ligato, G., 'Saladino e i prigionieri di guerra' in G. Cipollone (ed.), *La Liberazione dei 'Captivi' tra Cristianità e Islam* (Archivio segreto vaticano, Vatican, 2000) pp. 649–654.
- Lilie, R.-J., (tr. J.C. Morris & J.E. Ridings), *Byzantium and the Crusader States 1096–1204* (Clarendon Press, Oxford, 1993).
- Lyons, M. C., & D.E.P. Jackson, *Saladin: The Politics of the Holy War* (Cambridge University Press, Cambridge, 1982).
- Magdalino, P., 'Isaac II, Saladin and Venice', in J. Shepard (ed.), *The Expansion of Orthodox Europe: Byzantium, the Balkans and Russia* (Ashgate, Aldershot, 2007) pp. 93–106.
- Melville, C. P., & M.C. Lyons, 'Saladin's Hattin Letter' in B.Z. Kedar (ed.), *The Horns of*

- Hattin* (Israel Exploration Society, Jerusalem, 1992) pp. 208–12.
- Ménard, P., 'Les combattants en Terre sainte au temps de Saladin et de Richard Coeur de Lion' in J. Paviot & J. Verger (eds.), *Guerre, Pouvoir et Noblesse au Moyen Age* (Presses de l'Université de Paris, Paris, 2000) pp. 503–11.
- Milwright, M., 'Reynald of Châtillon and the Red Sea Expedition of 1182–83' in N. Christie & M. Yazigi (eds.), *Noble Ideals and Bloody Realities: Warfare in the Middle Ages* (Brill, Leiden, 2006) pp. 235–59.
- Mohring, H. (tr. D.S. Bachrach), *Saladin: The Sultan and his Times 1138–1193* (John Hopkins University Press, Baltimore, 2008).
- Moustafa Ziada, M., "The Mamlûk Conquest of Cyprus in the 15th. Century", *Bulletin of the Faculty of Arts, Egyptian University, Cairo*, 1 (1933), pp. 90–113; 2 (1934) pp. 37–57.
- Mouton, J.-M. (et al.), *Sadr, une forteresse de Saladin au Sinâï: histoire et archéologie* (De Boccard, Paris, 2010).
- Mouton, J.-M. & S.S. Abd al-Malik, 'La forteresse de l'Isle de Graye (Qal'at Ayla) à l'époque de Saladin', *Annales Islamologiques*, 29 (1995) pp. 75–90.
- Nicolle, D., *Crusader Warfare, vol. 1 (Byzantium, Western Europe and the Battle for the Holy Land 1050–1300 AD)* (Bloomsbury Continuum, London, 2007).
- Nicolle, D., *Hattin 1187, Saladin's greatest victory* (Osprey Publishing, Oxford 1993).
- Omran, M. S., 'King Amalric and the Siege of Alexandria, 1167' in P.W. Edbury (ed.), *Crusade and Settlement* (University College Cardiff Press, Cardiff, 1985) pp. 191–96.
- Omran 'Truces between Moslems and Crusaders (1174–1217 AD)' in M. Balard (ed.), *Autour de la Première Croisade* (Publications de la Sorbonne, Paris, 1996) pp. 423–551.
- Oxford Dictionary of English*, edited by Angus Stevenson [3rd edition] (Oxford University Press, 2010).
- Partner, G., *God of Battles: Holy Wars of Christianity and Islam* (Princeton University Press, Princeton, 1997).
- Prawer, J., 'La Bataille de Hattin', *Israel Exploration Journal*, 14 (1964) pp. 160–79.
- Prawer, J., *The Crusaders' Kingdom "European Colonialism in the Middle Ages* (Praeger Publishers, New York, 1972).
- Rex Smith, G., *The Ayyubids and Early Rasulids in the Yemen (567–694/1173–1295): Gibb Memorial Series, xxvi/2* (Luzac, London, 1978).
- Richard, J., 'An Account of the Battle of Hattin referring to the Frankish Mercenaries in Oriental Muslim States' in *Speculum*, 27 (1952) pp. 168–77.
- Richards, D.S., "Imad al-Din al-Isfahani; Administrator, Litterateur and Historian", in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth Century Syria* (Brill, Leiden, 1993) pp. 133–146.
- Richards, 'A consideration of two sources for the life of Saladin' in *Journal of Semitic Studies*, 25 (1980) pp. 46–65.
- Saleh, A.H., 'Saladins et les Bédouins d'Égypte' in *Rendiconti della Reale Accademia*

- Nazionale dei Lincei, Scienze Morali*, 34 (1979) pp. 349–54.
- Sivan, E., 'Notes sur la situation des chrétiens à l'époque ayyubide' in *Revue de l'Histoire des Religions*, 172 (1967) pp. 117–30.
- Talmon-Heller D., 'Islamic Preaching in Syria during the Counter-Crusade (Twelfth-Thirteenth Centuries)' in I. Shagrir (et al. eds.), In *Laudem Hierosolymitani: Studies in Crusades and Medieval Culture in Honour of Benjamin Z. Kedar* (Routledge, Aldershot, 2007) pp. 61–75.
- Tolan, J.V., 'Mirror of Chivalry: Salah al-Din in the Medieval European Imagination' in *Cairo Papers in Social Science*, 19 (1996) pp. 7–38.
- Wieczorek, A. (et al. eds.), *Saladin und die Kreuzfahrer* (P. von Zabern, Mainz, 2005).
- William of Tyre (tr. Babcock and Krey), *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, Recueil des Historiens des Croisades: Historiens occidentaux, vol. 1., Pt 1.* (Columbia University Press, New York, 1943).
- Zouache, A., *Armées et combats en Syrie (491/1098–569/1174)* (Presses de l'IFPO, Damas-cus, 2008). [62]

## مَسْرَدُ الْمُصْطَلَحَاتِ

- الْأَسَدِيَّةُ فِرْقَةٌ جَنَّدَهَا وَأَنْفَقَ عَلَيْهَا أَسَدُ الدِّينِ شِيرَكُوهُ، عَمُّ صَلاَحِ الدِّينِ العَبْدِ مَمْلُوكٍ، سِوَاءَ بِصِفَةِ مَدَنِيَّةٍ أَوْ عَسْكَرِيَّةٍ.
- الْأَتَابِكُ<sup>٣٧</sup> هُوَ فِي الْأَصْلِ مُسْتَشَارٌ لِحَاكِمٍ شَابٍّ، وَفِيمَا بَعْدُ زَعِيمٌ أَوْ حَاكِمٌ مَحَلِّيٌّ، وَمَعْنَاهُ الحَرْفِيُّ: "أَبِ الْأَمِيرِ".
- الخَلِيفَةُ خَلِيفَةُ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ﷺ) كَقَائِدٍ مُؤَقَّتٍ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لَكِنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمُ النَّبِيِّ الدِّينِيِّ، إِلَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَفْسِيرِ مَا قَدْ أَبَاحَهُ النَّبِيُّ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.
- الخِلَافَةُ كُلُّ مِنَ الدَّوْلَةِ الَّتِي يَحْكُمُهَا خَلِيفَةٌ، أَوْ دَوْرُهُ أَوْ مَنَزِلَتُهُ أَوْ "وِظِيفَتُهُ".
- الكونروس (Conrois) مصطلح فرنسيّ اسْتُخْدِمَ فِي العَصُورِ الوَسْطَى لِتَشْكِيلِ سِلاَحِ الفُرْسَانِ المُتْقَارِبِينَ كَالنَّبِيَّانِ المَرْصُوصِ.
- الدِّينَارُ عَمَلَةٌ ذَهَبِيَّةٌ عَالِيَةُ القِيَمَةِ تُسْتخْدَمُ فِي العَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.
- الدَّرْهَمُ عَمَلَةٌ مَنخَفُضَةُ القِيَمَةِ، عَادَةً مِنَ النِّحَاسِ أَوْ الفِضَّةِ، تُسْتخْدَمُ فِي العَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.
- الدِّيوانُ قِسْمٌ أَوْ مَكْتَبٌ إِدَارِيٌّ.
- الفروسيةُ تُشْمَلُ رُكُوبَ الخَيْلِ وَمَهَارَاتِ القِتَالِ، فَضْلًا عَنِ السُّلُوكِيَّاتِ الَّتِي تُسَمَّى بِالفُروسِيَّةِ المَرْتَبِطَةِ بِهَا.
- الإِقْطَاعُ مَصْدَرُ الدِّخْلِ، وَيَكُونُ عَادَةً فِي شَكْلِ حِصَّةٍ مِنَ الأَرْضِ.
- الجَزِيرَةُ تُشِيرُ إِلَى الأَرْضِ الوَاقِعَةِ بَيْنَ نَهْرِي دِجْلَةَ وَالفُرَاتِ (إِقْلِيمِ الجَزِيرَةِ الفُرَاتِيَّةِ القَدِيمِ).
- الخَانُ مَأْوَى لِلقَوَافِلِ التِّجَارِيَّةِ، وَأَحْيَانًا يَكُونُ مُحَصَّنًا.
- الكَزَاعِنْدُ دِرْعٌ وَاقٍ لِلجَسَمِ، مُبْطَّنٌ بِالزَّرْدِ.
- المَدْرَسَةُ مَدْرَسَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ، مُلْحَقَةٌ عَادَةً بِجَامِعٍ.
- المَمْلُوكُ جُنْدِيٌّ، أَصْلُهُ عَبْدٌ مُجَنَّدٌ.
- الْمَنْشُورُ شَهَادَةٌ رَسْمِيَّةٌ، يُؤَكِّدُ فِيهَا غَالِبًا القُرْبَى أَوْ الأَقَالِيمَ الأُخْرَى الَّتِي قَدْ تُشَكَّلُ إِقْطَاعًا.
- المَقَامَاتُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ القِصَصِ، وَتُشِيرُ عَادَةً إِلَى تِلْكَ الَّتِي كَتَبَهَا الحَرِيرِيُّ.

٣٧ يذُكِرُهُ المُؤَلِّفُ: "Atabeg" بِكسْرِ البَاءِ، وَأَثْبَتَهُ بِالفَتْحِ وَفَاقَ ابْنَ خَلِّكَانَ الحَرِيرِيَّ العَلِيمِ. (وَفِيَاثِ

الأعيان 5: 68 ترجمة "طَفْرُنْبِك"). (المترجم)

- الْمُتَطَوِّعَةُ مُتَطَوِّعُونَ يَدْفَعُهُمُ الدِّينُ لِلْجِهَادِ دَفْعًا.
- الْقَبَّةُ بِنَاءٌ مُقَبَّبٌ، يُغَطِّي عَادَةً إِحْدَى الْمَقَابِرِ.
- الصَّعِيدُ وادي النَّيْلِ مِنَ الْحَدِّ الْجَنُوبِيِّ لِدَلْتَا النَّيْلِ إِلَى أُسْوَانَ.
- الشَّيْنِي سَفِينَةٌ حَرَبِيَّةٌ لَهَا مَجْدَافٌ، وَهِيَ تَشْبَهُ الْقَادِسَ.
- السُّودَانِيَّيَّ شَخْصٌ مِنْ بِلَادِ السُّودَانَ، تَعْنِي "أَرْضَ السُّودَانِ"؛ وَمَنْ تَمَّ يَشِيرُ بَدَاهَةً إِلَى جَمِيعِ الْإِفَارِيقَةِ مِنْ جَنُوبِ الصَّحْرَاءِ الْكُبْرَى.
- الْأُمَّةُ مُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.
- الْوَزِيرُ أَعْلَى مَسْئُولٌ فِي الْإِدَارَةِ.
- الزَّرِّيَّةُ تَحْصِينٌ مِيدَانِيٌّ، مَصْنُوعٌ مِنَ الْأَغْصَانِ وَالشَّجِيرَاتِ الشَّائِعَةِ الْمَتَوَفَّرَةِ... إلخ. [63]

# مَصَادِرُ الْمُتَرَجِمِ وَمَرَا جِعُهُ

## أَوَّلًا - المصادِر

”القرآن الكريم“.

”الكتاب المقدس“ طبعة دار الكتاب المقدس.

”ذيل وليم الصوري“، نشرة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 2002م.  
ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي) المتوفى سنة 668هـ = 1269م. ”عيون  
الأنباء في طبقات الأطباء“، 1-2، بعناية أوغست مولر، القاهرة 1882م.  
ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد الجزري) المتوفى سنة 630هـ = 1233م:

”الكامل في التاريخ“، 1-13، بيروت - دار صادر 1965-1967م.

”التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل“، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات،

القاهرة - دار الكتب الحديثة 1995م.

ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد البغدادي) المتوفى سنة 597هـ = 1201م.  
”المصباح المضيء في خلافة المستضيء“، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، بيروت -  
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر 2000م.

ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس بن أهرن الملطبي) المتوفى سنة 685هـ = 1286م. ”تاريخ  
الزمان“، بيروت - دار المشرق 1986م.

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي) المتوفى 660هـ = 1262م.

”زبدة الحلب في تاريخ حلب“، 1-3، تحقيق سامي الدهان، دمشق - المعهد

العلمي الفرنسي للدراسات العربية 1951-1968م.

”بغية الطلب في تاريخ حلب“، تحقيق المهدي عيد الرواضية، لندن - مؤسسة

الفرقان للتراث الإسلامي 2016م.

ابن الكازروني (ظهير الدين علي بن محمد البغدادي) المتوفى سنة 697هـ = 1297م. ”مختصر  
التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس“، حققه وعلق عليه مصطفى جواد،  
وضع فهرسه وأشرف على طبعه سالم الألوسي، بغداد - دار أقرأ 1411هـ = 1991م.

ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله الدوادري) المتوفى بعد سنة 736هـ = 1335م. ”كنز الدرر

وجامع العرر“، الجزء السابع ”الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب“، تحقيق سعيد عبد

- الفتاح عاشور؛ الجزء الثامن "الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية"، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة - المعهد الألماني للآثار 1390-1391هـ = 1971-1972م.
- ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) المتوفى سنة 779هـ = 1377م. "رحلة ابن بطوطة"، المسماة "تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، بيروت - دار إحياء العلوم 1987م.
- ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكيناني) المتوفى سنة 614هـ = 1217م. "الرحلة"، بيروت - دار صادر 1967م.
- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد الإربلي) المتوفى سنة 681هـ = 1282م. "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، 1-8، حققه إحسان عباس، بيروت - دار صادر 1398هـ = 1978م.
- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد، كاتب الواقدي) المتوفى سنة 230هـ = 844م. "الطبقات الكبرى"، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة - مكتبة الخانجي 2001م.
- ابن شاكر الكندي (محمد بن شاكر بن أحمد الدمشقي) المتوفى سنة 764هـ = 1362م.
- "فوات الوفيات"، 1-5، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت 1973-1974م.
- "عيون التواريخ"، 1-2، تحقيق أحمد عبد الستار، القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية 1438هـ = 2017م.
- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة 632هـ = 1234م. "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أو "سيرة صلاح الدين"، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة - مكتبة الخانجي 1415هـ = 1994م.
- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي الحلبي) المتوفى سنة 684هـ = 1285م. "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، حققه يحيى زكريا عبارة، دمشق - إحياء التراث العربي 1991م.
- ابن فضل الله (شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري) المتوفى سنة 749هـ = 1349م. "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، الرياض - دار روائع الأثير 1429هـ = 2008م.
- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن أبي بكر الأسدي الدمشقي) المتوفى سنة 874هـ = 1470م. "الكواكب الدررية في السيرة النورية"، تحقيق محمود زايد، بيروت - دار الكتاب الجديد، 1971م.

ابن مَمَاتِي (الْأَسْعَدُ بْنُ مُهَذَّبِ الْخَطِيرِ مِينَا) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 606هـ = 1209م. "قَوَائِمُنُ الدَّوَاوِينِ"، جَمَعَهُ وَنَشَرَهُ عَزِيزُ سُورِيَالِ عَطِيَّةَ، الْقَاهِرَةَ - الْجَمْعِيَّةَ الْمَلِكِيَّةَ الزَّرَاعِيَّةَ 1943م. ابن مَنَكَلِي (جَلَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْأَمِيرُ الْقَنِّ بْنِ مُحَمَّدِ مَنَكَلِي بُوغَا الْقَاهِرِيِّ الْمِصْرِيِّ النَّاصِرِيِّ) الْمُتَوَفَّى بَعْدَ سَنَةِ 778هـ = 1376م. "الْأَدَلَّةُ الرَّسْمِيَّةُ فِي التَّعَابِي الْحَرِيَّةِ"، حَقَّقَهُ مُحَمَّدُ شَيْتِ خَطَّابُ، بَغْدَادَ - مَطْبَعَةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعِرَاقِيِّ 1988م. ابنُ وَاصِلِ (جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمِ الْحَمَوِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 697هـ = 1297م. "مُفْرَجُ الْكُرُوبِ فِي أَخْبَارِ بَنِي أَيُّوبَ"، 1-3، تَحْقِيقُ جَمَالُ الدِّينِ الشَّيَّالِ، الْقَاهِرَةَ - دَارُ الْكُتُبِ وَالوِثَائِقِ الْقَوْمِيَّةِ 1953، 1957، 1960م؛ 4-5، تَحْقِيقُ حَسَنِينَ مُحَمَّدِ رَيْبِ، الْقَاهِرَةَ - مَرْكَزُ تَحْقِيقِ التَّرَاثِ 1972، 1977م؛ 6، تَحْقِيقُ عِلَاءُ مِصْرِي النُّهْرِ، الْقَاهِرَةَ - مَرْكَزُ تَحْقِيقِ التَّرَاثِ 2023م.

أَبُو الْمَحَاسِنِ (يُوسُفُ بْنُ تَغْرِي بَرْدِي الْأَتَاكِئِي) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 874هـ = 1470م. "النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فِي مَلُوكِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ"، 1-12، بَتْلِيقاتُ مُحَمَّدِ رَمَزِي بَكْ، الْقَاهِرَةَ - دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ 1929-1956م؛ 13-16، تَحْقِيقُ فَهِيمُ مُحَمَّدُ شَلْتُوتُ، جَمَالُ مُحَمَّدِ مَحْرَزُ، إِبْرَاهِيمُ عَلِي طَرْخَانَ، جَمَالُ الدِّينِ الشَّيَّالِ، الْقَاهِرَةَ - الْهَيْئَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْعَامَّةُ لِلتَّأْلِيفِ وَالنَّشْرِ 1970-1972م.

أَبُو شَامَةَ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْمَاعِيلِ الْمَقْدِسِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 665هـ = 1268م: "كِتَابُ الرُّوضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ النُّورِيَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ"، 1-5، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ الزَّيْبِقُ، بِيْرُوتَ - مُؤَسَّسَةُ الرَّسَالَةِ 1418هـ = 1997م. "الْمُدَيْلُ عَلَى الرُّوضَتَيْنِ" تَارِيخُ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ مَا بَعْدَ صِلَاحِ الدِّينِ حَتَّى دَوْلَةِ الْمَمَالِيكِ فِي عَهْدِ الظَّاهِرِ بِيْرَسَ 590-665هـ، 1-2، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ الزَّيْبِقُ، بِيْرُوتَ - دَارُ الرَّسَالَةِ الْعَالَمِيَّةِ، دَارُ الْبِشَائِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ 1431هـ = 2010م.

أَحْمَدُ الْحَنْبَلِيُّ (أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نَصْرِ الْقَاهِرِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 876هـ = 1471م. "شِفَاءُ الْقُلُوبِ فِي مَنَاقِبِ بَنِي أَيُّوبَ"، تَحْقِيقُ مَدِيحَةُ الشَّرْقَاوِيِّ، الْقَاهِرَةَ - مَكْتَبَةُ الثَّقَافَةِ الدِّيْنِيَّةِ 1996م.

الإدْرِيسِيُّ (أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 560هـ = 1164م. "نَزْهَةُ الْمُشْتَقَاتِ فِي اخْتِرَاقِ الْأَفَاقِ"، الْقَاهِرَةَ - مَكْتَبَةُ الثَّقَافَةِ الدِّيْنِيَّةِ 2002م.

الأدْفُوئِيُّ (كَمَالُ الدِّينِ أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ بْنُ نَعْلَبِ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 748هـ = 1248م. "الطَّالِعُ السَّعِيدُ الْجَامِعُ أَسْمَاءِ نُجَبَاءِ الصَّعِيدِ"، تَحْقِيقُ سَعْدُ مُحَمَّدِ حَسَنِ، الْقَاهِرَةَ - الْهَيْئَةُ

المصريّة العامّة للكتاب 2001م.

البغداديّ (صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحقّ) المتوفّى سنة 739هـ = 1338م. "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، بيروت - دار المعرفة 1955م.

البُنْدَارِيّ (قوام الدّين الفتح بن عليّ بن محمد) المتوفّى سنة 643هـ = 1245م. "سنن البرق الشّاميّ"، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة - مكتبة الخانجي 1979م.

الحُسَيْنِيّ (عزّ الدّين أحمد بن محمد بن عبد الرّحمن) المتوفّى سنة 695هـ = 1295م. "صلة التكملة لوفيات النقلة"، 1-2، حَقَّقَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِشَارَ عَوَّادَ مَعْرُوفَ، بيروت - دار الغرب الإسلاميّ 1428هـ = 2007م.

الذّهبيّ (شمس الدّين محمد بن أحمد بن عثمان) المتوفّى سنة 748هـ = 1347م:

"سير أعلام النبلاء"، 1-25، بيروت - مؤسسة الرّسالة 1981-1988م.

"تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، 12-15، حَقَّقَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

بشّار عوّاد معرّف، بيروت - دار الغرب الإسلاميّ 1424هـ = 2003م.

الرّزيديّ (محمد مرتضى الحسيني الواسطيّ الحنفيّ)، "تاج العروس من جواهر القاموس"، المطبعة الخيرية، 1306هـ.

ابن السّاعي (تاج الدّين عليّ بن أنجب بن عثمان البغداديّ) المتوفّى سنة 674هـ = 1275م.

"الدر الثمين في أسماء المصنّفين"، تحقيق وتعليق أحمد شوقي بنين، محمد سعيد

حنشي، تونس - دار الغرب الإسلاميّ، ط1، 2009م.

سبط ابن الجوزيّ (شمس الدّين يوسف بن فزّأوغي) المتوفّى سنة 654هـ = 1356م. "مرآة

الزّمان في تواريخ الأعيان"، 1-23، دمشق - دار الرّسالة العالميّة 1434هـ = 2013م.

الشّبكيّ (تاج الدّين عبد الوهاب بن عليّ) المتوفّى سنة 771هـ = 1369م. "طبقات الشّافعيّة

الكبرى"، تحقيق عبد الفتّاح محمد الحلّو، محمود محمد الطنّاجي، القاهرة - دار إحياء

الكتب العربيّة 1964م.

السّيوطيّ (جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر) المتوفّى سنة 911هـ = 1505م:

"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، 1-2، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم، بيروت - المكتبة العصريّة 1430هـ = 2009م.

"بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة

1964م.

صالح بن يحيى الدُرزِي. "تاريخ بِيروت وأخبار الأُمراء البُحْثَرِيِّين من بني الغرب"، سعى بنشره وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت - المطبعة الكاثوليكية 1927م.

الصَّفَدِيُّ (صَلَاحُ الدِّينِ خَلِيلُ بَنُ أَيُّبِكَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ) المُتَوَفَّى سنة 764هـ = 1363م. "كتاب الوافي بالوقيات"، باعثناء هلموت ريتز، النشرات الإسلامية، جمعية المستشرقين الألمانية 1381هـ = 1962م.

عبد اللطيف البغدادي (مُوفَّقُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللطيفِ بِنِ يُوسُفَ بِنِ مُحَمَّدَ بِنِ عَلِيِّ بِنِ أَبِي سَعْدِ الشَّافِعِيِّ) المُتَوَفَّى سنة 629هـ = 1231م. "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" أو "رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر"، أشرف عليه وقدم له عبد الرحمن عبد اللطيف الشيخ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998م.

عبد الواحد المرآكشي. "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، عناية محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء - دار الكتاب 1978م.  
العماد الكاتب الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد) المُتَوَفَّى سنة 597هـ = 1200م:  
"الفتح القسبي في الفتح القدسي"، القاهرة - دار المنار 2004م.  
"البرق الشامسي"، تحقيق فالح صالح حسن، عمان - مؤسسة عبد الحميد شومان 1987م.

عمارة اليميني (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي الحكيمي) المُتَوَفَّى سنة 569هـ = 1174م. "النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية"، اعتنى بتصحيحه هرتويغ درنبرغ، مدينة شالون 1897م.

العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الحنفي) المُتَوَفَّى سنة 855هـ = 1451م. "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" عَصُرُ سلاطين المماليك 648-664هـ = 1250-1265م، حَقَّقَهُ وَوَضَعَ حواشيه محمد محمد أمين، القاهرة - مركز تحقيق التراث 1431هـ = 2010م.  
العزالي (أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي) المُتَوَفَّى سنة 505هـ = 1111م. "فضائح الباطنية"، حَقَّقَهُ وَقَدَّمَهُ لَهُ عبد الرحمن بدوي، الكويت - مؤسسة دار الكتب الدبيية 1964م.

الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق). "تاريخ الفارقي"، راجعه أحمد الزيني، دار الفكر الحديث 1408هـ = 1988م.

الفَيْرُوزِ أَبِي بَادِي (مَجْدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الشَّيرَازِيّ) المُتَوَفَّى سنة 817هـ = 1415م. "مُعْجَمُ القَامُوسِ المُحِيطِ"، رَبَّيْهِ وَوَثَّقَهُ خَلِيلُ مَأْمُونِ شَيْحَا، بِيرو ت - دار المَعْرِفَة 1430هـ = 2009م.

القِفْطِيُّ (جَمَالُ الدِّينِ أَبُو الحَسَنِ عَلِيّ بن يوسُف) المُتَوَفَّى سنة 646هـ = 1248م.

"إِخْبَارُ العُلَمَاءِ بِأَخْبَارِ الحُكَمَاءِ"، عُلِّقَ عَلَيْهِ وَوَضَعَ حَوَاشِيَهُ إِبْرَاهِيمُ شَمْسِ الدِّينِ،

بِيرو ت 2005م.

"إِنْبَاهُ الرُّوَاةِ عَلَى أَنْبَاهِ النُّحَاةِ"، تَحْقِيقُ مُحَمَّدُ أَبُو الفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ، القَاهِرَة - دار

الفِكر العَرَبِيّ 1406هـ = 1986م.

القَلْقَشَنْدِيُّ (شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الفِزَارِيُّ) المُتَوَفَّى سنة 821هـ = 1418م. "صُبْحُ

الأَعْشَى فِي كِتَابَةِ الإِنْشَاءِ"، 1-14، القَاهِرَة - دار الكُتُبِ المِصْرِيَّةِ 1912-1938م.

المَسْعُودِيُّ (أَبُو الحَسَنِ عَلِيٍّ بنِ الحُسَيْنِ) المُتَوَفَّى سنة 346هـ = 956م. "مَرْوَجُ الذَّهَبِ

وَمُعَادِنُ الجَوْهَرِ"، طَبَعَهُ بَرِيهَةُ دِي مَنَارَ، بِأَفِيهِ دِي كَرْتَايَ، عَنِي بِتَحْقِيقِهَا وَتَصْحِيحِهَا شَارِلُ

بِيلا، بِيرو ت - الجَامِعَةُ البِنَائِيَّةُ 1970-1980م.

القُرْشِيُّ (مُحَمَّدُ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ العُثْمَانِيّ الدَّمَشَقِيّ) المُتَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ 800هـ. "طَبَقَاتُ

الفُقَهَاءِ الكَبِيرِ"، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ مَحْيِي الدِّينِ عَلِيّ نَجِيبُ، بِيرو ت، دار البِشَائِرِ

الإِسْلَامِيَّةِ 2013م.

المَقْرِيّ (شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ التِّلْمَسَانِيّ) المُتَوَفَّى سنة 1041هـ = 1631م. "نَفْحُ

الطَّيِّبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرِّطِيبِ"، حَقَّقَهُ إِحْسَانُ عَبَّاسُ، دار صَادِر - بِيرو ت 1968م.

المَقْرِيّ (تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بنِ عَبْدِ القَادِرِ) المُتَوَفَّى سنة 845هـ = 1442م:

"البِيانُ والإِعْرَابُ عَمَّا بَارِضٌ مُضَرٌّ مِنَ الأَعْرَابِ"، تَوَلَّى نَشْرَهُ وَمَرَا جِعَتَهُ إِبْرَاهِيمُ رَمْزِيّ،

القَاهِرَة - مَطْبَعَةُ المَعَارِفِ 1334هـ = 1916م.

"السُّلُوكُ لِمَعْرِفَةِ دُورِ المُلُوكِ"، 1-4، الأوَّلُ والثَّانِي فِي سِتَّةِ أَقْسَامٍ بِتَحْقِيقِ مُحَمَّدِ

مُصْطَفَى زِيَادَة، القَاهِرَة - لَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجَمَةِ وَالنَّشْرِ 1934-1958م؛ الثَّالِثُ والرَّابِعُ

فِي سِتَّةِ أَقْسَامٍ بِتَحْقِيقِ سَعِيدِ عَبْدِ الفَتْحِ عَاشُورَ، القَاهِرَة - مَرْكَزُ تَحْقِيقِ التَّرَاثِ

1970-1973م.

"اتِّعَاطُ الحُنْفَا بِأَخْبَارِ الأَئِمَّةِ الفَاطِمِيَّيْنَ الخُلَفَاءِ"، 1-3، الأوَّلُ بِتَحْقِيقِ جَمَالِ الدِّينِ

الشَّيْئَالِ، القَاهِرَة - دار الفِكر العَرَبِيّ 1948م؛ الثَّانِي والثَّالِثُ بِتَحْقِيقِ مُحَمَّدِ حَلْمِيّ

مُحَمَّدُ أَحْمَدُ، القَاهِرَة - المَجْلِسُ الأعلى لِلشُّنُونِ الإِسْلَامِيَّةِ 1967-1973م.

"المَوَاعِظُ وَالاعتِبَارُ فِي ذِكْرِ الخَطِّطِ والآثَارِ"، 1-5، حَقَّقَهُ وَكَتَبَ مُقَدِّمَتَهُ وَوَضَعَ

- فَهَارِسَه أَيْمَن فُوَاد سَيِّد، لندن - مُؤَسَّسَة الْفَرْقَانِ لِلتُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ 2002-2004م.
- الْمُنْدَرِيُّ (زَكِيُّ الدِّينِ عَبْدُ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِ الْقَوِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 656هـ = 1258م. "التَّكْمِلَةُ لَوْفِيَّاتِ النَّقْلَةِ"، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِشَّارِ عَوَّادٍ مَعْرُوفٍ، بِيْرُوت - مُؤَسَّسَة الرُّسَالَةِ 1984م.
- النَّاصِرِيُّ (أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ). "الاسْتِقْصَا لِأَخْبَارِ دَوْلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى"، تَحْقِيقُ جَعْفَرِ النَّاصِرِيِّ وَمُحَمَّدِ النَّاصِرِيِّ، الدَّارُ الْبَيْضَاءُ - دَارُ الْكُتَابِ 1954م.
- النُّعَيْمِيُّ (عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفِ الدَّمَشَقِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 927هـ = 1521م. "الدَّارِسُ فِي تَارِيخِ الْمَدَارِسِ"، عَنِي بِنَشْرِهِ وَتَحْقِيقِهِ جَعْفَرُ الْحَسَنِيُّ، دِمَشَقُ - الْمَجْمَعُ الْعِلْمِيُّ الْعَرَبِيُّ 1367-1370هـ = 1948-1950م.
- النُّوَيْرِيُّ (شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْبَكْرِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 733هـ = 1332م. "نَهَايَةُ الْأَرَبِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ"، الْقَاهِرَةُ - دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ 1923-1997م.
- وَلِيمُ الصُّورِيُّ. "مِنْ تَارِيخِ أَعْمَالِ أَنْجَزَتْ فِيهَا وَرَاءَ الْبِحَارِ"، تَرْجَمَةُ سُهَيْلِ زَكَارٍ، دِمَشَقُ 1995م.
- يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ (شَهَابُ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّومِيُّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 626هـ = 1229م: "مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ" أَوْ "إِرْشَادُ الْأَرَبِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَدِيبِ"، تَحْقِيقُ إِحْسَانَ عَبَّاسٍ، بِيْرُوت - دَارُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّ 1993م.
- "مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ"، 1-7، بِيْرُوت - دَارُ صَادِرِ 1977م.
- الْيُونَنِيُّ (قُطْبُ الدِّينِ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ الْبَعْلَبَكِيِّ) الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 726هـ = 1325م. "ذَيْلُ مِرْآةِ الزَّمَانِ"، 1-4، تَصْحِيحُ مُحَمَّدِ حَبِيبِ اللَّهِ الرَّثِيدِ، الْهِنْدُ - دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ 1954-1960م.

## ثَانِيًا - الْمَرَاغُ

- "آثَارُ عَنِ إِمْبَرَاتُورِ أَلْمَانِيَا"، مَقَالَةٌ بِصَحِيفَةِ الْمَنَارِ، 1 (1315-1316هـ)، الْجِزْءُ 36. الْأَبُ أَنْسْتَاَسُ مَارِي الْكِرْمَلِي. "أَلْقَابُ الشَّرْفِ وَالتَّعْظِيمِ عِنْدَ الْعَرَبِ"، مَجْلَةُ الرُّسَالَةِ، بِتَارِيخِ 19 مَارِيو 1941م، الْعِدْدُ 411.
- إِبْرَاهِيمُ عُمَرُ الزَّيْبِقُ:

"مَا بَعْدَ صِلَاحِ الدِّينِ تَارِيخِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ بُعِيدَ وَفَاةِ صِلَاحِ الدِّينِ حَتَّى سَقُوطِهَا فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ (589-658هـ = 1193-1260م)"، بِيْرُوت - دَارُ الْبِشَائِرِ

الإسلامية 2019م.

”أبو شامة مؤرّح دِمَشق في عَصْر الأيوبيين: دراسةٌ تحليليةٌ في سيرته وأثاره التاريخية“، بيروت - مؤسّسة الرّسالة 2010م.

”أبو شجاع شاوّر بن مُجبر السّعديّ“، مجلة الكاتب الفلسطيني، ربيع 1991م، العدد 23.

أبو الحسن عليّ الحسني الندوي. ”رجال الفكر والدعوة في الإسلام“ دمشق بيروت - دار ابن كثير، ط4 1433هـ = 2012م.

أحمد إبراهيم العلّانة. ”المئة في تراجم مَنْ بلغ المئة من الأعلام العرب في العصر الحديث“، كتاب المجلة العربية (547)، الرياض 1443هـ = 2022م.  
أحمد فؤاد سعيد:

”نظم الحكم والإدارة في مصر في العصر الأيوبي“، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب - جامعة عين شمس 1983م.

”أوراق جَنِيْزة القاهرة هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته؟“ ندوة الدراسات البريدية في مصر، مركز الدراسات البريدية، جامعة عين شمس 1983م.  
أحمد مُختار العبّادي. ”تاريخ العَصْر الإسلامي الوسيط: في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، في الجيْش والبحريّة وأسلحة القتال في العَصْر الإسلاميّ“، الإسكندريّة - مؤسّسة شباب الجامعة 2013م.

أدي شير. ”الألفاظ الفارسية المُعرّبة“، القاهرة - دار العرب 1987م.  
أميرة مصطفى يوسف. ”السياسة الداخلية والخارجية لأرناط حاكم الكرك خلال المرحلة من 1177-1187م“، بحث منشور ضمن كتاب ”الصليبيون في الشرق“ لتكريم المؤرخة عليّة الجنزوري، القاهرة - مكتبة الآداب 2013م.

البتونزي بك، مُحمّد لييب. ”رِحْلَةُ الأندلس“، راجعه وقَدّمه له محمد علي دبور، القاهرة - دار إشراقة 2021م.

بدري محمد فهد. ”تاريخ العراق في العصر العبّاسيّ الأخير 552-656هـ = 1157-1258م“، رسالة دكتوراة، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية 1972م.

جرجي زيدان. ”صلاح الدّين ومكائد الحشاشين“، القاهرة.  
جوزيف نسيم يوسف. ”معركة حطّين خلفياتها ودلالاتها“، عالم الفكر، 1989م، المجلد

- حجازي عبد المنعم سليمان. "حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي-الإسلامي"، مجلة المؤرخ العربي، 2020م، 1/28.
- حسن حبشي. "نور الدين والصليبيون (حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري)"، القاهرة - دار الفكر العربي 1367هـ = 1948م.
- حسن عبد الوهاب. "مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب "مقالات وبحوث من التاريخ الاجتماعي عن الحروب الصليبية"، الإسكندرية 1997م.
- حسنين محمد ربيع. "البحر الأحمر في العصر الأيوبي"، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية، القاهرة 1980م.
- درويش النخيلي. "السفن الإسلامية على حروف المعجم"، الإسكندرية - جامعة الإسكندرية 1974م.
- دريد عبد القادر نوري. "سياسة صلاح الدين في بلاد الشام والجزيرة (570-589هـ = 1174-1193م)"، بغداد، د.ت.
- راجية عبد الوهاب. "الإستراتيجية العسكرية لصلاح الدين"، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس 1986م.
- رعد إسماعيل نعمان.
- "نجم الدين أيوب وإيد السلطان صلاح الدين الأيوبي: سيرته ودوره السياسي والحضاري في تاريخ الدولة الأيوبيّة"، دمشق - دار صفحات، 2024م.
- "الخاتون عصمة الدين بنت أنر والسّت أم الملك الصّالح إسماعيل زوجتا السلطان نور الدين محمود - دراسة مقارنة"، بحث منشور في كتاب "الدولة النورية بين التكوين والنهوض"، دمشق - دار نور حوران، 2021م.
- "الخاتون والدة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي"، دورية كان التاريخية، سبتمبر 2020م، المجلد 13، العدد 49.
- رياض مصطفى شاهين. "أوضاع اليهود وموقفهم في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية"، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، يونيو 2005م، العدد التاسع.
- رينهارة دوزي. "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب"، مجلة اللسان العربي - الرباط 9 (1972م).
- سارة أحمد حسن. "الأسرار الإستراتيجية لمدينة الإسكندرية في عصر الحروب الصليبية"، الإسكندرية - مكتبة النجاح 2021م.

ستيفن رنسيماان:

”الحضارة البيزنطية“، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة - الهيئة المصرية العامة

للكتاب 2010م.

”تاريخ الحروب الصليبية“، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت - دار الثقافة، الطبعة

الثالثة، 1993م.

سعد زغلول عبد الحميد. ”العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن

يوسف بن عبد المؤمن الموحدي“، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، 1952-

1953م، المجلدان السادس والسابع.

سعيد عبد الفتاح عاشور:

”حطين وقائع وعبر“، مجلة العربي، يوليو 1987م، العدد 344.

”سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى“، بحث منشور في كتابه ”بحوث

ودراسات في تاريخ العصور الوسطى“، جامعة بيروت العربية 1977م.

سفانة جاسم محمد الجبوري. ”بهاء الدين ابن شداد وكتابه النوادر السلطانية والمحاسن

اليوسفيّة (539-632هـ = 1144-1234م)“، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية،

جامعة الموصل 2000م.

سهير مليجي. ”المرأة الصليبية في بلاد الشام 1098-1267م“، رسالة دكتوراة، كلية البنات

- جامعة عين شمس 2002م.

السيد الباز العريني. ”مصر في عصر الأيوبيين“، القاهرة 1960م.

شاكر أحمد أبو بدر. ”الحروب الصليبية والأسرة الزنكية“، بيروت - الجامعة اللبنانية 1972م.

صحيفة المؤيد، ”مقالة عن القيصر الألماني“، العدد 2623، بتاريخ 17 نوفمبر 1898م.

طه الطراونة. ”المرأة الصليبية: دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام“، مجلة

مؤتة للبحوث والدراسات - الأردن، 1993م، المجلد 8، الجزء 1.

عارف تامر. ”سنان وصلاح الدين“، بيروت 1956م.

عائشة بنت عبد الله. ”البحر الأحمر في العصر الأيوبي“، مكة المكرمة 1980م.

عبد الحميد حسين محمود حمودة. ”الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الصعيد الأعلى

في العصر الفاطمي“، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الرقازيق 1988م.

عبد القادر بن بدران. ”منادمة الأطلال ومسامرة الخيال“ أو ”الأثار الدمشقية والمعاهد

العلمية“، بيروت - المكتب الإسلامي 1405هـ = 1985م.

عصام مصطفى عقلة، فوزي خالد الطواهيّة. "الملك المُظفّر تقيي الدّين عُمر ودوره في الدّولة الأيوبيّة"، المجلة الأردنيّة للتاريخ والآثار، 2014م، المجلد 8، العددان 3-4. عطية القوصي:

"صلاح الدّين واليهود"، المجلة التاريخية المصرية، 1977م، المجلد 24.

"وثائق الجنيزة وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلاميّة"، مجلة جامعة القاهرة، فرع الخرطوم 1974م، العدد 15.

علي عودة الغامدي. "معركة ميريوكيفالون 1176م من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي"، مجلة كلية الشريعة، جامعة أمّ القُرى، 1989م، العام الأوّل، العدد الأوّل. عليّ مبارك. "الخُطَطُ التّوقيفيّة الجديدة لمصر والقاهرة ومُدُنُها وبِلادِها القديمة والشّهيرة"، القاهرة - المطبعة الأميريّة ببولاق 1304هـ = 1887م.

عماد الدّين خليل. "الطريق إلى حطّين"، مجلة آفاق الثقافة والتراث - دبي، يوليو 1999م، العددان 25-26.

فاروق جرّار. "أسطول صلاح الدّين الأيوبي"، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكيّة ببيروت، 1960م، المجلد 11.

فوزي نجيب حسين. "صلاح الدّين وتوحيد الجبهة العربيّة زمن الصليبيين"، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1959م. محسن محمد حسين.

"مسؤولية صلاح الدّين الأيوبي عن فشل حصار صور"، المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، الكويت 1987م، المجلد 2، العدد 26.

"الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدّين: تنظيمه، تركيبه، أسلحته"، رسالة دكتوراة، جامعة بغداد 1981م، ونشرتها دار الرسالة ببيروت 1986م.

محمد أمين صالح. "العلاقة بين دولة الصّليحيين والخلافة الفاطميّة"، المجلة التاريخية المصريّة 1979م، المجلد 26.

محمد رزق محمود. "العلاقة بين أرناط أمير حُصن الكرك وصلاح الدّين الأيوبي حتّى موقعة حطّين 1187م"، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس 1973م.

مُحمّد رمزي بك. "القائوسُ الجُغرافيُّ للبلادِ المصريّة من عهدِ قُدَماءِ المُصريّين إلى سنة 1945م"، 1-5، القاهرة - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب 1994م.

محمد صالح داود القزاز. "الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير 512-656هـ"، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة القاهرة 1965م.

محمد عبد الله عنان.

"تراجم إسلامية شرقية وأندلسية"، القاهرة - مكتبة الخانجي 1970م.

"مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية"، دار الكتب المصرية 1350هـ = 1931م.

محمد فتحي الشاعر. "أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م"، مصر 1990م.

محمد ماهر حمادة. "الوثائق السياسية والإدارية للعهد الفاطمي والأتابكية والأيوبيّة (دراسة ونصوص)"، بيروت - مؤسسة الرسالة 1405هـ = 1985م.

محمد مصطفى زيادة. "مؤلف الطرسوسي في التاريخ الحربي على عهد الأيوبيين"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 2، العدد 1.

محمد مؤنس عوض:

"رسالة الأسير سميم المصري في سجون الصليبيين بنابلس (1177-1186م) إلى

أهله بالفسطاط من خلال وثائق الجنيزة اليهودية" في كتابه "الحروب الصليبية

من خلال وثائق الجنيزة اليهودية"، دمشق - دار نور حوران 2020م.

"صلاح الدين الأيوبي انكسارات وانتصارات"، دمشق - دار نور حوران 2019م.

"المؤرخون الإسرائيليون والحروب الصليبية"، القاهرة - مكتبة الآداب 2015م.

"معركتا ميريو كيفالون (1176م) وتلّ الجَزَر (1177م) هزيمتان بيزنطية وأيوبيّة - دراسة

مقارنة" ضمن كتابه "صلاح الدين الأيوبي الإعاقه - الكاريزما - الإنجاز"، القاهرة

- دار الآفاق العربية 2014م.

محمد نجيب الوسمي. "علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة

كومنين 1081-1185م"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1988م.

محمود سعيد عمران:

"السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل كومنين"، الإسكندرية

2010م.

"تاريخ الحروب الصليبية"، الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية 2000م.

"حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين في مدينة الإسكندرية 562هـ

= 1167م"، بحث بمؤتمر علمي محلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، إبريل

٢٠٠٠م، العدد ٢٠٠.

محمود ياسين أحمد. "الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة"، رسالة دكتوراة، جامعة

الموصل 1978م

مصطفى الحيارى. "حصن الحابس جلدك: حبيس جلدك"، مجلة دراسات الجامعة

الأردنية - عمان، 1986م، المجلد 13، العدد 12.

ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، ومحمد عبّيش سبّاك. "الصراع بين نور الدين زنكي والملك

الصلبي عموري الأوّل للسيطرة على مصر في روايات المصادر العربية والصلبية

المعاصرة"، مجلة دراسات موصلية 2022م، السنة 15، العدد 61.

نظير حسن سعداوي. "التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي"، تحقيق

علاء مصري النهر، القاهرة - دار إشراق 2024م.

نعوم شقير. "تاريخ سيناء والعرب"، طبعة مصر، 1916م.

هاملتون جب. "حياة صلاح الدين الأيوبي في الاستشراق البريطاني"، ترجمة ناصر عبد

الرزاق الملا جاسم، القاهرة - دار رؤية للنشر والتوزيع 2021م.

هاني زحير. "الزيجات السياسية لدى الصليبيين في بلاد الشام وأطراف العراق وأثرها في

الحركة الصليبية في الشرق"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 2004م.

هویدا محمد أحمد بنيرة. "علاقات المودة والمراسلات بين صلاح الدين الأيوبي والأباطرة

البيزنطيين (1181-1192م = 577-589هـ)"، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية 2011م،

العدد الأوّل.

وائل أحمد إبراهيم. "حملة شرف الدين قراقوش على بلاد المغرب في عصر صلاح

الدين الأيوبي: الأسباب - الأحداث - النتائج"، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي، كلية دار

العلوم، جامعة القاهرة، ديسمبر 2014م، العدد 28.

ياسر كامل. "معركة تلّ الجَزَر (مونتجيسار: Montgisard) عام 1177م" المنشور ضمن

كتاب "بحوث ودراسات في تاريخ الإسلام"، وهو تكريم للأستاذ الدكتور سلامة البلوي،

القاهرة 2018م.

## ثَالِثًا - المَرَاغِ الأَجْنِبِيَّة

- Bruno Galland, *Philippe Auguste: Le Bâtisseur du Royaume*, Paris, Belin, coll. "Portraits", 2014.
- Campisi, Roberto; Mambretti, Renato, *Baldovino IV re di Gerusalemme: Il Ragazzo che Sfidò Saladino*. Art 2011.
- Carole Hillenbrand, "Some Reflections on the Imprisonment of Reynald of Châtillon". In Robinson, Chase F. (ed.). *Texts, Documents and Artefacts: Islamic Studies in Honour of D.S. Richards*. Brill, 2003.
- F. Cordero di Pamparato, *Corrado di Monferrato: L'Italiano che Sconfisse il Saladino*. Pintore, 2008.
- Gaufredoy-Demombynes, Maurice, "Une Lettre de Saladin au Calife Almohade". Dans *Mélanges René Basset*, Paris 1925, t. 2.
- Gibb, Hamilton Alexander Roskeen, "The Achievement of Saladin." In Gibb, H.A.R. (ed.), *Studies on the Civilization of Islam*, Boston 1962.
- Hassan Sadek, "Salah el-Din's Fort on Ras El-Gindi in Sinai", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, tome 11, 1919.
- Helen Nicholson (2006), *Ernoul*. In Alan V. Murray (ed.). *The Crusades: An Encyclopedia*. 4 vols. ABC-CLIO.
- Hilmy Ahmed: *EI*, art. "Abu Shama", Vol. 1.
- M. Moustafa Ziada, *The Mamlûk Conquest of Cyprus in the 15th. Century*, (Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts. Egyptian University, Cairo, vol. 1, Part 1, 1933). *Oxford Dictionary of English*, edited by Angus Stevenson, Oxford University Press, 3rd, 2010.
- T.A. Archer & Charles L. Kingsford, *The Crusades: The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem*, New York: G.P. Putnam's Son, London: T. Fisher Unwin, 1894.

## كشاف الأعلام

- ابن جُبَيْر 129، 127  
 ابن فَضْلَ اللَّهِ العُمَرِيُّ 87، 86، 83  
 أبو حامد العَرَّالِيُّ 10  
 أبو شامة المَقْدِسِيُّ 149، 132  
 أبو يُوسُفَ يَعْقُوبَ المَنْصُورَ المُوَحِّدِيَّ 88، 87  
 أَحْمَدُ ابنَ الأَرزُقِ الفَارِقِيَّ 124  
 أَحْمَدُ بنَ مُحَمَّدَ ابنِ خَلِّكَانَ 64  
 إرنول، مولى الأمير باليان 113  
 أرنولف صاحب تل باشر 25  
 أستاذ شوليه 25  
 إسحاق الثاني أنجيلوس 90، 75، 40  
 إسحاق كومنين 43  
 إشفيا، زوجة القَوْمَصَ ريموند 66، 49  
 الأفضل بن صلاح الدين 46  
 ألبرت شولتنز 146  
 أليكسيوس أنجيلوس 40  
 أمبروز 139  
 أمليريك 2، 3، 4، 21، 25، 26، 104، 114، 115، 117، 116  
 أندرو إهرنكروتر 152، 150، 141، 140  
 أندرونيكوس 40  
 أوبالدو، رئيس أساقفة بيزا 92  
 أَيْبَكُ، مملوك صلاح الدين 96  
 بلدوين الثالث 114  
 بلدوين الرابع (الأبْرَص) 117  
 بنجامين كيدار 49  
 بهاء الدين ابن شداد 147، 146، 138، 96، 90  
 بيتر مالكوم هولت 141، 129  
 بيريل سمولي 148  
 تَقِيَّ الدِّينِ عُمَرَ بنِ شاهِنشَاه 47، 53، 58، 64، 65، 66، 68، 125، 141  
 نُوران شاه بن أَيُّوب 4، 6، 29، 124  
 جَمال الدِّينِ جِجِّي الذَّرزِي 74، 72  
 جوسلين صاحب سَمَيْسَاط 26  
 جون وينثروب هاكيت 78، 77، 75  
 جي دي لوزنيان 46، 47، 49، 50، 55، 59  
 64، 65، 66، 69، 86، 92، 94، 95، 96، 137  
 جيبون 147  
 جيرارد صاحب بوجي 26  
 حُسَامُ الدِّينِ لُؤْلُؤُ 53  
 دانتى 139  
 دونالد سيدني رتشاردز 148  
 ديفيد إدوارد جاكسون 143  
 ديفيد كاربنتر 118  
 راؤول أُسْقُفُ بَيْتِ لَحْم 25  
 رَتشَارْدُ الأَوَّلُ، ملك إنكلترا 15، 56، 98، 102، 117، 118، 119، 120، 132، 134  
 رَزَّيْكَ بنِ طَلَّاح 103  
 رشذوم 44  
 رمضان ششن 151  
 ابن جُبَيْر 129، 127  
 ابن فَضْلَ اللَّهِ العُمَرِيُّ 87، 86، 83  
 أبو حامد العَرَّالِيُّ 10  
 أبو شامة المَقْدِسِيُّ 149، 132  
 أبو يُوسُفَ يَعْقُوبَ المَنْصُورَ المُوَحِّدِيَّ 88، 87  
 أَحْمَدُ ابنَ الأَرزُقِ الفَارِقِيَّ 124  
 أَحْمَدُ بنَ مُحَمَّدَ ابنِ خَلِّكَانَ 64  
 إرنول، مولى الأمير باليان 113  
 أرنولف صاحب تل باشر 25  
 أستاذ شوليه 25  
 إسحاق الثاني أنجيلوس 90، 75، 40  
 إسحاق كومنين 43  
 إشفيا، زوجة القَوْمَصَ ريموند 66، 49  
 الأفضل بن صلاح الدين 46  
 ألبرت شولتنز 146  
 أليكسيوس أنجيلوس 40  
 أمبروز 139  
 أمليريك 2، 3، 4، 21، 25، 26، 104، 114، 115، 117، 116  
 أندرو إهرنكروتر 152، 150، 141، 140  
 أندرونيكوس 40  
 أوبالدو، رئيس أساقفة بيزا 92  
 أَيْبَكُ، مملوك صلاح الدين 96  
 بلدوين الثالث 114  
 بلدوين الرابع (الأبْرَص) 117  
 بنجامين كيدار 49  
 بهاء الدين ابن شداد 147، 146، 138، 96، 90  
 بيتر مالكوم هولت 141، 129  
 بيريل سمولي 148  
 تَقِيَّ الدِّينِ عُمَرَ بنِ شاهِنشَاه 47، 53، 58، 64، 65، 66، 68، 125، 141  
 نُوران شاه بن أَيُّوب 4، 6، 29، 124  
 جَمال الدِّينِ جِجِّي الذَّرزِي 74، 72  
 جوسلين صاحب سَمَيْسَاط 26  
 جون وينثروب هاكيت 78، 77، 75  
 جي دي لوزنيان 46، 47، 49، 50، 55، 59  
 64، 65، 66، 69، 86، 92، 94، 95، 96، 137  
 جيبون 147  
 جيرارد صاحب بوجي 26  
 حُسَامُ الدِّينِ لُؤْلُؤُ 53  
 دانتى 139  
 دونالد سيدني رتشاردز 148  
 ديفيد إدوارد جاكسون 143  
 ديفيد كاربنتر 118  
 راؤول أُسْقُفُ بَيْتِ لَحْم 25  
 رَتشَارْدُ الأَوَّلُ، ملك إنكلترا 15، 56، 98، 102، 117، 118، 119، 120، 132، 134  
 رَزَّيْكَ بنِ طَلَّاح 103  
 رشذوم 44  
 رمضان ششن 151

- ريموند قَوْمَص طَرَابُلس 40، 46، 49، 56، 59، 64، 65، 66
- عَزَّ الدِّينِ سَامَةَ 39
- عَزَّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ (مَسْعُودِ الْأَوَّلِ) 108
- رينالد دي شاتيون (أَرْنَاط) 14، 15، 31، 34
- عِصْمَةُ الدِّينِ خَاتُونِ بِنْتِ مُعِينِ الدِّينِ أُنَّر 125
- 110، 111، 112، 113، 129
- 152
- رينالد صَاحِبِ صَيْدَا 74، 75، 83، 93، 95
- عِمَادُ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِي (العِمَادُ الْكَاتِبُ) 77
- 132، 136، 146، 147، 148، 150
- زَكِيَّ الدِّينِ الْوَهْرَانِي 19، 152
- زُلْفَنْدَار 109
- عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي الْأَوَّلُ 6، 7، 13، 18، 19
- 108
- عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي الثَّانِي بْنِ مَوْدُودِ 153
- السَّتِّ رِبْعَةُ خَاتُونِ بِنْتِ أَيُّوبَ 125، 126
- ستانلي لين بول 140، 145، 155
- السَّيْرُ هَامَلْتُونِ جَب 145، 146، 147، 150
- السَّيْرُ وَلْتَرِ شُكَّت 145
- سَيْفُ الدِّينِ غَازِي الثَّانِي بْنِ مَوْدُودِ 109، 110
- فولك الأَنْجُوِي 114
- شَاوَرُ بْنُ مُجِيرِ السَّعْدِي 25، 26، 103، 104
- 106، 116
- شِيرَكُوهُ 2، 3، 4، 13، 16، 18، 21، 23، 24
- القَاضِي الْفَاضِلُ 21، 94، 104، 131، 151، 152
- قَرَأْفُوشُ التَّقْوِي 5، 51
- قُطْبُ الدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانِ الْمَنْبِجِي 32
- قَلِجُ أَرْسَلَانَ الثَّانِي 121
- الكَامِلُ بْنُ شَاوَرِ 26، 104، 106
- كِرَامَةُ الدُّرْزِي 74
- كَنْزُ الدَّوْلَةِ 6، 28، 29، 31
- كُونَرَادُ دِي مُونْتَفِرَاتِ (الْمَرْكِيْس) 74، 75، 92
- كُونِسْتَانَسْ، أَمِيرَةُ أَنْطَاكِيَّةِ 110، 112
- لويس التَّاسِعُ 149
- ليون، مَلِكُ أَرْمِينِيَّةِ 44
- صَبْرَغَامُ بْنُ عَامِرِ بْنِ سَوَارِ 106
- طِيَّ بْنُ شَاوَرِ 104
- العَادِلُ بْنُ أَيُّوبَ 5، 41، 53، 71، 99
- العَاضِدُ الْفَاطِمِي 4، 13، 23، 27، 103
- عَبْدُ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِي 133
- عَزَّ الدِّينِ ابْنُ الْأَثِيرِ 32، 109، 125، 136، 149

- مانويل الأول كومنين 51، 39  
 مُحمَّد النَّبِيُّ (ﷺ) 164، 150، 136، 19  
 مُحمَّد بن مَلِك شاه السَّلْجُوقِيّ 18  
 محمود سعيد عُمران 116  
 المُسْتَضِيء بأمر الله بن المُسْتَجِد 122  
 مُظفر الدِّين كُوكُبري 125، 64، 59، 47، 46  
 مُعِين الدِّين أُنر 152، 125، 18  
 ملكوم كامرون ليونز 143  
 مُؤتمِن الخِلافة 104  
 ميليسندا 114  
 ناصح الدِّين ابن الحَنْبَلِيّ 126  
 ناصر الدِّين مُحمَّد بن شِيرْكُوهُ 141  
 النَّاصِر لِدِين الله العَبَّاسِيّ 141، 123، 69  
 نَجْم الدِّين أَيُّوب الكَبِير 18، 16، 13  
 نور الدِّين محمود بن زَنْكِي 8، 7، 6، 4، 2  
 10، 12، 13، 14، 19، 21، 23، 27، 31، 74  
 104، 108، 114، 116، 117، 123، 125، 146  
 149، 150، 152، 153  
 نيكيثاس تشونياتس 152  
 هانز موهرينغ 152  
 هنري الثاني 118، 117  
 هويرت، أُسْقف سالزبري 134  
 هيو صاحب قَيْسَارِيَّة 25، 24  
 هيو صاحب كريونا 25  
 وليم الصُّورِيّ 152، 62  
 وليم ستابس 147  
 ياكوف ليف 103  
 يَحْيَى بن الخِطَّاط 104  
 يُوسُف المَلْكَانِيّ 44  
 يُوسُف بن نَجْم الدِّين أَيُّوب (صلاح الدِّين) 1  
 2، 3، 4، 5، 6، 8، 10، 12، 13، 14، 15، 16  
 18، 19، 21، 23، 24، 25، 27، 28، 29  
 31، 32، 34، 35، 37، 40، 41، 43، 44  
 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53  
 54، 55، 56، 58، 59، 60، 61، 63، 64  
 65، 68، 69، 70، 71، 72، 74، 75، 77  
 78، 80، 81، 83، 84، 86، 87، 88، 90  
 91، 92، 93، 94، 95، 96، 98، 99، 101  
 102، 103، 106، 108، 110، 113، 115، 116  
 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 125  
 126، 127، 128، 129، 131، 132، 134، 136  
 137، 138، 139، 140، 141، 143، 144، 145  
 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153  
 154، 164

# كشاف الأماكن

برقة	29	إثيوبيا	113
بركة مسكنة	56	أخلاق	8
بصري	46	إربل	125
بعلبك	50، 18	الأردن	5، 6، 34، 37، 81، 112، 114
بغداد	1، 10، 69، 122، 141، 143، 154	أرسوف	15، 55، 98، 99، 119
بلاد الجزيرة الفراتية	6، 8، 31، 164	أرمينية	8، 16، 44، 52
بلاد المغرب	19، 28، 88، 127، 152	الإسكندرية	3، 5، 13، 21، 45، 115، 116
بليس	2، 21، 107	أشوان	4، 6، 165
بوابة دمشق بالقدس	72	الأشمونين	24
بوابة يافا بالقدس	72	إفريقيا	35
بيت المقدس	2، 3، 4، 7، 14، 15، 34، 37، 41، 44، 45، 46، 47، 51، 52، 53، 54، 56، 60، 69، 71، 81، 86، 102، 104، 114، 115، 116، 119، 121، 126، 134، 136، 141، 155، 150	الأقحوانة	47
بيروت	39، 54، 74	أقطنانية (آكيتاين)	117
بيزا	86، 92	آمد	14
بيطو (بواتو)	117	الأندلس	28، 88
تبنين (تورون)	93، 95	أنطاكية	7، 15، 39، 44، 47، 55، 77، 80، 81، 110، 112
تزية صلاح الدين	123	إنكلترا	117، 130
تركيا	6، 39، 125	أوربا	10، 15، 113، 119، 125، 127، 140
تكريت	13، 18	إيطاليا	129، 139
تل السلطان	51	أيلة	4، 28، 35
تل الصافية	14، 34، 51	البايين	3، 21، 106، 115
تل عشترا	47، 53	بانياس	93
تنيس	51، 99	البحر الأحمر	14، 29، 30، 31، 37، 52، 113
جامع بالقسطنطينية	90	البحر المتوسط	7، 29، 37، 77، 129
		بحيرة طبرية	49، 58، 64، 66
		برج داود	71، 72
		برج هيروديان	71، 72

- الدَّارُومُ 4  
 دَبِيْلُ 16  
 دَجْلَةُ 6، 164  
 دلنا النَّيْلُ 107، 165  
 دُلْجَةُ 24  
 دِمَشْقُ 1، 6، 13، 14، 18، 19، 31، 35، 45، 53،  
 56، 93، 102، 109، 116، 124، 125، 129،  
 139، 149، 152  
 دمنهور 115  
 دِمِيَاطُ 4، 99  
 دُنْقَلَةُ 155  
 دِيَارُ بَكْرٍ 14، 53  
 رَابِعُ 53  
 رَأْسُ الْمَاءِ 45، 47، 53  
 رَعْبَانُ 52  
 الرَّمْلَةُ 55، 71، 101  
 الرَّهَا 7  
 سِجْنُ حِصْنِ بَرَزِيَهَ 80  
 سِجْنُ دِمَشْقِ 83  
 سِنَجَارُ 52  
 السُّودَانُ 29، 113، 127، 165  
 سُورِيَّةُ 6، 8  
 الشَّامُ 1، 2، 3، 4، 5، 8، 13، 14، 16، 27، 31،  
 35، 37، 43، 77، 104، 114، 116، 123، 125،  
 127، 129، 140، 148، 149، 150  
 شبه الجزيرة العربيَّة 14، 28، 29  
 شرق إفريقيا 29  
 الشَّرْقُ الْأَدْنَى 154  
 الشَّرْقُ الْأَقْصَى 29
- جامعة كامبردج 151  
 جبل الكَرْمِلُ 71، 87  
 جَبَلُ عَجْلُونُ 39  
 جَزِيْرَةُ قُبْرُصُ 43  
 جِسْرُ نَهْرِ اللَّيْطَانِي 94  
 الجليل 46  
 جورجيا 8  
 الحِجَازُ 52  
 حِصْنُ الْقُصَيْرِ 81  
 حِصْنُ بَرَزِيَهَ 80  
 حِصْنُ بَيْتِ الْأَحْزَانِ 52  
 حِصْنُ سَرْخُومُولُ 74  
 حِصْنُ شَقِيْفِ أَرْنُونُ 81، 83، 92، 93، 94  
 حِصْنُ صِهْيُونُ 78، 79  
 حِصْنُ كَيْفَا 52  
 حِطِّينُ 15، 27، 44، 45، 49، 53، 56، 58،  
 59، 60، 63، 64، 65، 66، 69، 83، 114،  
 126، 134، 141، 155  
 حَلَبُ 1، 14، 31، 37، 50، 51، 53، 78، 112،  
 149، 153  
 حَمَاةُ 6، 14، 109  
 حِمْصُ 6، 14، 50  
 خان العَرُوسِ 129  
 جَزِيْرَةُ مَسْكَنَةَ 56، 59  
 الخَرْبُوتِيَّةُ 87  
 حِسْفِيْنُ 47  
 حَلْدَةُ 74  
 خليج الإسكندرية 116  
 خليج العقَبَةِ 37

الْمُسْطَاط 108 ، 107	الشرق الأوسط 1 ، 10 ، 12 ، 19 ، 31 ، 37 ، 81 ،
فِلَسْطِين 6 ، 41 ، 104 ، 129	112 ، 122 ، 131 ، 140 ، 144
فيسبادن 152	
القاهرة 1 ، 21 ، 28 ، 29 ، 34 ، 107 ، 115 ، 116 ،	الصَّعِيد 6 ، 21 ، 28 ، 31 ، 103 ، 113 ، 115 ، 116 ،
152	165
قَبْر شُعَيْب 57	صَفُورِيَّة 47 ، 48 ، 49
قُرُون حِطِّين 57 ، 58 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 68 ،	صِقْلِيَّة 92 ، 129
109	صُور 15 ، 54 ، 55 ، 66 ، 75 ، 81 ، 86 ، 92 ، 94 ،
قُرُون حَمَاة 51 ، 109	95 ، 96 ، 141
قرية شَجَرَة 58 ، 59	صَيِّدَا 54 ، 71 ، 86 ، 94
قرية نَمْرِين 57 ، 65	طَبْرِيَّة 48 ، 49 ، 53 ، 56
القسطنطينية 40 ، 44 ، 75 ، 90	طَرَابُؤُس 7 ، 15 ، 53 ، 60 ، 64 ، 81 ، 92 ، 94 ، 112
قَصْر إِبْرِيم 5	طَرَطُوس 55 ، 77
قَلْعَة الشُّوْبَك 81	طُرْعَان 50 ، 56 ، 57
قَلْعَة القُدْس 72	
قَلْعَة بَغْرَاس 80	عَجْلُون 39
قَلْعَة حَمْص 50	عَدَن 30 ، 53
قَلْعَة دِمَشْق 19	العراق 1 ، 8 ، 14 ، 16 ، 18 ، 27 ، 31 ، 108 ، 109 ،
قَلْعَة شَقِيف حَبِيس جَلْدَك 37	123 ، 125
قَلْعَة طَبْرِيَّة 49 ، 53 ، 66	عَسْقَلَان 54 ، 55 ، 99 ، 114
قَلْعَة طَرَطُوس 55 ، 77	عَكَّا 15 ، 47 ، 54 ، 55 ، 56 ، 86 ، 91 ، 95 ، 98 ،
قَلْعَة كَوْكَب 55	119 ، 134 ، 137 ، 155
قَلْعَة مَنبِج 32	عَيْدَاب 113
قناة بَحْر يُوْشِف 24 ، 26	عُيُون كَرِيْسُون 47 ، 53
الكَرْك 4 ، 5 ، 37 ، 46 ، 53	عَزَّة 4
كَفْر سَبْت 48 ، 49 ، 50 ، 60	عُوطَة دِمَشْق 35
كُوم الرِّيش 2	
كُوم تَرْوِجَة 115	فَارِس 1
	الْفُرَات 6 ، 164
اللَّادِيَّة 55	فَرَنَسَا 110 ، 117 ، 130

- لُبْنان 6، 8، 18، 74  
لُدّ 71، 101  
الطُّرُون (النَّطْرُون) 55، 101  
لُويَا 48، 56، 58، 59  
لِيبيا 5، 14، 28، 51  
نابُلُس 70  
النَّبِك 129  
نهر الأُرْدُنّ 35، 47، 48، 49  
نهر العاصي 7  
نهر النَّيْل 26، 30، 35، 108، 116، 155  
نهر البِرمُوك 37  
نهر بَرْدَى 35  
النُّويّة 14، 28، 29، 113، 127  
الهند 29، 37، 113، 129  
واحة تَيْمَاء 37  
وادي الحَمَام 66  
وادي النَّيْل 28، 165  
وادي نهر اللِّيطاني 92  
يافا 71، 114  
اليَمَن 6، 8، 14، 28، 29، 113، 129  
اليونان 75  
مَارِدِين 14، 53  
المحيط الهندي 113، 129  
مَخاضَة يَعْقُوب 35  
المَدْرَسَة العَرِيزِيَّة 123  
مَدْرَسَة رِبيعة خائُون بالقُدْس 126  
المدينة المُنَوَّرَة 29، 136  
مرتفعات الجُولان 47  
مَرَج بُرْعُوث 93  
مَرَج عَكَّا 96  
مَرَج عُيُون 14، 35، 52، 93، 94، 95  
مرسلكليكيّا 56  
مَضْر 1، 4، 5، 8، 13، 21، 23، 27، 28، 29  
31، 34، 35، 37، 43، 53، 99، 103، 104  
108، 113، 114، 115، 117، 125، 127، 129  
138، 140، 144، 148، 149، 152  
مَضِيق باب المُنْدَب 29  
مَعبد بِن عِزرا 34  
مَكَّة 29، 136  
مَنبِج 32

ولكون ديفيد نيكول، مُؤرِّحًا عسكريًا إنكليزيًا، له كِتَابَاتٌ ثَقَالُ الوَطَاءَةِ في الغرب، تَتَسَمُّ بالموضوعيَّةِ إلى حدِّ كبيرٍ، ويأتي في سَنَامِ أَعْمَالِهِ هذا الكِتَابُ الذي نَحْنُ في رِحَابِهِ نتجوَّلُ وعمَّا قَرِيبٍ سنقطفُ من ثَمَارِهِ اليُنْعُ؛ إذ يتناولُ الجَانِبَ القِيَادِيَّ وَالِإِسْتِرَاتِيجِيَّ وَالصَّرَاعِيَّ من مسيرةِ صلاحِ الدِّينِ على نَحْوِ أَحْصَ، ومن ثَمَّ وقعَ عليه اخْتِيَارِي. فالْمُؤَلَّفُ يَتَّخِذُ مَوْقِفًا بَيْنَ بَيْنٍ من صلاحِ الدِّينِ، مُتَجَنِّبًا التَّفْرِيطَ وَالِإِفْرَاطَ: فلا هو بِالْمُؤَيِّدِ القُحِّ، ولا هو بِالْمُتَحَامِلِ الإِدِّ، وَإِنْ كَانَ إلى الحِيَادِ أَقْرَبَ.

علاء مصري النهر، درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ترجم كتاب صلاح الدين لستانلي لين بول، وكتاب الإسلام مقدمة تاريخية لجيرهارد إندريس، وحقق الجزء السادس من كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل.

